

#2
ابنة البابا
12.9.2018
رواية
داريو فو
نقلها عن الإيطالية معاوية عبد المجيد
التنوير

داريو فو

ابنة البابا

رواية

نقلها عن الايطالية

معاوية عبد المجيد



داريو فو

ابنة البابا

الكتاب: ابنة البابا (رواية)

تأليف: داريو فو

ترجمة: معاوية عبد المجيد

عدد الصفحات: 256 صفحة

الطبعة الأولى: 2018

الترقيم الدولي: 3 -007 -472 -614 -978

هذه ترجمة مرخصة لرواية

LA FIGLIA DEL PAPA BY DARIO FO

Chiarelettere Editore s.r.l., 2014

Gruppo Editoriale Mauri Sapgnol

Illustrations by Dario Fo in collaboration with Jessica Borroni and Michela Casiere

الناشر

دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت - بئر حسن - سنتر كريستال، الهزيم - الطابق الأول

هاتف: 009611843340

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

مصر: القاهرة 2- شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) - جاردن سيتي

هاتف: 002022795557

بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

Questo Libro Èstato Tradotto Grazie A Un Contributo Alla Traduzione Assegnato Dal Ministero Degli Affari Esteri E Della Cooperazione Internazionale Italiano

نُشر هذا الكتاب بدعم للترجمة من وزارة الشؤون الخارجية والتعاون الدولي الإيطالية

الناس في منتهى السذاجة، يرضخون لضرورات الواقع، حتى إنّ المُخادع سيجد دومًا مَن تنطلي عليه الخديعة.

نيكولو ماكيافيللي: «الأمير»



لوكريسيا

تمهيد

أقدامٌ غارقةٌ في الوحل

لاقت حياة آل بورجا، بما فيها انتصاراتهم وفضائحهم الموثّقة نوعًا ما، اهتمام أهل الأدب؛ وتمّ نقلها إلى أعمال مسرحيّة، وأفلام سينمائيّة لمخرجين مبدعين وممثّلين بارعين؛ وإلى مسلسلَيْن تلفزيونيَّيْن مؤخّرًا حظيا بنجاحٍ منقطع النظير.

ما سرّ هذا الاهتمام الشديد بسلوك تلك الشخصيّات؟ يعود الاهتمام بلا شكّ إلى الوضاعة وانعدام الأخلاق اللذين يُنسبان إليهم في كلّ تفاصيل حياتهم. حياة ماجنة بالمطلق، بدءًا من السلوك الجنسيّ وصولًا إلى السلوك الاجتماعيّ والسياسيّ.

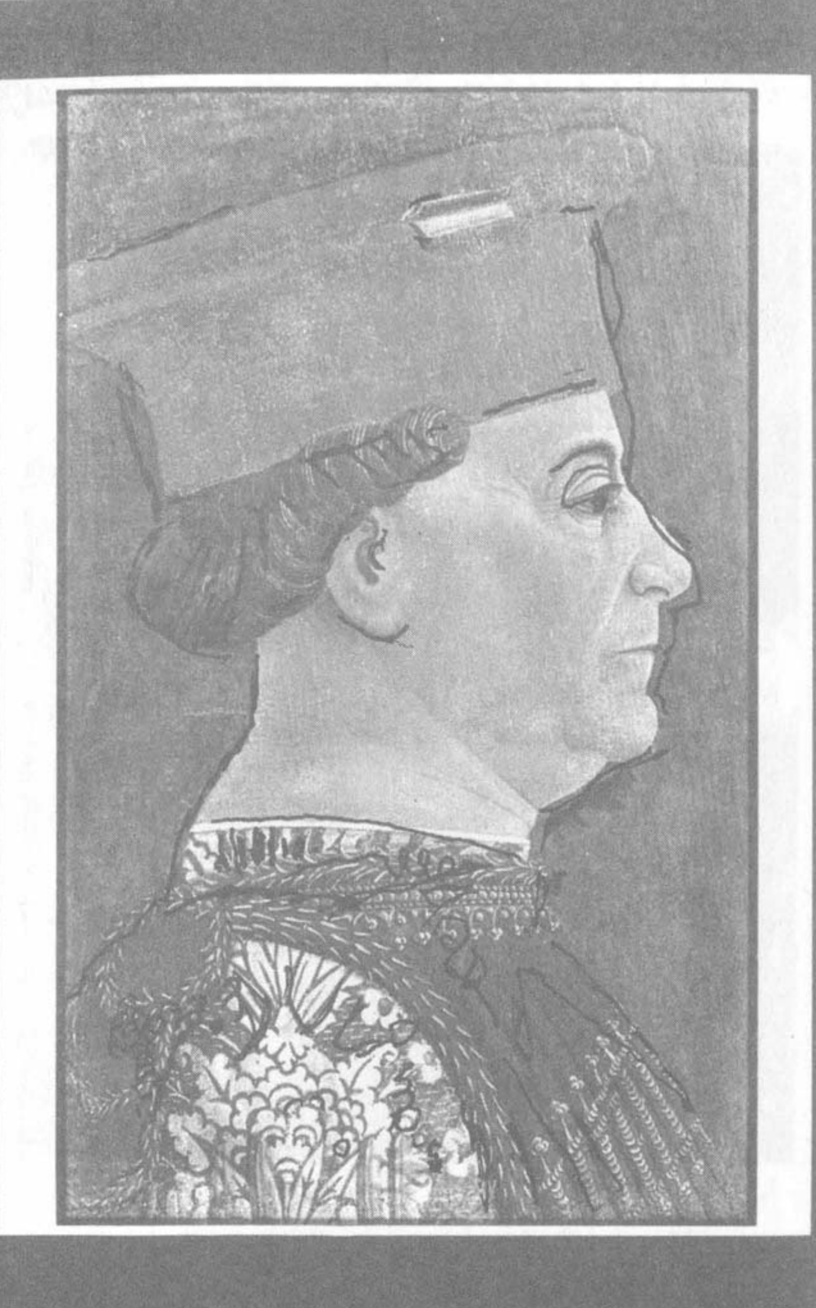
من بين كبار الأدباء، الذين قصّوا علينا وقائع هذه العائلة المتسلّطة، وخلاعة أفرادها وقصص الحبّ التي صادفوها، نذكر مثلًا: ألكسندر دوما، وفيكتور هوغو وماريّا بيلّونشي. لكنّ أكثرهم أهمّية كان جون فورد، كاتبٌ مسرحيٌّ بريطانيٌّ من العصر الإليزابيثيّ؛ إذ ألّف مسرحيّة في بدايات القرن السابع عشر بعنوان «لسوء الحظّ أنّها عاهرة»، مستلهمة من دون أدنى شكّ من الحوادث المزعومة

بين لوكريسيا بورجا وشقيقها شيزاري، إذ تؤكّد الأسطورة بأنّهما كانا على علاقة عاطفيّة. أجرت صديقتنا مارغريتا روبينو أبحاثًا عن المسرحيّات المكتوبة في العصر نفسه الذي عاش خلاله آل بورجا، واكتشفت كاتبَيْن اثنين: جوفاني فالوجي وسبيرونه سبيروني، يلمّحان إلى هذا التفصيل بإخفائه خلف مرجع رومانيّ: أوفيد، دفعةً واحدة!

من المؤكّد أننا لو أخرجنا قصّة البابا ألكسندر السادس وأقاربه من سياق عصر النهضة الإيطاليّة، لحصلنا على ملحمة مثيرة، حيث لا تقيم الشخصيّات أيّ اعتبارٍ تجاه خصومها، وغالبًا ما تنقصها الكرامة تجاه أنفسها أيضًا.

أمّا القربان الذي يقَدَّم في كلّ مرّة، فهي لوكريسيا طبعًا، منذ أن كانت صغيرة. إذ كان كلٌّ من والدها وشقيقها يستغلّانها لصالح صفقاتهما الماليّة والسياسيّة، من دون أن تأخذهما بها شفقة أو رحمة. لم يكترث أحدٌ برأي الفتاة الرقيقة. إنّها أنثى بالمحصّلة، هذا تقييم والدها الذي سيعتلي عرش البابويّة، وشقيقها الذي سيُنصَّب كاردينالًا. بل في كثير من الأحيان، لم تكن لوكريسيا سوى علبة فيها نهدين بارزان وردفان مذهلان. آه، نسيتُ أن أضيف: كانت عيناها تقدحان إغواءً وشبقًا أيضًا.

لكنّ الفظائع المدويّة في إيطاليا لم تكن حكرًا على الأوساط في روما. يكفي أن نشير إلى ميلانو لنقدّم إليكم آل فيسكونتي وآل سفورسا، والذين سنلتقي بهم في حكايتنا أكثر من مرّة يؤدّون أدوارًا رئيسيّة.



فرانشسكو سفورسا



لودفيكو

عام 1447، يموت فيليبو ماريّا فيسكونتي من دون أن يترك وَرَثةً ذكورًا، إنّما ابنة واحدة غير شرعيّة، تدعى بيانكا ماريّا، والتي تحصل على الشرعيّة في تلك المناسبة كي تُساق زوجةً إلى فرانشسكو سفورسا الذي كان والده قائد فرقة من المرتزقة وينحدر من أصول عاميّة. كان والده طحّانًا بالفعل. وهكذا تنشأ سلالةٌ حاكمةٌ جديدة. تنجب العروس الشابّة ثمانية أبناء، من بينهم غالياتسو ماريّا ولودوفيكو الذي سيلقّب بـ«مورو»/ «الأسمر».

كان غالياتسو ماريّا «قاهرَ الإناث»، كما يُقال في نابولي، أي زير نساء منكبّ على المغامرات الحميمة مع النساء النبيلات والغانيات الرخيصات على حدٍّ سواء. وهذا ما وفّر له كميّة كبيرة من الأعداء، حتّى إنّ المشاركين في مقتله كانوا كثرًا. لقي مصرعه طعنًا، خارج كنيسة القدّيس استيفان، في السادس والعشرين من ديسمبر عام 1476، أي في يوم الاحتفال بعيد القدّيس استيفان تحديدًا؛ على يد جوفاني أندريا لامبونياني، وجيرولامو أوليغاتي وكارلو فيسكونتي الملقّب بابن الزنى. يا لهذا العدد من المتآمرين، ولا حتّى يوليوس قيصر!

بعد مصرع غالياتسو ماريّا، كان من المفروض أن يخلفه ابنه جان غالياتسو الذي لم يبلغ من العمر سوى سبعة أعوام. لكنّ الأسمر يتولّى وصاية العرش، بمساندة الفرنسيّين، ويستغلّ نعومة أظفار الطفل كي يوسّع نفوذه الشخصيّ. بيد أنّ عقله الإجراميّ لا يتوقّف عند هذا الحدّ. أراد أن يتخلّص من خصمه نهائيًا، خصمه الذي كان ابن أخيه من زاوية أخرى، فقرّر أن يسمّمه، على جرعات بطيئة، بحيث لا يثير حوله الشبهات. يموت الطفل في النهاية، كما كان

متوقّعًا، ويقف عمّه أمام النعش ليذرف عليه دموعًا غزيرة، ويخلفه على حكم دوقيّة ميلانو.

لماذا أشرنا إلى هذه الأسرة؟ بدايةً، لأنّ الأسمر سيتزوّج، بعد بضع سنوات، بياتريشه دا إيستي، شقيقة ألفونسو دا إيستي الذي سيتزوّج لوكريسيا. لكنّ الصلات العائلية متفرّعة جدًا، إذ إنّ إيزابيلا دا إيستي، شقيقة ألفونسو وبياتريشه، ستتزوّج فرانشسكو غونزاغا، ماركيز مدينة مانتوفا، الذي سيكون له دورٌ في بعض ما أشيع عن لوكريسيا، كما سنرى. وإذا نظرنا مليًّا، لوجدنا أنّ الدائرة لا تُغلق هنا أيضًا.

لا بدّ لنا، قبل كلّ شيء، أن نستحضر بعض الوقائع، كي يتسنّى للجميع استيعابَ الجوّ العام في روما، وإيطاليا كلّها، أواخر القرن الخامس عشر. في هذا الخصوص، سنسلّط الضوء على رسالة كتبها أسقفٌ شابّ، تمّ تعيينه للتوّ، لأحد رفاقه في معهد تأهيل القساوسة.

حفلاتٌ فاخرة ونساء مرهفات

يروي الأسقف عن حفلة بابويّة صغيرة، دُعيت إليها «الحسناواتُ الملاح»، أي سيّدات البِلاط الراقيات، ليرقصن في منافسةٍ فريدة من نوعها: يتمايلن بأردافهنّ نزولًا إلى مستوى الأرض حيث أوقِدت شموعٌ معطّرة؛ وعلى كلّ راقصة أن تطفئ شمعتها، بعد أن ترفع ثيابها طبعًا، ثمّ تنهض ملتقِطةً عقب الشمعة بفرجها، آخذة بالحسبان ألّا يقع من بين فخذيها. تخيّلوا حرارة التصفيق!

ثمّة حدثٌ جديرٌ بالذكر لأنّه يحملنا مباشرة إلى مدخل قصّتنا:

في الثالث والعشرين من يوليو 1492 يدخل البابا إنوسنتيوس الثامن في غيبوبة، لينتظر أجَلَه خلال أيّام معدودة.

هو الذي قال عنه سافونارولا، هجّاء الأساقفة والباباوات: «[إنّ انحلال] الفنّ يشبه الضلال المستشري في عرش القدّيس بطرس في روما [...]. نتحدّث عن البابا إنوسنتيوس الثامن، الذي لا شيء في حياته يدلّ على العفّة سوى اسمه[1]».

ومع هذا، فإنّ دوما[2]، الذي ألّف قصة رائعة عن آل بورجا والباباوات السابقين، يخبرنا بأنّه كان ملقّبًا بـ«أبي الشعب»، لأنّه زاد من عدد رعاياه بفضل نشاطاته الغراميّة، مضيفًا إليهم ثمانية ذكور وثماني إناث[3] - خلال حياة قضّاها بشهوانيّة مفرطة - من عدّة عشيقات بالطبع. لا يعلم أحدٌ كيف كان يختارهنّ، علمًا أنّه كان يعاني من حسر بصرٍ مستفحل. حتّى إنّه عيّن أسقفًا مرافقًا لا وظيفة له سوى الهمس في أذنه باسم من يقبّل خاتمه، وجنسه وعمره وصفاته الجسديّة.

غير أنّنا نقرّ بأنّ هذا البابا الآثم كان لديه حسٌّ رفيعٌ بالعائلة. فاهتمامه بأبنائه نابعٌ من المودّة الصافية وليس من المحسوبيّة الوضيعة.

وقد نجح في اختيار أفضل الفتيات من بين بنات أرفع الرجال وأشهرهم، بدءًا من ابنة لورنتسو دي ميدتشي المفضّلة زوجةً لنجله

---

(1) إشارة ساخرة إلى لقب البابا Innocentius والذي يعني «البريء، الطاهر، العفيف» حرفيًا باللاتينية. [المترجم].

(2) Alexandre Dumas, *I Borgia*, Sellerio, Palermo 2004. [المؤلّف].

(3) *Ivi*, p. 19. [المؤلّف].

فرانشسكيتو شيبو؛ وذلك ليطيل عمر ذريّته على أكمل وجه. كما اختار لبناته الكثيرات أرقى الشبّان من أنبل العائلات في إيطاليا.

في كتابه «حضارة عصر النهضة الإيطالية»، يسلّط ياكوب بوركهارت الضوء على جوانب في غاية الأهميّة من سلوك إنوسنتوس الثامن وابنه فرانشسكيتو: «أسّسا مصرفًا يمنح صكوك غفرانٍ دنيويّة تضمن الإفلات من العقاب على كلّ الذنوب، بما فيها جرائم القتل، مقابل ضرائب مرتفعة نوعًا ما؛ وكلّما خرجتْ تبرئةٌ تامّة دخلتْ مائة وخمسون دوقيّة إلى الخزينة البابويّة، يصبّ معظمها في حساب فرانشسكيتو. وهكذا اكتظّت روما، خصوصًا في السنوات الأخيرة من ذلك العهد، بمجرمين [ومنحرفين] يحميهم القانون [والعفو المضمون]».

الرحمة والتسامح ضمانة للسلطة

ما يهمنّا أنّ هذا الحشد الهائل من الأوغاد، سينضمّ إليه مائتا وغدٍ وأكثر في يوليو من ذلك العام 1492. قد يبدو لكم الأمر غريبًا لكنّ هذا ما حصل فعلًا: أكثر من مائتي قتيل، واحدًا تلو الآخر، ما يعني أكثر من مائتي قاتل، في غضون أسابيع قصيرة.

لماذا تقع مجزرة من هذا النوع؟

الإجابة بسيطة: إبّان رحيل أيّ بابا، تُرتكب الكثير من جرائم القتل في روما؛ وذلك لأنّ المَجْمع البابويّ، حين يختتم جلسة انتخاب الحَبر الجديد، يُصدر عفوًا، كما جرت العادة، عن كلّ مرتكبي الجرائم خلال الأيّام التي خلا فيها العرش.

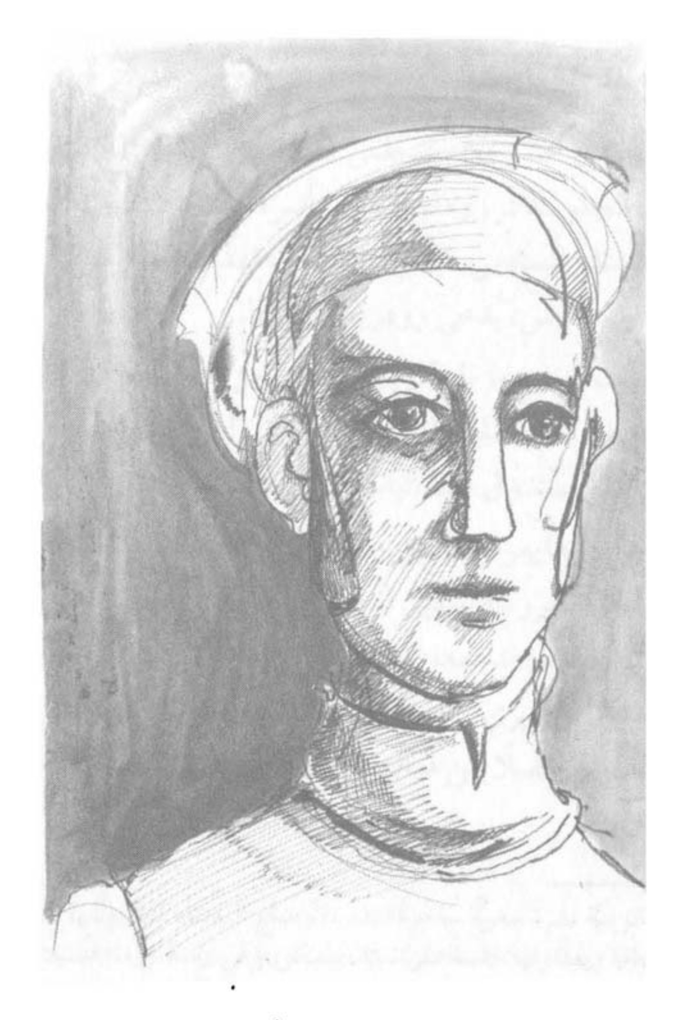


إنوسنتيوس الثامن

وهكذا فإنّ الناقمين، الراغبين بالانتقام، يستغلّون خلوّ العرش ليفرّغوا الغلّ المستشري في صدورهم؛ يقتلون اليوم ليعودوا أحرارًا في الغد، وكلّ هذا بفضل عفوٍ شامل ومضمون. ما أجمل ذلك الزمان!

والآن، بعد أن أوضحنا الجوّ العامّ، سنبدأ حكايتنا تمامًا من وفاة هذا البابا، وما حصل بعدها مباشرة.

الجزء الأول



رودريغو بورجا

لعبة الحظّ المباركة

في الحادي عشر من أغسطس 1492 دوّت المدافع الثقيلة في قلعة سان أنجلو لتذكّر روما، والعالم بأسره، بانتخاب الحبر الجديد، بلقب ألكسندر السادس. نبأ سارّ لإسبانيا، فهذا البابا الإسبانيّ الثاني الذي يعتلي العرش، يُدعى رودريغو بورجا.

وصدرت في روما باسكوينيّةٌ[1] كتبها مؤلّف مجهول، كالعادة، يصرّح فيها: «تمّ تسليم العرش البابويّ لمن قدّم أعلى رشوة للقائمين على صندوق لعبة اليانصيب المقدّسة».

كان أهل روما يعرفون أصل وفصل كلّ كاردينالٍ متواطئ في تلك اللعبة: آشانو سفورسا، شقيق لودوفيكو الأسمر، حصل على مدينة نيبي برمّتها مكافأة لدعمه، إضافة إلى أربعة بغال محمّلة بالذهب. جوليانو ديلّا روفيري، تلقّى ضمانةً للصعود إلى قمّة الهرم في القرعة القادمة. فضلًا عن هبات ومنافع لجميع الناخبين الآخرين.

(1) الباسكوينيّة نشرة شعبيّة ساخرة تنتقد الأوضاع الراهنة، كان يؤلّفها مجهولون من العامّة ويعلّقونها خلسة على تمثال باسكوينو في وسط روما؛ فنُسبت النشرة إلى اسم التمثال، ووُصف التمثال بالناطق. [المترجم].

فلنأتِ إلى هذا البابا الجديد، الذي اخترنا ابنته بطلةً محوريّة لحكايتنا.

لا نعرف الكثير عن أجداد بورجا، فالأخبار الشحيحة التي وصلتنا غير كافية لتحديد أصولهم، إذ ينسب المتملّقون لهذه الأسرة الإسبانيّة انحدارها من آل ملوك أراغون دفعة واحدة، لكنّ هذا يبقى احتمالًا ضعيفًا.

في الحقيقة، لم يكن لهذه الأسرة وجودٌ قطعًا قبل المؤسّس الأوّل لهذه العصابة - عذرًا! - هذه السلالة: نتحدث عن ألفونس بورجا بطبيعة الحال. يظهر والد هذه الحظيرة باسم دومينيغو أحيانًا، وباسم خوان أحيانًا أخرى؛ أمّا الوالدة، فلا نعرف حتّى كنية عائلتها.

وُلد ألفونس عام 1378 في بلنسية. عُيّن كاتبًا سرّيًا في بلاط ملوك أراغون، ثم غيّر رداءه بغمضة عين لنجده، خلال زمن قصير، يرتدي ملاءة أسقف بلنسية. وبهذا اللباس يرسو في نابولي، إبّان حصول الملك ألفونس دي أراغون على لقب «عاهل النابوليين». عام 1444 عُيّن ألفونس بورجا كاردينالًا[1]. يا لهذا الارتقاء السريع الخارج عن المألوف!

ومن المعلوم أنّ المخطّط الإسبانيّ ينافس المخطّط الفرنسيّ، منذ منتصف القرن الخامس عشر، على انتزاع منصب البابا وإمبراطوريّته الأوروبيّة. وكان آل بورجا روّاد الاستحواذ على العرش البابويّ. بل كان ألفونس تحديدًا أوّل من شغل منصب

(1) Ferdinand Gregorovius, *Lucrezia Borgia*, Salerno Editrice, Roma 1983, p. 33. [المؤلّف].

الحبر الأعظم من أسرته، وتكلّل بالتاج البابويّ عام 1455 بلقب كالكيستوس الثالث. وبعد أن وطّد مفاصل حكمه، انتقل عددٌ كبير من أقاربه إلى روما، سواء أولئك الذين تجمعهم صلة الدم بقداسة البابا البلنسيّ، أم أولئك الذين تقرّبوا منه. وكان من بين هؤلاء قريبه العزيز: رودريغو.

يُجمِع كلّ المؤرّخين والباحثين، المختصّين في تاريخ آل بورجا، على أنّ رودريغو قدِم إلى روما وهو ابن ثمانية عشر عامًا تقريبًا، واضعًا نفسه تحت تصرّف الحبر الإسبانيّ. وهذه أوّل دلالة على محسوبيّة صاحب الجلالة الذي يُنفق ما شاء من نقودٍ لتوفير احتياجات قريبه. تتلمذ رودريغو على يد المعلّم غاسباري دا فيرونا، ذي الخلفيّة الثقافية الواسعة والقدرات الهائلة في مجال التعليم.

بعد بضع سنوات، ينتقل الفتى إلى مدينة بولونيا، شمال إيطاليا، لدراسة القانون. يستغرق الحصول على الشهادة نحو سبعة أعوام. وليس من الوارد أنّه انكبّ على دراسة السجلّات القانونيّة ليزداد علمًا في البلاغة والكهنوت. إذ سرعان ما حظي باستلطاف زملائه في الجامعة وتقديرهم. كان رودريغو شابًا يضجّ عنفوانًا، وسيم الملامح، لطيف الكلام. وكان محبوبًا لدى الفتيات وسخيًّا مع الأصدقاء حتى غدا، في زمن وجيز، زعيم تلك الشرذمة المكوّنة من أبناء التجّار والطبقة النبيلة.

كان يحضر كلّ الدروس، دقيقًا في خضوعه للامتحانات، ويحصل دومًا على ثناء كبير. وفي الوقت نفسه لا يتغيّب عن المآدب في المطاعم الشعبيّة وبيوت البغاءِ العامّة. يقول أستاذه في البلاغة: «من الصعب أن تقاوم المرأة غزله. يجذب النساء كما يفعل

المغناطيسُ بالحديد. والحديد مرادف القضيب بالطبع. يا إلهي، بمَ زلّ لساني!».

في التاسع من أغسطس 1456، ورغم أنّه لم ينهِ كامل دراساته، يجتاز رودريغو الامتحان النهائيّ، وذلك لمزاياه الخاصّة[1]. كان عمّه حينذاك قد اعتلى العرش البابويّ؛ يسرّه النبأ فيتحمّس ويعيّنه كاردينالًا مكافأةً على جهوده. لكنّ التعيين يتمّ بموضوعيّة وحياديّة مفرطة بالطبع، تفاديًا للتهم التي لا تُحصى حول نزوعه للمحسوبيّة ومحاباة الأقارب.

ولا يتوقّف مسلسل المنح والامتيازات عند هذا الحدّ. قرّر البابا كاليكستوس الثالث تعيين ربيبه النجيب مبعوثًا بابويًا إلى مقاطعة أنكونا. وهذه ليست بالوظيفة السهلة، فالقائمون على تلك المقاطعة كانوا يتمرّدون ضدّ حكومة روما، ويتناحرون ما بينهم في الآن ذاته[2].

يصل الكاردينال الشابّ إلى مدينة أنكونا، بصحبة مجموعة صغيرة من الأعوان، ليلًا. وفي الصباح الباكر يدعو إلى عقد جلسة مع كلّ المسؤولين عن النظام والعدل وجباية الضرائب، في قصر الشيوخ.

يقدّم نفسه: «إنني هنا موفدٌ من قداسة البابا... قبل كلّ شيء، أودّ أن أستفسر منكم شخصيًا عن مدى جاهزيّتكم للهجوم؛ أقصد عدد

---

(1) Roberto Gervaso, *I Borgia*, Rizzoli, Milano 1980, p. 68. [المؤلّف].

(2) *Ivi*, pp. 70 sgg. [المؤلّف].

المشاة وعدد الفرسان الذين تحت إمرتكم، وعمّا إذا كانت لديكم أسلحة ناريّة. نبدأ بالمدافع. فهل لديكم مدافع؟».

أجابوه بحياء شديد: «لا، سموّكم. نحن لا نزال بانتظار المدافع، ولم يصلنا أيٌّ منها إلى الآن».

«جيّد، لقد فكّرتُ بالأمر. أحضرتُ معي أربع عربات مليئة ببنادق البارود والمدافع اليدويّة والبنادق ثلاثيّة الأقدام التي تمتصّ الارتداد؛ كما يوجد أربعة أزواج من الجواميس لجرّ أربعة مدافع ثقيلة قادرة على إطلاق قذائف تزن سبعة أرطال».

يعترف قائد الحرس متذلّلًا: «لكنّنا لا نعرف استخدام أسلحة من هذا النوع».

«إنّي هنا من أجل هذا بالضبط».

«هل ستعلّموننا، سموّكم؟».

«أنا قادر على تعليمكم، لكنّي أفضّل أن يتولّى المدرّبان اللذان أتيتُ بهما هذه المهمّة».

«عذرًا سموّكم، هل لديكم نيّة باستخدام هذه المدافع؟».

«أتفهّم ميولكم لتهدئة نفوس الشخصيّات البارزة في أنكونا، ما دام الوضع يزداد سوءًا في مدينتكم الباهرة. لقد استفسرتُ مسبقًا، وأعلم أنّكم، أنتم المسؤولون عن العدل والنظام، اتخذّتم خطًا متوازنًا ينجيكم من مغبّة هذه المقتلة الدائرة بين فرق النبلاء المتعدّدة. بالمحصّلة، لقد تلافيتم المهالك أيها المَكَرة! ولكنّكم الآن عند مفترق طرق. عليكم أن تختاروا. كفاكم حياديّة، كفاكم مقايضة ومنافع متبادلة. لم يعد بوسعكم التملّص، فقد جئتكم

بالأدوات التي تفرض النظام. عليكم أن تتعلّموا استخدامها، وإلّا استخدمتُها ضدّكم».

«كيف؟ مَن ينوي مهاجمتنا؟».

«لديّ في روما ألف رجلٍ رهن إشارتي، مستعدّين للحضور هنا سيرًا خلال يوم واحد، متأهّبين لتولّي مهامكم، طبعًا بعد أن يدفنوا مَن يخالف أوامرنا منكم. لكم الخيار!».

«ولكن، سموّكم... لقد اضطررنا للاستسلام أمام بطش هؤلاء المتمرّدين المسلّحين...».

«عذرًا؛ ألا تذكرون هذا الاسم: غريبو دي مالاتمبورا؟».

أجاب المسؤولون بصوت واحد: «نعم، إنّه أحد الوجهاء الذين دبّروا التمرّد الأخير!».

«حسنًا، لم يعد موجودًا».

«هل مات؟».

«لا، إنّه ضيفٌ في سجوننا. لقد وصلتُ في الليل لهذا الغرض تحديدًا، مع مجموعة من الرجال كافية للقبض عليه وتكبيله. هذا الذي قضّ مضاجعكم سيُرحَّل إلى روما بعد قليل، حيث سيلقى جزاءه من دون تسويف. أيعجبكم هذا التعبير: «من دون تسويف»؟».

«أجل، سموّكم».

«حسنًا، ستسمعونه مرارًا ما دمتُ هنا».

وهكذا، للمرّة الأولى، سمع أهالي أنكونا دويّ المدافع الثقيلة... وتلك الخفيفة أيضًا.

الجدير بالذكر أنّ ذلك القصف، ارتدّت أصداؤه بقوّة على المسؤولين في الإدارة العامّة. إذ استطاع رودريغو بورجا، المبعوث البابويّ إلى مقاطعة أنكونا، أن يقبض على قرابة المائة من الشخصيات المتمكّنة، والمتملّقين لهم. أمّا عدد الموتى لم يكن له أثر مقارنةً بنتائج تلك العملية.

وفي النهاية، بينما كان المبعوث يتهيّأ لامتطاء حصانه، أمام أعيان المدينة، سواء أكانوا المكبّلين أم الأحرار موقتًا، أنهى مهمّته قائلًا: «من الآن فصاعدًا، لم يعد عملكم عند دولة الكنيسة والحبر الأعظم رسميًّا وحسب، بل مراقَبًا وتحت طائلة المُساءلة، مهما ارتقت مناصبكم: مديرو بلديات وفرسان وقضاة، لم يعد أحدٌ منكم مخوّلًا فرض الضرائب وإقرار الغزو وإدارة العدل والتصرّف بأموال القمار والدعارة وصكّ العملة وابتزاز التجّار وأصحاب المحلّات والحرفيّين على طريقة المرابين الحكوميّين، كما كنتم تفعلون سابقًا. آه، كدت أنسى، أنتم والعمّال سيّان؛ عليكم أن تصرّحوا شهريًا بأنّكم قد دفعتم الضرائب للدولة التي أمثّلها أنا».

كان انتصارًا مظفّرًا، لا سيّما للشعب. حتّى إنّه عندما قال: «وداعًا، نلتقي قريبًا»، رافقه حشدٌ غفيرٌ من الناس حتّى الباب الكبير، وهم يصفّقون ويهتفون: «عد باكرًا يا رودريغو! نحن بحاجة إلى رجلٍ مثلك!».

وصاح أحدهم: «ها هو مَن يليق به لقب البابا، أنت يا رودريغو!».

«شكرًا، إنّي أفكّر بالموضوع، سأبذل ما بوسعي» أجابه الكاردينال، وهو يلكز حصانه ليحفزّه على العَدْو.

وحين وصل إلى روما، استقبله الشعب خير استقبال بعد أن علموا بما جرى في أنكونا. وحين دخل إلى الفاتيكان، صفّق له البابا بحرارة، وعانقه كما لو كان ابنه. وكافأه بتنصيبه نائبًا له؛ تلميحًا إلى أنّ الشابّ بات على مقربة من العرش البابويّ.

مسيرةٌ مهنيّةٌ مذهلة!

عائلة مثاليّة

في تلك الآونة، كان لدى رودريغو علاقة غراميّة، وربّما أكثر من واحدة. أنجب من عشيقاته ثلاثة أبناء. وقد تكون المرأة نفسها حملت ثلاث مرّات؛ لن نشطح في شكوكنا.

وكانت علاقته مع عمّه راسخة وتتمدّد في جوّ وديّ متزايد. ولكن، للأسف، بعد ثلاثة أعوام من انتخابه حبرًا أعظم، أصيب البابا كاليكستوس الثالث بداء النقرس، وبلغ مرحلةً شديدة الخطورة، كما وصفها الأطبّاء[1]. لم يخطر في بال أحد أنّ الإكثار من معاشرة النساء، في تلك السنّ، قد يسبّب هذا المرض. بأيّ حال، هذا ما توصّل إليه التشخيص الطبيّ في القرن السادس عشر: الإفراط في تناول اللحوم، سواء أكان على المائدة أم على السرير، مضرٌّ بالصحّة دومًا!

عندما علم النبلاء من أهل روما بأنّ البابا يحتضر، وهم الذين تجرّعوا بصمتٍ كأس الذلّ لثلاثة أعوام تحت حكمه القائم على

---

(1) Marion Johnson, *Casa Borgia*, Editori riuniti, Roma 1982, p. 44. [المؤلّف].

المحسوبيّة ومحاباة عدد لا يُحتمل من أقاربه وأتباعه؛ شعروا أخيرًا بأنّ لحظة الثأر من كلّ ذلك الطغيان قد حانت. فالامتيازات، التي احتكرها الاسبان طيلة تلك الأعوام، ستعود إليهم. وسيدفع المغتصبون الثمن.

حتّى إنّ الخدم والمتملّقين للاسبان، إضافة إلى من احترف التزلّف، يهربون واحدًا واحدًا؛ ليبقى رودريغو وحيدًا بجوار قداسة البابا في رمقه الأخير. يا له من مشهد مؤثّر: حضور الفتى بجانب عمّه؛ بل بإمكاننا القول إنّه لم يفارق السرير لحظة واحدة. علمًا أنّه كان يعي تمامًا خطورة بقائه وحيدًا، بلا حماية، أمام الغيظ المتدفّق من صدور الناقمين. ورغم هذا، فإنّ كبير الكرادلة لا يبقى ساهرًا عند راعيه وحسب، بل يضبط نفسه، ويلجم لسانه حين يسطو المرتزقة على قصره، بأمرٍ من أربابهم من آل كولونا وآل أورسيني الذين يُطلقون حملة تطهير واسعة، بكلّ معنى الكلمة، ما إن يلفظ البابا أنفاسه.

ها هو بيدرو لويس، شقيق رودريغو الأكبر، والذي عُيّن قائدًا عامًا لجيش الكنيسة وواليًا على المدينة، يضطرّ إلى الهرب متنكرًا، قبل يوم من وفاة البابا، لينجو من المذبحة. لكنّه كان عاثر الحظّ، وكأنّه لَيس من آل بورجا! فما إن لاذ بمدينة شيفيتافيكيا، حتّى أصابته المالاريا ومات.

أمّا في روما، التي كانت تشهد تنكيلًا بأيّ إسبانيّ، أو بمن تعاون مع الاسبان، فلم يجرؤ أحدٌ على مسّ شعرة واحدة من رودريغو. كان هذا الرجل استثناء. ليس بفضل حمايةٍ منحها له الحكّام الجدد، بل بفضل سمعته كرجلٍ لا بديل له، وموهبته التي لا مثيل لها في أداء دور نائب البابا. صدّقْ أوَ لا تصدّق: الخبرة والكفاءة تؤخذان بالحسبان!



فانوتسا كاتّانيه

كان بورجا الشابّ يبلغ من العمر سبعة وعشرين عامًا، عندما توفّي عمّه البابا كاليكستوس الثالث. وسيبقى، طيلة أربعة عهود بابويّة، في منصبه نائبًا للبابا من دون انقطاع. إلى أن يتخلّى عن هذا المنصب حين يتربّع بنفسه على عرش القديس بطرس.

عام 1466، أو ربّما في العام اللاحق، يلتقي الكاردينال رودريغو بأهمّ امرأة في حياته، بلا منازع؛ كيف لا وهي التي ستنجب لوكريسيا، بعد بضعة أعوام.

امرأةٌ فتّانةٌ حسناء من روما، تنحدر، غالب الظنّ، من أصول لومبارديّة، طويلة القامة، رشيقة القوام. ولا بدّ أنّها ذكيّة ولبيبة، وإلا لما استطاعت لفت انتباه رجل ضليع وذي بأس مثله.

اسمها جوفانّا كاتّانيه، وينادونها فانوتسا. كان عمرها قرابة العشرين عامًا حينذاك، أصغر من رودريغو بأحد عشر عامًا. حافظ الكاردينال على هذه العلاقة طيّ الكتمان، وأمّن لعشيقته بيتًا مناسبًا جدًا، يزورها فيه كلّ مساء، متوخّيًا أشدّ الحذر؛ رغم أنّ الأعراف السائدة في ذلك العصر لم تكن لتمنع رجل كنيسة من إقامة علاقات مشبوهة مع نسوة من أيّ طبقة أو منزلة اجتماعيّة.

نحن أمام شخصٍ يبالغ في تحرّره ويحافظ على قدْرٍ من الرزانة في آنٍ واحد. سَمّوها كما تشاؤون، نفاق رجال الدين، مثلًا، كما يعلّمنا موليير في مسرحيّته «طرطوف».

غير أنّ أكثر ما يميّز هذه العلاقة، خلافًا لكلّ العلاقات التي أقامها حتّى ذلك الحين، هو أنّ صاحب الشأن المعظّم لم يكن يبحث عن الهوى، بل عن الدفء العائليّ بالأحرى. لم يقصّر في رعاية

أيٍّ من الأبناء الأربعة الذين جاؤوا إلى الحياة نتيجة هذه العلاقة؛ ولطالما غمرهم بالألفة والحنان داخل نواة عائليّة شبه شرعيّة. ولئن تعذّر عليه أداء دور الوالد شخصيًا، فها هو الكاردينال يستأجر أحد الرجال ليؤدّي الدور نيابةً عنه. ويختاره بدقّة متناهية.

الرجل يدعى جورجو دي كروتشي، ويعمل سكرتيرًا رسوليًا. ومن نافل القول إنّ رودريغو كان وراء تعيينه في تلك الوظيفة في الفاتيكان. بل ورفع من أجوره ليؤدّي دور الوالد.

وكان على رودريغو أيضًا أن يجد له دورًا ما، فإذا به يؤدّي أكثر الأدوار واقعيّة: دور الخال. الخال المحبوب، السخيّ، الودود مع أبناء أخته بشكلٍ لا يُصدّق. حتّى إنّه يأتي لزيارتهم كلّ مساء، دقيقًا في مواعيده، حاملًا شتّى أنواع الهدايا. ثمّ إنّه اقتطع لنفسه جناحًا متواضعًا في بيت فانوتسا. شقّة صغيرة، تحيلنا إلى المسرح العاطفيّ، أو بالأحرى إلى التقنيات الإخراجيّة المستخدمة في الكوميديا المرتجلة. يخرج الزوج-الوالد، يدخل الخال-الكاردينال الذي (يا للصدفة) يهجع إلى جناحه ليبيت في تلك الليلة، بعد أن يعانق الأولاد ويهدهدهم. تمرّ لحظاتٌ قصيرة فإذا هو يتسلل خلسة ويتّجه إلى سرير زوجة ذلك الزوج الزائف. في بعض الأحيان، يحدث أن يصادف أحد أطفاله يبحث عن أمّه باكيًا لأنّه رأى كابوسًا ما؛ لكنّ الخال يهدّئ من روعه، ويحمله بين ذراعيه، ويأخذه إلى سريره الصغير، ويجود عليه بترنيمة النوم أيضًا. ثمّ يمضي ليدمدم ترنيمة النوم على أمّ الطفل.

لكنّ أصعب الأدوار، والحقّ يقال، هو الدور الذي أدّاه الزوج الزائف. فأن تؤدّي شخصيّة الزوج والوالد، ثمّ تختفي حين يظهر

سيّدك، لتعود في الفجر عند خروجه، وتنزع ثيابك لتخلد للسرير ثانية، ليست باللعبة الهيّنة والمسليّة كثيرًا. ولكنّك حين تحصل على امتيازات ماديّة باهظة، وتتمتّع بمكانة مرموقة وآمنة، فإنّ هذا يستحقّ أن تؤدّي دور القوّاد أيضًا.

وكما يحدث في الكوميديا المرتجَلة، التي بدأت تروج منذ ذلك الزمان، ها هو المشهد الحاسم الذي يقلب الحوادث. فجأة، يموت الزوج-الوالد الزائف. هل نحن أمام مشهد مسرحيّ مختلق؟ لا، إنّها الحقيقة. تمرّ جنازة الوالد المستأجَر بين صلوات ودموع، ولا بدّ من اختيار والد آخر. هذه المرّة، يقع الاختيار على أديب قدير، كارلو كانالي، أصغر سنًا من سلفه، في عمر فانوتسا تقريبًا. وبالطبع، سيحظى هو أيضًا بامتيازات وأجر كبير، وما عليه سوى أن يرعى شؤون الأرملة المكلومة وأولادها بصفته معلّمًا. وسيتقاضى أجرًا إضافيًا على أتعابه طبعًا.

وسرعان ما يكتشف كانالي كفاءة أبنائه الجدد، وألمعيّتهم في الموادّ العلميّة والأدبيّة كالشعر وغيره. لا شكّ أنّ لوكريسيا أكثرهم قدرة على إظهار مواهبها ورجاحة عقلها؛ فقد تعلّمت اللاتينية واليونانية ما بين الطفولة والبلوغ، باندفاع لا يضاهى، وحفظت عن ظهر قلب، في وقت وجيز، شذرات من أشعار أبرز الكتّاب في الأدب والعلوم. في تلك الفترة، لم تكن لوكريسيا قد تجاوزت عامها السادس بعد.

تمرّ ستّة أعوام أخرى حتّى يحتضر البابا إنوسنتيوس الثامن (الذي تطرّقنا إليه في البداية بخصوص مجموعته الفاخرة من العشيقات وذريّته المتعددة التي ولدت من أرحام تلك العلاقات المباركة).

مرّت خمسة وثلاثون عامًا على وفاة العمّ كاليكستوس الثالث؛ وبإمكاننا القول إنّ كلّ الخيارات التي أقدم عليها البابوات، الذين تتابعوا على عرش القديس بطرس، لم تكن إلا ثمارًا للإدارة الرشيدة لرودريغو بورجا. وكما أشرنا سابقًا، فإنّ موهبته في خلط الأوراق وتدوير المصالح المهمّة ما فتئت تجعل منه رجلًا لا يمكن استبداله بآخر يشغل منصبه كنائب للبابا.

بعد بيوس الثاني وبولس الثاني وسيكستوس الرابع، وإنوسينتيوس الثامن طبعًا، رأى الكاردينال بورجا أنّ الوقت حان لترشيح نفسه في انتخابات العرش الأعلى. وهكذا بات من غير المجدي أن يستمرّ في أداء دور الخال الكريم الذي يظهر على العائلة في المساء ويغادرها في الفجر. ما إن يغدو حاكمَ روما، سيكون قادرًا على تجاهل أيّ نميمةٍ تشيع بأنّ للبابا أولادًا من زواجٍ مرغنطيّ[1].

كان من الواجب الآن أن يصارح أبناءه بتلك الحقيقة. لا تتوفر لدينا وثائق عن هذا الأمر، ولكن من السهل تخيّل الحوار الذي دار لحظة كشف المستور. رودريغو يجمع العائلة حوله ويقول: «أبنائي الأعزّاء، خالكم سيصبح بابا قريبًا». تصفيق وهتاف، عناق وقبلات بين الإخوة. ما أعمار الأولاد؟ الأكبر، خوان، ثمانية عشر عامًا؛ شيزاري ستة عشر عامًا؛ لوكريسيا اثنا عشر عامًا، والأصغر خوفري عشرة أعوام.

---

(1) «Matrimonium ad morganaticam»: زواجٌ سائدٌ في أوروبا خلال عصورها الوسطى، بين رجل من طبقة نبيلة بامرأة متدنية الطبقة. يسمح للزوج عدم توريث ألقابه لزوجته وأبنائها، مقابل اعترافه بشرعيّة أبنائه منها. وقد جاء هذا الزواج ليضع حدًّا لتعدّد الزوجات [المترجم].

لوكريسيا تقفز بين ذراعي رودريغو، وتسأله: «هل لنا أن نناديك خالًا، أم علينا إضافة القداسة؟».

يلتقط رودريغو أنفاسه، يدعو الجميع للجلوس ثانية، بمن فيهم فانوتسا وزوجها، ثمّ يجهر بالحقيقة الرهيبة: «لا. لا يجوز أن تنادوني خالًا، لأنّي لست شقيق أمّكم فعلًا، وكارلو كانالي ليس زوجها الثاني حقًا، وأبوكم الراحل ليس بأبيكم قطعًا».

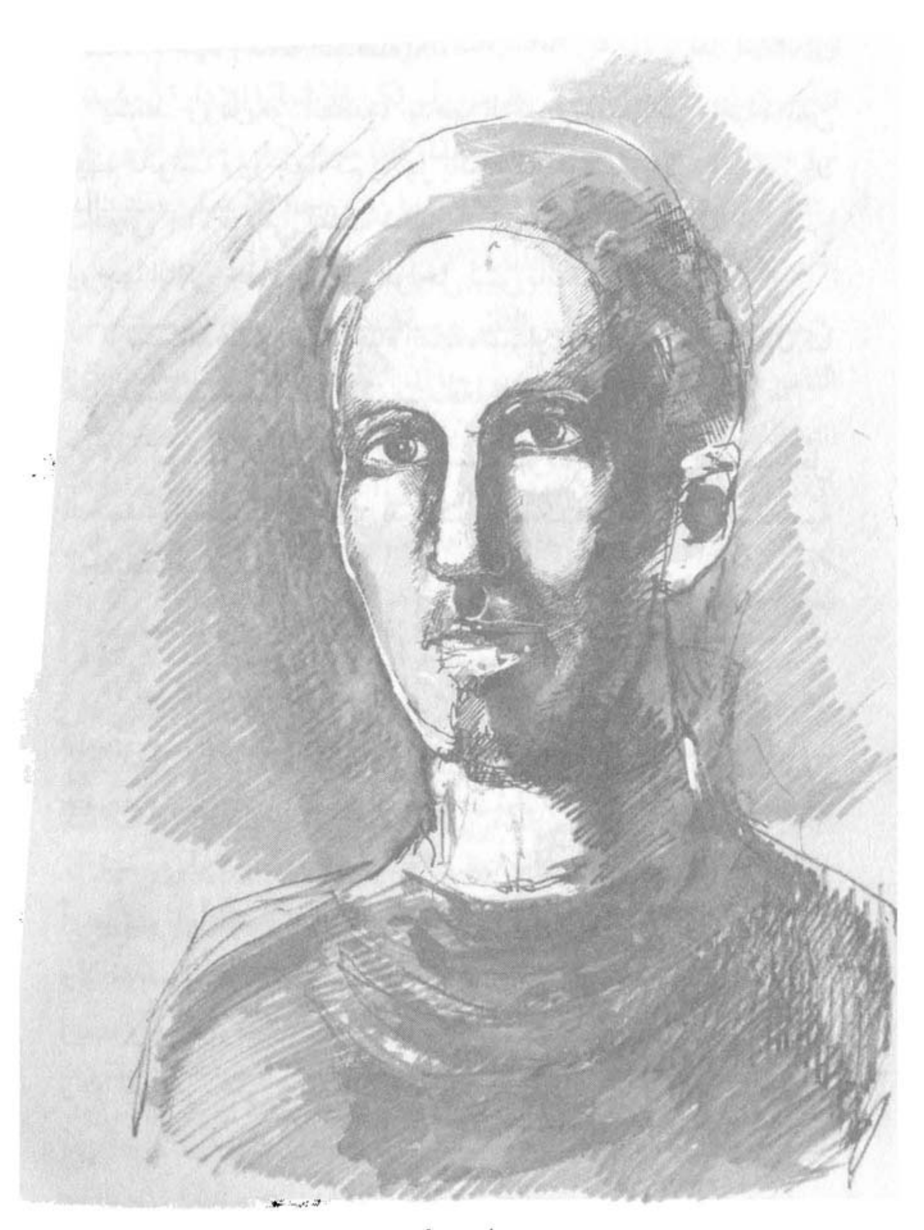
ترتسم الدهشة على وجوه الفتية، شيزاري يبادر بالسؤال: «إن كنّا هنا جميعًا شخصيات زائفة، مبتدعة، فمن تكون أنت؟».

«أنا أبوكم، أبوكم الحقيقيّ، لست أبوكم الروحيّ فحسب، بل الجسديّ أيضًا، أبوكم الذي أنجبكم مع أمّكم، وأمّكم هي الشخصيّة الحقيقيّة الوحيدة هنا».

يسأله شيزاري بنبرة متأثّرة: «ولماذا كذبتم علينا طوال الوقت؟».

«لأنّها كانت ستبدو فضيحة لو علم الجميع بأنّ نائب البابا، الذي هو أنا حتّى هذه اللحظة، لديه امرأة يعشقها، وأنجب منها أربعة أبناء يحبّهم جميعًا. وأنتم أيضًا، كان من الصعب أن تخرجوا من المسألة سالمين».

تنفجر لوكريسيا باكية، وشقيقها الأصغر كذلك: «لطالما أوصيتمونا بأن نتجنّب الكذب - تشهق الفتاة - وألا نخون الحقيقة ولا ندنّسها. والآن تخبروننا بأنّ كلّ شيء في هذا البيت محض زيف وخدعة. أبونا كان يكذب وهو يحضننا بين ذراعيه، يكذب وهو يستلقي على السرير مع والدتنا، ومعلّمنا كان يكذب أيضًا. كلّ شيء مزيّف. ماذا سنقول لأصدقائنا، وللناس الذين سيسألوننا ساخرين: «كيف حال والداكما؟».



رودريغو بورجا (البابا ألكسندر السادس).

يردّ رودريغو بهدوء: «توجّهين السؤال ذاته إليهم: «ووالداكما؟». عليكم أن تعرفوا هذه النقطة أيضًا: في الفاتيكان وما حولها، قلّما تجدون أبناء شرعيّين وأمّهات متزوّجات حقًا. بكلّ حال، اعلموا بأنّي لطالما أحببتكم باعتباركم أبنائي، والآن بوسعي أن أعبّر عن حبّي لكم في وضح النهار».

«ولماذا الآن تحديدًا؟».

«الإجابة بسيطة يا أعزائي. بعد عدّة أيام سأصعد ذروة الهرم. إنّه هرمٌ مكوّن من آلاف الرجال، جميعهم أقوياء نوعًا ما، وعليهم أن يدعموا الهرم بأذرعٍ مرفوعة، وعلى كلّ واحد منهم أن يحافظ على توازنه، فإذا اختلّ توازنه طُرِدَ وأُلقِي به خارج الهرم واستُبدِل برجل آخر أشدّ عزمًا وصلابة. الوحيد الذي لا يتعرّض للطرد هو الذي يكون في القمّة، أي البابا. وحده الموت قادرٌ على تنحيته. وهكذا أكون محصّنًا من كلّ الأقاويل والأباطيل، ناهيكم بالحقائق الممنوع التحدّث فيها. والأمر ذاته يسري عليكم، لأنكم أبنائي. تمامًا كما علّمني أستاذ الهندسة: التوازن الحركيّ أساس الإيمان. بعضهم يدّعي بأنّها هرطقة، لكنّي أراها مجدية بأيّ حال!».

قصّة حبٍّ مستحيلة... ومتهوّرة

نسينا أن نخبركم أنّ رودريغو، قبل أن يزفّ الحقيقة على عائلته، كان قد التقى بفتاة بليغة الحسن. كان جمالها محطّ انتباه طبقة النبلاء في روما قاطبة. إنّها جوليا فارنيزي.

في تلك الفترة، لم يكن آل فارنيزي ذائعي الصيت، كما صاروا

بعد عدّة أعوام. ترعرعت جوليا في الريف، قرب كابو دي مونتي، لكنّها اكتسبت تربية مرهفة في الآداب والرقص، والموسيقى أيضًا. يُذكر أنّها كانت ماهرة في العزف على آلة العود. تخطّت سنّ البلوغ للتوّ حين التقت بالكاردينال بورجا للمرّة الأولى في روما، إذ كان حينها بصدد الاستعدادات العامّة ليصبح بابا.

كان لقاؤه بالفتاة صعقة عشقٍ حقيقيّة، تهتزّ من تأثيرها الجبال. ذكّر الجميعَ جمالُها بأسمى الأوصاف؛ حتّى إنّ رافايلّو، الرسّام الشهير، أراد أن يخلّدها في إحدى لوحاته العظيمة. أغرم بها الكاردينال مباشرة. كان يناهز الثمانية والخمسين عامًا، مكتنزًا بطاقةٍ روحانيّة وسُمنة مفرطة أيضًا، إذ سيبذل جهدًا شاقًا في معانقة الفتاة التي أتمّت عامها الرابع عشر للتوّ، متألّقة كحوريّة لعوب.

ولكن، كيف استطاع الأسقف العجوز أن يدير هذه العلاقة؟ تتولّى المهمّة أدريانا ميلا، إحدى قريباته، فهي التي كانت تدير كلّ علاقاته الفاحشة حتّى تلك اللحظة. وعلاوة على ذلك، كانت ميلا مربّية لوكريسيا التي تسكن عندها. ثم إنّها قوّادة بارعة في سدّ الطريق أمام أيّ فضيحة محتملة. تسعى أدريانا لجعل لوكريسيا صديقةً مقرّبة لمعذّبة رودريغو الجديدة، وذلك لتضمن سترًا منيعًا لسريّة العلاقة. فإذا بالكارثتين تتزامنان: تدرك لوكريسيا أنّ خالها الحنون هو والدها الحقيقيّ من جهة؛ وتكتشف أنّ والدها هو عشيق صديقتها؛ فتتجاوز دهشتها كلّ حدود الإحباط.

إلا أنّ رودريغو، مع الأسف، لم يتولّ سدّة الحكم رسميًا بعد، وبالتالي لم يكن ليفرض مجونه على كلّ المملكة. لذا كان أمامه حلّ واحد من اثنين: إمّا أن يترك الفتاة، أو يحافظ عليها ويشاركها –

ظاهريًا على الأقلّ - مع وصيٍّ شرعيّ، حبّذا لو كان زوجًا. وعملًا بالمثل الأصيل: «من المستحسن أن تبقى الخفايا القذرة ضمن حدود العائلة»، تتولّى القوّادة الأمر، وتقترح ابنها أورسينو أورسيني مباشرة ليكون زوجًا لعشيقة البابا المنتخَب. حلٌّ مطابقٌ لـ«بيت وكنيسة» فعليًّا! كان أورسينو أعور، فسلّم أمره وأغمض عينه الأخرى أيضًا! لا بدّ أن يستعجلوا، فجوليا حامل... من رودريغو بطبيعة الحال. ليس من قبيل الصدفة أنّ المسيحيين القدامى كانوا يترجمون كلمة «أسقف» للدلالة على الرجل «النشيط والدقيق». ممتاز! بكلّ الأحوال، هذا أفضل من أن يولد الطفل بلا أب شرعيّ.

وهكذا لم يعد يفوت لوكريسيا أيُّ شيء من مكائد أبيها ومربّيتها. ما الذي بوسعها فعله؟ كيف عليها أن تتصرّف؟ كانت، في واقع الأمر، تشعر بالاشمئزاز أحيانًا، وتودّ أن تتكلم بهذا الشأن مع أخيها شيزاري الذي لطالما التجأت إليه في اللحظات العصيبة؛ لكنّه للأسف انتقل إلى بيزا ليلتحق بالجامعة. وكانت لوكريسيا تسكن منذ زمن عند مربّيتها التي لم تكن الشخص المناسب، عدا عن كونها قوّادة. قرّرت أن تبوح لوالدتها إذًا، فاتجهتْ إلى القصر القديم.

وما إن تشير إلى أسباب اضطرابها، حتّى تنفجر باكية فتعانقها فانوتسا.

«أمّاه، اكتشفتُ أنّ أبي يطارح الغرام فتاة أصغر مني سنًّا».

«أجل، أعرف»، تصارحها والدتها بصوت مكبوت. «أعرف أيضًا أنّ أدريانا هي العقل المدبّر لهذا الفجور. كنت قد أدركتُ مسبقًا بأنّه اتخذ لنفسه امرأة أخرى وتخلّى عني».

وتنفجر فانوتسا باكية بدورها.

لقد نوَّهنا سالفًا بأنّ أهمّ الوقائع التي حصلت في حياة آل بورجا، لا سيّما العمّ كاليكستوس الثالث والأب رودريغو وابنه شيزاري الكاردينال المقاتل، لم تثر استغراب المجتمع حينئذٍ ولم تؤلّب نقمة أحدٍ يُذكر. باختصار، كانت طقوس الخلاعة مقبولة؛ لا بل إنّ العلاقات الخاصة والمريعة التي يدخل فيها رجال الإكليروس، من أدناهم إلى البابا نفسه، وأعوانه وأقاربه، كانت تُعدّ أمرًا اعتياديًا. ما يعني أنّ المُجاهِر بارتكاب المعاصي، كان يُعتبَر شخصًا أمينًا أكثر ممّن يتستّر بقناع العفّة الزائفة. وبالفعل، فإنّ المؤرّخين الذين واكبوا مجريات ذلك الزمان، كتبوا بلا مبالاة عن أخبار الفسق والضلال في أوساط الفاتيكان ذاته، ومن دون أن يكون في نيّتهم إحداث فضيحة مجلجلة. غير أنّ المشهد ينقلب مع ظهور آل بورجا في تاريخ عصر النهضة، مع فرقة كبيرة من الأتباع والأقارب والمقرّبين؛ فيتغيّر مزاج الجمهور، في إيطاليا والخارج، ويزداد إقبالًا على أخبار الفضائح.

لا يقتصر الأمر على تلك الباسكوينيّات الرباعيّة المقفّاة، بل ينضمّ إلى حفلة التهكّم العديدُ من المهرّجين الشعبيّين وشعراء الهجاء، الذين غالبًا ما ينكّل بهم عملاءُ الاسبان، أو آل بورجا أنفسهم، إذ لطالما عُرِفوا بالوحشيّة في القصاص من المشهّرين بهم.

يبلغ مستوى الفضائح ذروته حين تروج الشائعات عن سفاح ذوي القربى بين لوكريسيا وقداسة البابا، ثمّ بينها وبين شقيقها المحارب الشرس. لا وجود لأيّ دليل معقول يثبت صحة هذا التلفيق. فما هي الشهادات التي كان المشهّرون يستندون إليها لتدعيم اتهاماتهم؟



جوليا فارنيزي



جوفانی سفورسا

الزواج عماد السقف الذي تزدهر في ظلّه الفحشاء

علينا أن نبدأ من زواج لوكريسيا بجوفاني سفورسا، حفيد آشانو سفورسا الكاردينال البارز الذي أيّد انتخاب البابا بورجا ألكسندر السادس.

غايات الزواج سياسية بالطبع؛ يهدف البابا من خلاله لتوثيق صلاته بلودوفيكو الأسمر، الذي كان من أبرز الموالين لشارل الثامن، ملك فرنسا، الداعين لبسط نفوذه في إيطاليا؛ بغية اقتلاع شوكة ألفونس أراغون الثاني، ملك نابولي. في الثاني عشر من يونيو 1493 تتزوّج لوكريسيا بالشابّ جوفاني، سليل آل سفورسا، والذي كان بدوره ابنًا غير شرعيٍّ. أثار حضور قداسة البابا، والد العروس، استغراب الجميع في حفل الزفاف، محاطًا بعشرة كرادلة بأبّهة فائقة. وكان شيزاري، شقيق لوكريسيا، جالسًا بين رجال الكنيسة أيضًا، متّشحًا برداء الكاردينالية الأرجوانيّ. ماذا يفعل وسط رجال الدين؟ الجواب بسيط: قبل بضعة أسابيع، عيّنه أبوه كاردينالًا هو أيضًا. تهانينا!

من البديهيّ أنّ حضور البابا بورجا يلمّح إلى شرعيّة صلة الدم التي تجمعه بابنته لوكريسيا المحبّبة إلى قلبه. نهض شيزاري ورفع أخته بين ذراعيه حتّى ارتفعت قدماها عن الأرض، ولثم ثغرها، فهمهم المدعوّون مستغربين. لا شكّ أنّ هذا الأخ السفيه، بحركته تلك، أراد أن يعبّر لها عن حبّه.

«سواء أكانا قد ابتُليا بالمعصية أم لا؛ من المؤكد أنّ ما يجمع بين شيزاري ولوكريسيا كان حبًّا عظيمًا ومتبادَلًا، يفوق حبّهما لأيّ أحدٍ آخر، من الناحية الأخويّة، وقد تعاهدا على صون هذا الحبّ إلى النهاية. إذ إنّ لوكريسيا تمثّل المرأة الاستثنائية الوحيدة في عيون شيزاري، وهو الذي لا يثني عزيمته أيُّ اعتبار إذا صمّم الاستحواذ على أيّ أنثى[1]».

---

(1) Sarah Bradford, *Lucrezia Borgia. La storia vera*, Mondadori, Milano 2003, p. 89. [المؤلّف].

أثناء حفل الزفاف، كانت هتافات التعجّب تتوالى من دون انقطاع كلّما ظهر شخص جديد. كما تأثّر الحاضرون حين علموا أنّ تلك الفتاة الصغيرة الجالسة إلى يسار البابا هي جوليا فارنيزي عينها، التي باتت تُعرف بمدلّلة البابا الرسميّة.

بالعودة إلى الزفاف، تنازل لودوفيكو الأسمر عن سلطانه على مدينة بيزارو كهديّة للعريس. وقدّم البابا منحة ماديّة تعادل واحدًا وثلاثين ألف دوقيّة. لكنّ الزواج لن يُعقد في الحال، لأنّ لوكريسيا لا تزال قاصرًا، لم تبلغ سوى ثلاثة عشر عامًا. يصحبها البابا معه بعد الحفل، ويرسل العريس إلى بيزارو بغية إقصائه بعيدًا. وكي يتأكّد من أنّ الأمور تسير كما أوجب الاتفاق، يكلّف البابا ابنه المفضّل، شيزاري، بمتابعة الإجراءات، فيدرك العريسُ أنّ شيزاري بمثابة اليد اليمنى للبابا، يده الضاربة.

بعد مضيّ عدّة أشهر، تُرسَل لوكريسيا إلى بيزارو، كي يُعقد الزواج... على مهلٍ واحترامٍ لو سمحتم!

تمرّ أربع سنوات هانئة وهادئة على الزواج، لكنّ الأجواء مملّة للغاية. إنّنا في الضواحي حقًا، وليس في البِلاط مَنْ يبادر بالطرافة والتهريج. لكنّ جوفاني يتصرّف كزوج متيّم وسعيد. وكيف لا؟ يكفي أن نشاهد اللوحة الشهيرة للوكريسيا، تلك التي رسمها بارتولوميو فينيتو، حيث تبدو الفتاة مكللة بشعرها الأشقر الناعم، ناهيك بمحاسن وجهها الجميل الذي يدفعك للصراخ: «لا أحد بوسعه أن يتجاهل جمالًا بهذا الشكل».

وفجأة، يطرأ تغيّرٌ ما على مخطّطات بورجا السياسيّة، كما جرت العادة. لماذا؟ ما الذي حدث؟



شيزاري بورجا

الملك الإمّعة والزحف كالعرائس

حدث أنّ ملك فرنسا الشابّ، شارل الثامن، قرّر الزحف نحو إيطاليا بجيش جرّار، ضاربًا عرض الحائط بنصائح مستشاريه العقلاء. العاهل البالغ من العمر اثنين وعشرين عامًا، الذي تصفه كتب التاريخ بالبليد والمصاب بجنون العظمة، والذي يلقّبه شعبه بـ«الملك الإمّعة» بسبب حركاته المترنّحة ووجهه الشبيه بوجوه العرائس؛ كان ينوي ضمّ نابولي إلى مملكته، وجهّز لهذا الغرض جيشًا قوامه أربعون ألف مقاتل. حلفاؤه من الإيطاليّين هم لودوفيكو الأسمر وجوليانو ديلا روفيري وهرقل دا إيستي (الذين سنلتقي بهم لاحقًا). وليس خافيًا على أحد أنّ إيطاليا مليئة بمَن يصعد على عربة أوّل محتلٍّ يغزو البلاد.

تندلع المواجهات حينذاك. أسطول نابولي يتلقّى هزيمة نكراء على يد البحريّة الفرنسيّة. الجيش البابويّ محاصَرٌ في إقليم رومانيا، زد على ذلك أنّ آل أورسيني وآل كولونا سينضوون تحت إمرة السادة الجدد أيًا كانوا. يدرك البابا أنّه من المستحيل مقاومة «الفرنجة» في تلك الظروف. لذا يقرّر التحصّن في قلعة سان أنجلو في انتظار احتمالات أفضل.

وهكذا يفتح شارل الثامن المدينة الخالدة، ليلقى استقبال لاعقي الأحذية أنفسهم، المستعدّين دومًا لأداء هذه الخدمة. تلمع في رأس البابا فكرة الفرار، وسرعان ما يستيقظ في صدره فخرٌ بأجداده وشعورٌ جارفٌ بعزّة النفس. يقرّر اللعب بكلّ الأوراق الممكنة.



لوكريسيا

. يُرسل على الفور وفدًا مفاوضًا، مكوّنًا من كبّار المثقّفين، إلى الملك الفرنسيّ، وينذب ابنه شيزاري معهم بصفته مترجمًا فوريًّا. فالشابّ كان قد درس اللغة الفرنسيّة في جامعة بيزا، ويتقن المحادثة بها كما لو أنّه تخرّج من جامعة السوربون!

وفي بداية اللقاء في قصر فينيسيا، حيث مكث الملك وحاشيته، يبادر شيزاري بتقديم أعضاء الوفد الأربعة، واحدًا واحدًا، متكلّمًا بالفرنسيّة طبعًا، ويترجم لهم تعليقات الملك بإيضاحٍ وإيجاز. ويجرؤ على استعراض خفّة ظلّه أمام الملك: «هل لاحظتم يا صاحب الجلالة المودّة التي يكنّها لكم شعب روما؟ يا لهم من أوفياء! أتمنّى أن يكون استقبالهم قد نال استحسان جلالتكم! أحدهم صرخ قائلًا: «استقبلوا هذا الملك المعظّم في الفاتيكان وانتخبوه حبرًا أعظم! ماذا تنتظرون؟». لو كنت محلّ سعادتكم لفكّرتُ في الأمر، إذ لم يحصل من قبل أنّ ملكًا اعتلى عرش البابويّة!».

ينفجر شارل دو فالوا مقهقهًا ويعلّق: «يا لك من طريف حقًا، ثم إنّك تتكلّم لغتي بلكنةٍ تُحسد عليها! هل أنت من رعيّتي يا تُرى؟».

«لا جلالتكم، مع أنّ هذا يشرّفني، لقد ولدتُ في روما، للأسف. آه كدتُ أنسى، عليّ أن أبلغكم تحيّات والدي!».

«ومن يكون والدك؟».

«إنّه البابا، جلالتكم. أنا ابن بورجا، البابا الحاليّ، ألكسندر السادس».

«يا إلهي! لم أكن أعرف أنّ البابا لديه أولاد! هل أنجبكَ قبل أن يبدأ مسيرته الكنسيّة؟».

«لا جلالتكم، لقد ولدتُ حين كان والدي كاردينالًا. كما

تعلمون، هذه أبسط الأمور عندنا. أكاد أجزم أننا لم ننتخب أيّ بابا ليس لديه زوجة وأولاد، بل وجاريات أيضًا».

يقول الملك ضاحكًا: «أنت مسلٍّ حقًا، وسفيه أيضًا! كيف لك أن تتكلم هكذا عن قداسة روح الكنيسة الرسوليّة الفاتيكانيّة!».

كان اللقاء مع ملك فرنسا موفّقًا، حتى إنّ الشابّ بورجا، حين عاد إلى والده، هتف قائلًا: «إنّ شارل الثامن هذا لقمة سائغة يا أبتاه. لقد جهّزتُ لك المائدة ورتّبتُ المنديل. حان دورك الآن».

يلتقي الملك بالبابا في الفاتيكان. عند دخول شارل دو فالوا إلى الباحة المربّعة المطوّقة بالأقواس أمام القصر الفخم، تعزف الفرقة النحاسيّة، التابعة للحرس البابويّ، ألحان المارش الملكيّ الفرنسيّ ذي الأبّهة والجلال. يترك هذا الاستقبال المهيب انطباعًا حسنًا لدى الملك الإمّعة؛ يرفع ذراعيه وينحني أمام قداسة البابا الذي يأتيه وحيدًا، من دون أن يرافقه الأساقفة كما قد يتوّقع الجميع، بل جاء مصطحبًا خلفه أجمل الغانيات في البلاط البابويّ.

ومنذ تلك اللحظة، انسجم القطّ والفأر في رقصةٍ بهيجة.

يتحدّث ألكسندر السادس إلى العاهل الشابّ باللاتينيّة:

«Exceslis rege qui degnastibus descendere hic italiae magno honore civitas nostrum exultes menomatus[1]»

---

(1) «مرحبًا بك أيّها الملك الشامخ، يا من كلّفتَ نفسك عناء المجيء إلى إيطاليا، شرّفتَ مدينتنا أيّها الغبيّ المغفل!».
ليس من الوارد تاريخيًا أن ينطق البابا بهذه الكلمات في استقبال ملك فرنسا؛ لكنّها إحدى ألاعيب الكاتب وطريقته في السخرية من أحداث الزمن الماضي وشخصيّاته؛ فالبابا على علم مسبَق بأنّ الملك لا يجيد اللاتينيّة وبالتالي لن يفهم المقصود، ما قد يزيد جانبَ البابا رهبةً وهيبة. ثمّ إنّ العبارة، كما وردت، خليطٌ بين اللاتينية والعاميّة الروميّة؛ وهذا ما يؤكّد عنصر الهزليّة فيها. [المترجم].



شارل الثامن

يرتسم الذعر على وجه شارل ونظراته، إلى أن ينفجر البابا ضاحكًا: «أرعبتكم يا سيّدي، أليس كذلك؟ لا تخشَ شيئًا جلالتكم!»، يقول بالإيطاليّة مستخدمًا يديه أيضًا. «عذرًا جلالتكم، أوليتُ ابني مهمّة الترجمة بيننا، بما أنّه نال تقديركم».

«ابنكم؟ آه، إنّي سعيد لهذا! يا له من شخص محبوب!».

وها هو شيزاري يظهر متبسّمًا، ويركع على ركبتيه بلياقة عند قدمَيْ الملك، فيُنهضه الأخير ويعانقه... ثمّ يقع في المصيدة.

وفي النهاية يتوصّلان إلى اتفاق: البابا يسمح للجيش الفرنسيّ بالعبور ضمن الولايات البابويّة؛ وفي المقابل يوافق الملك على الانسحاب من روما مباشرة ويتعهّد بحماية آل بورجا وتمتين الصداقة معهم. وينصّ الاتفاق على أنّ ابن البابا، شيزاري، سيرافق الجيش الفرنسيّ رسميًّا كنائبٍ عن البابا، لكنّه في الحقيقة كان رهينة محبّبة جدًا.

يصل شارل الثامن إلى نابولي بسرعة وجيزة، ويستقبله الجميع هناك استقبال الظافرين. كان الملك ألفونس أراغون الثالث قد فرّ طبعًا من عاصمة الجنوب، ولجأ إلى صقلية وتنازل عن العرش؛ وهكذا، من دون إضاعة للوقت، بات ملك فرنسا قادرًا على تنصيب نفسه عاهلًا على نابولي.

لكنّ إسبانيا، والدول الإيطاليّة والأوروبيّة، سرعان ما تعرب عن قلقها جرّاء توسّع الفرنسيّين في شبه الجزيرة الإيطاليّة. لذا تقرّر سحق هذا الخطر في مهده. ويتمّ الإعلان عن تشكيل «العصبة المقدّسة». وتفاديًا للفت الأنظار، يُشار إلى أنّ الهدف من هذا

التحالف صدّ التقدّم التركيّ، لكنّ الجميع يعلمون بأنّ التركيّ الأخطر كان آتيًا من باريس ويُدعى شارل الإمّعة. يتفطّن الأخير إلى مجازفته في البقاء محاصَرًا في الجنوب من كلّ تلك القوى. فيقرّر المضيّ نحو الشمال، استنادًا إلى خبرته الضئيلة في الاستراتيجيّات، فيعبّئ جنوده كالدمى والعرائس ويلوذ بالفرار.

كانت المهمّة التي أوصى بها البابا صهره جوفاني سفورسا، ذا الثلاثين عامًا، أن يقود الجيش النابّولي، الذي أعيد تشكيله على قاعدة إلى فيلق فاتيكانيّ قوي، لصدّ زحف الطلائع الفرنسيّة نحو الشمال. لكنّ جوفاني ينأى بنفسه عن الصدام المباشر، ليطبّق خطّة فابيو ماسيمو الملقّب بـ«المتريّث»، والتي تقضي بالتربصّ بجيش العدوّ من مسافة بعيدة ثمّ استغلال لحظة حرجة يمرّ بها للانقضاض عليه. وهكذا، يتربّص جوفاني المغوار، لكنّ الفرنسيين لا يمرّون بأيّ لحظة حرجة لسوء الحظّ.

في الوقت نفسه، يصل إلى مسامع شارل أنّ جيش البندقيّة أيضًا يتحرّك لمواجهته، قبل أن تعبر قواته جبال أبينينو، الواقعة في وسط إيطاليا، فيعطي أمرًا بتسريع الخطى. يصل إلى بيزا، وتستقبله الجماهير باحتفالٍ عارم، وتهلّل النسوة الجميلات ويعانقن الجنود الفرنسيّين، خصوصًا الفرسان منهم. لكنّ ملك فرنسا يبدو مضطربًا فيهتف: «علينا أن نختار بين متع الغرام أو لذّة الطعام. لا شأن للطعام؛ ولكن للقافية أحكام[1]». وهكذا يتأهّب مع باقي الجيش، ويصل إلى وادي بادانا.

---

(1) لعب بالكلمات والقوافي، محاكاةً لما جاء في النصّ الأصليّ. [المترجم].

على الملك أن يعرف كيف يحني رأسه أحيانًا، لا سيّما إذا كانت الدعامات منخفضةً جدًا

عند اجتياز منحنيات الجبال قرب كارّارا، تتأخر المدفعيّة وقوات الاحتياط. يقلّص الفرنسيّون سرعتهم للهبوط نحو الوادي فإذا بهم يصطدمون بفصائل العصبة المقدّسة، التي يقودها فرانشسكو غونزاغا، ماركيز مدينة مانتوفا. يحتدم القتال، وتنجح الجيوش الفرنسيّة، رغم قلّة عددها، في تجنّب الهزيمة، وتتفادى الحصار بخسارة الكثير من الرجال، لكنّهم أوقعوا في صفوف الحلفاء الإيطاليّين عددًا مماثلًا من القتلى. تخيب آمال الملك، لكنّه لا يستكين، فيعبر جبال الألب ويعود إلى فرنسا.

وحين وصل إلى مدينة آمبواز، حيث مكث لمداواة جروحه، يتعرّض لحادث لا يليق إلّا بالسخفاء أمثاله. كان ممتطيًا حصانه إذ أراد اجتياز باب حجريّ، كأيّ إمّعة غبيّ، فإذا جبينه يرتطم بالدعامة العليا للباب، فيفقد حياته. أمّا الحصان فلم يُصَبْ بأذى؛ لأنّه عرف كيف يحني رأسه.

كما أنّ صهر ألكسندر السادس لم يصَب بأيّ أذى، إذ اختبأ في مكانٍ ما. وراح البابا يمطره برسالة تلو الأخرى، يأمره فيها بترك القيادة لأحد الفرسان الأشدّاء والتوجّه إلى روما حالًا. يصل سفورسا الشابّ، ببهجة غامرة، إلى عاصمة الدولة البابويّة، ويزور زوجته.

لا يلمّح البابا بورجا، في البدء، إلى أيّ امتعاضٍ واضح نحو صهره الغادر، حتّى إننا نشهد وجود الملقّب بـ«سيّد مدينة بيزارو»،

يوم أحد الشعانين، في حاضرة القديس بطرس، بين الشخصيّات ذات الشأن، جالسًا بجوار شيزاري، يمسك بالسعفة المباركة التي أعطاها له البابا أثناء القدّاس. وعندما عاد إلى القصر حيث توجد لوكريسيا، قالت له إنها قلقة جدًا حيال مستقبله القريب، وباحت له بأنها تريد تطبيق عادة قديمة غالبًا ما كانت عائلتها تلجأ إليها: اختلاق مشكلةٍ تقودها لاكتشاف ما الذي أعدّوه لزوجها.

وما إن غادر جوفاني، حتى انفجرت ابنة البابا باكية، أمام الخدم وفي حضور مربّيتها القوّادة، مصرّحة بأنها لم تعد تحتمل زوجها الذي يعتبره الجميع جبانًا، رعديدًا وخنوعًا، سواء في ساح الوغى أم في الحياة اليوميّة. فإذا بخادمة تعانقها، محاوِلةً أن تهدّئ من روعها، وتهمس في أذنها: «اطمئنّي يا مولاتي، ستتحرّرين منه بعد بضعة أيام».

ردّت لوكريسيا: «أتحرّر منه؟ ماذا تقصدين؟ هل سيقتلون زوجي؟». استعجلت القوّادة قطع ذلك الحوار الخطير، وقالت باستخفاف: «يقتلونه؟ لا تتفوّهي بالترّهات! ثمّة وسائل أخفّ وطأة لإجبار أحدهم على التخلّي عن فريسة ناعمة».

انتهى الأمر، أدريانا ميلا تُصدر أوامرها: «هيّا، فلتنصرف كلّ خادمة إلى عملها! إيّاكنّ والثرثرة!».

حصلت لوكريسيا على ما يثبت صحّة حدسها. وحين عاد زوجها، حذّرته: «الأمور ليست على ما يرام يا عزيزي. إنّي متيقّنة من أنّ أخي شيزاري وأبي ينويان بك شرًّا. والدليل أنّهما لم يتوعّداك وجهًا

لوجه حتى الآن، وهذا يعني أنّهما قد دبّرا خطّة محكمة لإيذائك من دون شهود، وبالتالي بلا رحمة».

«ومن أخبرك بهذا؟ خادماتك؟».

«اسمعني يا جوفاني العزيز، أفهم من نبرتك بأنّ كلامي لم يقنعك، ولكن عليك أن تأخذ هذه النصيحة في الاعتبار، على الأقلّ. توارَ عن الأنظار في هذه الأيام، وكن قريبًا من الاسطبل، وأبقِ جوادك مسرجًا دومًا، وجهّز زادًا كافيًا». قبّلته وانصرفت، وهي تغمغم متألمة: «أقسم لك أنّي سأصاب بألم عظيم إن ألحقوا بك الأذى».

وكما يقال: اذكر الذئب يظهرْ بغتة. وبالفعل تدخل أدريانا إلى المشهد، المدبّرة لكلّ الحيل، وتخبرها بابتهاج: «دخل شقيقك إلى القصر».

«آه، يا لها من مفاجأة سعيدة!»، تهتف لوكريسيا وقد أتقنت تصنّع الفرح. تطلب من جاكومينو، خادمها الموثوق، أن يساعدها في ارتداء معطف فضفاض؛ وحين تصل إلى صالة المنحوتات تأمره: «اختبئ خلف تمثال هرقل وكاكوس، وانصتْ جيدًا».

تستقبل لوكريسيا شقيقها بابتسامة سعيدة وتعانقه وهي تهتف بأعلى صوتها: «فاجأتني بمجيئك يا شيزاري، ما أجملها من هديّة!».

يقبّلها شيزاري برفق ويقول لها من دون مقدّمات: «ارتأينا، أنا ووالدي، أنّ زوجك هذا لم يعد يفيدنا في شيء، بل أصبح الآن عبئًا علينا. حضّري نفسك لتعودي عزباء ثانية، أو ربّما أرملة أيضًا».

جفّت الكلمات في فم لوكريسيا، فأضاف شيزاري: «سنتكلّم

في الأمر لاحقًا. كوني مطمئنّة، سنرتّب الموضوع بحيث لا تدور حولك الشبهات إطلاقًا»، يلوّح ابن البابا بتحيّة وداع مستعجلة وينصرف.

تتجه لوكريسيا إلى جاكومينو حالًا وتقول: «هل سمعتَ كلّ ما قاله؟ فاذهب واعلِمْ سيّدك».

ينزل الخادم إلى الاسطبل، فيجد جوفاني وقد امتطى حصانه التركيّ.

وما لبث الخادم ينقل ما سمع بأذنيه، حتّى لكز زوج لوكريسيا الحصان وانطلق في عدْوٍ يسابق الزمن، من دون أن يتوقّف ولو للحظة عند الينابيع ليسقي حصانه.

أخبار التاريخ تفيد بأنه وصل إلى مقاطعة أنكونا في غضون أربع وعشرين ساعة فقط، بعدوٍ يقضي على أجود الخيول. وبالفعل، ما إن وصل إلى أبواب بيزارو، حتى سقط الجواد أرضًا، ونفق.

لوكريسيا اختفت. هربت أم اختُطفت؟ من يدري!

في الأثناء نفسها، في روما، اتجهت لوكريسيا إلى الاسطبل وهي تحمل حقيبة ثقيلة، بمفردها، وأمرت العامل هناك بأن يُسرج حصانها. ثمّ قفزت برشاقة كأنّها محاربة أمازونيّة، وضعت الحقيبة على ظهر الحصان، لكزته وخرجت من الاسطبل بهمّة عالية.

انتبهت أدريانا، في المساء نفسه، إلى غياب لوكريسيا؛ وانتابها الفزع حين سمعت قرع النواقيس تدعو لصلوات الغروب. أرسلت خادمًا ليتأكّد ما إن كانت الفتاة عرّجت على أمّها، فعاد إليها سريعًا ليخبرها بأنّ لوكريسيا لم تأتِ إلى بيت فانوتسا أبدًا طوال النهار.

ارتجفت القوّادة وأخبرت والد الفتاة، الذي كان في عشاء مع بعض السفراء، فنادى قائد الحرس حالًا وأمره بالتحرّي. أخيرًا ظهرت الحقيقة بعد حشد كلّ تلك القوى: السيدة امتطت حصانها، وحملت عليه حقائبها واتجهت نحو شارع آبيا. وللوهلة الأولى، ظنّ الجميع أنها خرجت من المدينة؛ لكنّهم بعد استجواب الحرّاس واحدًا واحدًا، استنتجوا أنها لم تخرج من أيّ باب.

في الليلة التالية، يصل إلى مسامع البابا أنّ ابنه الأصغر خوفري جاء من نابولي في اليوم السابق، ولا بدّ أنّه التقى بشقيقته في بيتها.

يتمّ العثور على الفتى في نزلٍ، يدعى نزل البقرة، يعلم الجميع أنّه من أملاك فانوتسا. يتعرّف عليه بعض الحرّاس ويسوقونه إلى الفاتيكان فورًا. ينفي خوفري في البدء، أمام والده، أنه التقى بلوكريسيا، ثمّ يستسلم بعد إلحاح البابا ووعيده.

«أجل يا أبي، التقيتُ بلوكريسيا، في بيتها. كانت مصدومة، وتقول إنها متيقّنة من أنكما، أنت وأخي شيزاري، تنويان قتل زوجها».

«ماذا تقول؟ كيف تخطر في بالها خرافة من هذا النوع؟».

«لا أعلم - أجابه الشابّ متوتّرًا - ولم يخطر في بالي أن أسألها حتّى. إذ كنت مصدومًا بدوري ولم أفكّر في التحقّق ممّا يُقلق أختي».

«وممّ أنت مصدوم؟».

«أرجوك يا أبتِ. يُقال في روما إنّ ألكسندر السادس قادرٌ على قراءة الأفكار الخفيّة وهي تجول في رؤوس أفراد شعبه».

قال البابا: «ماذا تقصد؟ وعن أيّ أسرار تتكلّم؟».

«فلنبدأ بسرّ عائلتنا».

«اسمع، لا تناوِرْ على حبال الأحاجي معي. تكلّم بوضوح».

«أشير إلى قصّتي، أنا وأخي شيزاري، أخي الذي أراد أن يُشبع رغبته بمطارحة زوجة أخيه، زوجتي!».

«ويحك، ماذا تقول؟».

«كفّ عن هذا يا أبي، أراك تناور على حبال السذاجة. أستودعك، سأعود إلى نابولي».

«توقّف!»، يمسك ذراعه ويشدّه إليه. «هذا صحيح، شيزاري اغتصب زوجتك، وبئس ما فعل. لقد وصلني الخبر صباح هذا اليوم، وأمطرته بأقذع الشتائم، فصرخ في وجهي قائلًا: «لن أسمح لك بأن تتدخل في شؤوني حتّى لو كنت البابا. التفتْ إلى نزواتك. لم أغرقك يومًا بالمواعظ، فالشبهات حولك تستغرق أيامًا طوالًا»».

وهكذا عرف قداسة البابا أنّ لوكريسيا على علمٍ بغراميّات شيزاري الفظيعة، وأنها انفجرت في صراخٍ وشتائم، وتجديف أيضًا، بحقّ الجميع، بدءًا من أخيها ووصولًا إلى البابا نفسه.

تابع خوفري تلخيصه متذكّرًا: ««كفى!»، صرخت لوكريسيا محبَطة. «سأنأى بنفسي عن كلّ هذا القرف، أفضّل الاختفاء عن هذه الحياة المقرفة. يا للقذارة! في يوم واحد، أكتشف أنّ أخي ووالدي العزيزين يخطّطان لقتل زوجي، وأنّ أخي شيزاري يشتهي زوجة أخيه الأصغر. يا لهذا الانحلال!»، وكانت، أثناء صراخها، تفتح الخزائن وتنتزع منها الثياب والملابس، وتهتف وهي تضعها في كيس: «أفضّل أن أدفَن في ديرٍ على أن أعيش في هذا العالم الفاسق!»».



خوفري بورجا

«وجدتُها!»، انتفض رودريغو. «وجدتُها! إنها مختبئة في دير! كيف لم يخطر في بالي ذلك من قبل؟».

أمر المحقّقين بغربلة أديرة المدينة المتعدّدة، ديرًا ديرًا، إلى أن اكتشف ذلك المكان المقدّس الذي لجأت إليه ابنته.

إنه دير القدّيس سكستوس للراهبات.

يتجّه رودريغو إلى هناك مباشرة، بلا مرافقة. لا شكّ أنّ أكثر ما يقلقه هو أن تتهور البنت وتنسف جميع مخططاته.

ثم إنّ قلبه اشتعل بمودّة صادقة تجاهها: «إنّي أكنّ لك كلّ المحبّة يا ابنتي! لأفعلنّ المستحيل لأجلك».

«يا أبي، إنّ هذه المحبّة التي تستعرضها أمامي لا تعنيني إطلاقًا. محبّتك ناقصة. هل ترى أنّك أمّنت لي حياة كريمة؟ تجعلني أقضّي طفولتي مقتنعةً بأنّ ذلك الرجل البليد الذي ينام مع أمّي هو والدي الحقيقي. ومع هذا كان يرعاني بإخلاص. وفي الوقت نفسه، تقدّم نفسك إليّ، أنا وإخوتي، على أنّك الكاردينال الصالح، رجل الدين وصاحب النفوذ. ثمّ تأتي فجأة لتكشف حقيقتك، ليس كصديق العائلة السخيّ، بل كعشيق والدتي منذ عشرين عامًا، وقد حملتْ منك أربع مرّات إرضاءً لرغباتك. وفي النهاية نكتشف أنك أكثر الكرادلة جبروتًا في روما، توشك أن تعتلي عرش البابا، وأنت زير نساء وقصصك الغراميّة لا تعرف نهاية. حتّى إنّك تستسيغ صديقتي الجميلة، الطفلة، وتتخذها عشيقة لك. وتنفيذًا لمصالحك، تزوّجها بابن مربّيتي، ذاك الأعور البائس الوضيع الذي لا يفقه شيئًا. ثمّ يحين دوري. ترتأي، أنت وأخي شيزاري، ابنك المبجّل، أنّي قد أكون

مفيدة في صفقتكم مع دوق ميلانو، الذي يعرقل مشاريعك بطبيعة الحال. تختار أحد أحفاده، ابنًا غير شرعيّ هو أيضًا، ابن سفورسا حاكم بيزارو، يا للصدف! وتزوّجني إيّاه من دون حتّى أن تستشيرني في ما إذا كان يهمّني الزواج برجلٍ أكبر مني، عمره ضعف عمري (لاحظْ أنّي لم أكن قد أتممتُ ثلاثة عشر عامًا بعد). تصرّفتَ بلياقة حين اصطحبتني إلى الاسطبل البابويّ وأريتني مهرّة أصيلة وقلت: «هذا الأفضل بين مائة حصان عندي. جرّبيه أوّلًا، وإن لم يعجبك خذي حصانًا آخر يطيب لك. ركّبي الرسن، مشّطي شعره كما يحلو لك وخذيه معك». وفي الآن ذاته تمنحني لذلك الحصان، ابن سفورسا. أتأقلم معه، رغم أنّه ليس فارس أحلامي. لانَ له قلبي لكثرة ولعه بي، واكتشفتُ معه للمرّة الأولى ماذا يعني أن أكون إنسانًا ولست مجرّد بيدق تحرّكه كيفما تشاء على رقعة مصالحك».

بعد صمت طويل، يتكلم البابا إلى ابنته مذعنًا: «أقرّ بأنك تعرفينني أكثر ممّا أعرف نفسي. لن أستعمل البلاغة والعاطفة في تبرير ما اقترفتُ، وكيف عشتُ، وما أزال أعيش حياتي. لكنّي أقسم لك بأنّي سأفعل كلّ ما أستطيع للخروج من هذه المتاهة التي أجدني أترنّح في مجاهلها خائب الرجاء. صدّقيني. إنّي أفكّر جدّيًا في التخلّي عن كلّ شيء».

«ماذا تقصد يا أبتِ؟ هل ستستقيل وتعتكف في ديرٍ ما أنت أيضًا؟ يؤسفني أنّ مزاجي لا يسمح لي بالقهقهة».

«حسنًا، فهمتُ. لم يكن يومًا جميلًا بالنسبة إليّ، لكنّي آمل أنّك

اخترت البقاء بين هذه الجدران للتفكير والتأمّل، لعلّك تتفهّمين هذا الجنون الذي أصابنا وجرّدنا جميعًا من الحكمة والشفقة، حتّى تجاه أنفسنا».

ينصرف البابا، بخروجٍ مسرحيّ يليق بالممثّلين في التراجيديا اليونانية، وهو يذرف دموعًا تجرح خدّيه.

لا بدّ من وضع خطّة أخرى إذًا... شرط ألا تبدو مثيرة للسخرية

اطمئنّ ألكسندر السادس آنذاك؛ فهو متيّقنٌ من أنّ لوكريسيا لن تحتمل مشقّة البقاء طويلًا في أجواء الدير، وستهجره سريعًا، مستسلمةً للخيبة واليأس. ولكن، سرعان ما ينتشر الخبر - هجران ابنة البابا الأجواء المخمليّة والمبهجة واعتزالها في الدير - ينتشر الخبر بين صفوف الشعب كالنار في الهشيم. ومن البديهيّ أنْ يستبعد البابا الخطة التي وضعها في البرنامج، أي تصفية جوفاني جسديًا. لا بدّ من وضع خطة أخرى أقلّ تشدّدًا، وأكثر منطقيّة على وجه الخصوص، شرط ألّا تتحول إلى مهزلة.

في اليوم التالي، يطرق شيزاري بوّابة الدير بعنف. تطلّ راهبة برأسها من نافذة منحوتة على خشب البوّابة وتسأل: «عمّن تبحثون؟».

«إنّي الكاردينال بورجا، شقيق مولاتك لوكريسيا. افتحي من فضلك».

«متأسفة، سموّكم، لديّ أوامر تمنعني من إدخال أيّ أحد إلى غرف النزلاء، بمن فيهم الأقارب».

وبينما تتهيّأ الراهبة لإغلاق النافذة، تنسلّ يد شيزاري بسرعة البرق، تمسك بحجاب الفتاة المتدينة، وتجبرها على أن تطلّ بوجهها كلّه من النافذة. فتنفتح البوابة على مصراعيها، ويمسك الزائرُ بشعر الفتاة، فيرفعها إلى الأعلى، ما يرغمها على المشي على رؤوس أصابعها. يأمرها بأن تصحبه إلى الغرفة حيث تمكث أخته. يعبران الباحة المطوَّقة بالأقواس، ويصعدان سلّمًا وعرًا يفضي إلى بابٍ بمصراعين.

«افتحي»، يأمرها الكاردينال بكلّ ما أوتي من سطوة.

تحرّك الفتاة القفل، فتظهر لوكريسيا من خلف الباب الموارب. تتسمّر بمجرّد أن ترى شقيقها، وتعجز عن لفظ أيّ كلمة. يركل شيزاري الباب بكعب قدمه، فيغلقه بشدّة. ثمّ يرمي ذراعيه حول كتفَيْ شقيقته، يضمّها إليه وينفجر باكيًا وهو يغمغم: «أحبكِ. كنت خائفًا من أن يصيبك مكروهٌ بسببي».

«أنت، خائف؟ لأجلي؟ هل لأنك ظننت نفسك مُخرج هذه المسرحيّة السخيفة حقًا؟».

«لا تزيديها عليّ أنت أيضًا، بحقّ السماء! الجميع يعاملني كما لو كنت كلبًا مسعورًا! شتمني أبي ووصفني بالسفّاح المتعطّش للدماء واللاهث خلف العاهرات، كلّ ذلك بسبب ما حدث مع زوجة أخي. وحين قلت له إنّي لم أكن أنا صاحب المبادرة، بل هي التي قفزتْ عليّ عارية، كأنّها ممسوسة، صفعني بعنف حتّى ارتميتُ أرضًا. أمّا خوفري، أخونا، بعد أن أخبرته زوجته زورًا بأنّي اغتصبتها، يقال إنّه أمر رجاله بالبحث عنّي ليقتلوني حيثما وجدوني».

«أيّ ترّهة هذه! الذئب المخيف يقع فريسة الدجاجة».

«أتعلم أين أشعر أنّي أكون في هذه اللحظة؟».

«أين؟».

«قبل أشهر، احتفاءً بعيد زواجنا الرابع، قرّرنا أنا وجوفاني، زوجي الذي تلقّبونه بالجبان، أن نغادر بيزارو لنتّجه إلى مدينة فيرارا، حيث سمعنا بأنّ ثمّة كرنفالًا كبيرًا يقام على شرف الدوق هرقل دا إيستي. وحين بلغنا المدينة، حدث ذات مساء أنّنا شاهدنا عرضًا غريبًا من نوعه، قائمًا على الخيال وجنون الإبداعات المسرحيّة. ما أذهلني على وجه الخصوص أنّ الممثلين لا يتحاورون باللاتينية، أو بإحدى تلك اللهجات غير المفهومة كالعادة، بل بالعاميّة المحكية في فيرارا، بمستوىً لغويّ جزل ورفيع. والأغرب من ذلك أنّ الشخصيات تتصرّف بحركات غير بشريّة، بل حيوانيّة تمامًا، كما لو أنّهم كلاب. شدّ كلُّ الممثلين أسلاكًا تحت ملابسهم، لتحرِّك ذيولًا متّصلة بأجسادهم. وراح أحدهم يشمّ مؤخّرة الآخر عند كلّ لقاء، وينبح بعضُهم على بعض كتحيّة، ويلعقون أنوفهم وأفواههم. وكان الذكور يرفعون سيقانهم على طريقة الكلاب في التبوّل، وأحيانًا يقيمون حفلات راقصة للتعارف، فتسمع الغزل نباحًا وتمسّحًا. وفي الختام، قدّموا مشهدًا إباحيًا على طريقة الكلاب حقًا: الأنثى تعقف جسمها، فيعتليها الذكر من الخلف. وكلّ هذا يحدث بأداء لا مبالٍ على الأرصفة والطرقات. لا عجب، فالحيوانات لا تمتلك فضيلة الحياء. كانت كلّ شخصية ترتدي قناع كلب من نوع معيّن. فهنالك كلاب الصيد، والاستطلاع، والتسلية. فرقةٌ مكونّة من

كلاب مهجَّنة. والفروق بينهم واضحة بفضل الأطواق الجلديّة الناعمة الموضوعة حول رقاب الممثّلين. فقائد القطيع يلفّ طوقًا مزيَّنًا بأقراص مذهّبة، بينما يرتضي المهجّنون بسلاسل صدئة».

يقاطعها شيزاري: «عذرًا، لماذا تقصّين عليّ هذا المشهد؟ إلام تلمّحين؟».

«ألمّح إلينا يا عزيزي. نحن أبطال ذلك العرض. حتى إنّ عنوان تلك المسرحية «مدينة الكلاب». وقد علمتُ بأنها تُرجمت إلى الانكليزية، كما جرت العادة مع كلّ ما يُكتب عندنا. حاولت إحدى الفرق أن تعرضها في لندن، بعنوان آخر وتعديلات معيَّنة، لكنّ الملك هنري السابع حال دون ذلك، ويبدو أنه زجّ كلّ أعضاء الفرقة بالسجن، بمن فيهم الملقّن».

«لقد غدت مدننا وأمراؤها مشهورة في العالم - يعلّق الشقيق - لا لشيء إنّما للفجور والفضائح والشنائع».

«آه، نسيت تفصيلًا آخر»، تقول لوكريسيا. «في تلك المسرحية، عند عتبة الخشبة تقريبًا، كان ثمّة أطفال يتحرّكون بإيماءات عجيبة في غاية السماجة، يكتفون بالنظر كأنّهم تحت تأثير سحر ما. ثم شدّوا الستار العريض وأسدلوه كأنّهم يمحون ذلك العالم القذر والمهين الذي عاشه الممثلون حتّى تلك اللحظة. وفجأة يرتفع نشيدٌ، بألحانٍ خرافيّة، ويبدأ الأطفال بالرقص والعناق والإيماء بحركات ودودة وطاهرة تعكس براءتهم ورقّتهم. وحينها فقط خُيّل إليّ أنني أرى نفسي معكم، ونحن صغار، حين كنّا نعيش في ذلك المنزل، ونلعب لعبة العائلة».

«أجل! أذكر تلك اللعبة، وكيف كان كلّ واحد منّا يؤدي دورًا، أنا وخوان نتناوب على دور الأب، وأنت يا لوكريسيا كنت الأم، والصغير خوفري ابننا. كم كنا نتسلى في تلك اللعبة».

«أذكر أنّي غالبًا ما كنت أقول: «حين أكبر سأتزوّج أخي وأعيش معه»».

«أجل، وأنا كنت أغار من خوان، لأنه أكبر مني بعامَيْن، ويطالب أن يكون المفضّل دومًا. فيتوجب عليّ أداء دور الخال الأسقف، صديق العائلة».

«صحيح، ولكن عليك أن تعترف بأنّي كنت أفضّلك أحيانًا، وأطالبك بأداء دور الزوج».

«ثمّ كنّا نذهب لنستلقي على السرير كما لو كنّا زوجًا وزوجة. لم أنس أبدًا ملامساتنا الرقيقة».

«لكنّي أتساءل من حين لآخر - تعلّق لوكريسيا - لماذا كنّا نشعر بحاجة لنمثّل بأننا عائلة؟».

يردّ شيزاري: «بالتأكيد، لأننا كنا نشعر فطريًا بأنّ تلك العائلة التي كنا نعيش في ظلّها لم تكن عائلة حقيقية، بل زائفة. لذا كنا نختلق حقيقة أخرى، زائفة هي الأخرى كليًا».

«بمناسبة الحديث عن الحبّ المتخيّل والبذاءات الأخرى، سمعتُ من يقول بأنّ روما كلّها تغتابنا، أنا وأنت، ويشكّون بأننا ارتكبنا سفاح ذوي القربى».

«أجل، بلغتْ مسامعي هذه الافتراءات؛ لعلّ من الأفضل أن يبقى أحدنا بعيدًا عن الآخر، كي لا نعطي فرصة أخرى لتلك الألسن الحقيرة بأن تلوّث سمعتنا».

«فهمتُ. هل عليّ أن أرحل من هنا حقًا؟».

«أجل، هذا أفضل».

«هل لي أن أعانقكَ على الأقلّ؟».

«طبعًا. فليرافقك الربّ».

في روما، إن أضعتَ أيّ شيء تجده يطفو على النهر بعد قليل

بعد يومين، يعثر عمّال القوارب صباحًا على جثة تطفو على نهر تيفيري. جثّة رجلٍ بثياب فاخرة وطوق ذهبيٍّ برّاق. يكتشف العمّال أنّه خوان بورجا، نجل البابا ألكسندر السادس، يا للهول! إضافة إلى وجود طعنات كثيرة على ذلك الجسد الهامد. من بوسعه أن يقتل رجلًا ذا شأن بارز، ومستقبل واعد، ثمّ يرميه في النهر بلا اكتراث؟

يحتدم الجدل في روما كلّها، وتتجه أصابع الاتهام إلى هذا الخصم تارة وإلى ذاك تارة أخرى. والمقصود هنا عائلات شهيرة طبعًا، مثل آل أورسيني وآل كولونا... إلخ. لكنّ دائرة الشكوك تضيق في النهاية حول عائلة القتيل نفسه، وتتداول الحانات بأسرها، وكلّ أوساط النبلاء في روما، اسم شيزاري بورجا، الشقيق.

أكثر المصدومين حتّى الإحباط، في المدينة كلها، هو ألكسندر السادس بلا شكّ، الوالد. لكنّ الشعب برمّته يتساءل لماذا لا يأمر عاهل روما الشرطةَ بإجراء تحقيق حازمٍ وفوريّ. لا ينبس الوالد ببنت شفة لكلّ أولئك الذين يسألونه عن رأيه بهويّة القاتل الذي ارتكب الجريمة. تستحقّ الخاتمة باسكوينيّة موفّقة، وبالفعل يردّد

الكثير من شعب المملكة المقدّسة: «البابا لا يجرؤ على الكلام لأنه يعرف أنّ المجرم أحد أفراد عائلته نفسها!».

وهكذا يتحوّل البابا بورجا تلقائيًا إلى مسؤول أساسيّ عن الجريمة. بات الجميع متيقنًا من أنه يرزح تحت سطوة ابنه الرهيب، المحبَّب إلى قلبه.

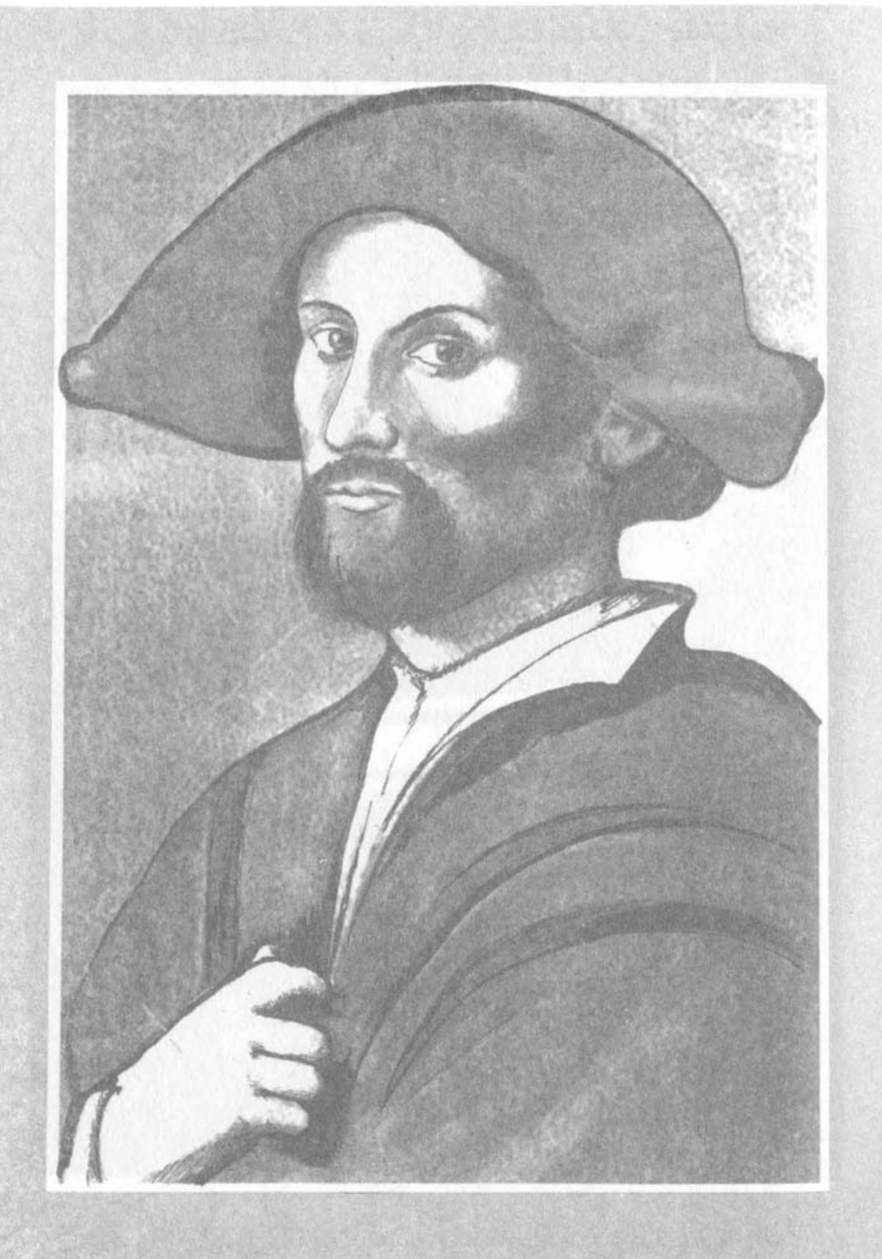
على الجبناء ألّا يطلبوا الحرية ممّن يستأثر بالحكم!

لا يعبأ الابن الرهيب بتلك التهمة كثيرًا. فهو لديه مشروعٌ وعليه أن ينجزه، وقد تفرّغ له مع والده: الأمر متعلّق بإجبار جوفاني سفورسا، الذي لا يزال زوج لوكريسيا، على الانفصال عنها إذا أراد البقاء حاكمًا على مدينة بيزارو.

وكي يرى هذا المخطط النور، لا بدّ أن يتحدث مع صهره الجبان باستعلاء. فاتّجه إلى مقاطعة أنكونا مع قلة قليلة من الحرس.

أخرج جوفاني من وكره، وقد اصفرّ وجهه مصدومًا ومرغَمًا على سماع اقتراح بورجا الشابّ. «صديقي العزيز - يقول له - هذه هي الحال، نعرض عليك خيارين: أولّهما أن توقّع على وثيقة تعترف فيها بأنّك عاجز ولست قادرًا على إقامة علاقات جنسيّة مع أيّ امرأة. وثانيهما أن تعترف أمام أحد القضاة أنّك قرّرت من تلقاء نفسك عدم إقامة علاقة جنسيّة مع لوكريسيا».

يجيبه جوفاني بشجاعة وكبرياء: «سموّكم تطلب مني التفوّه بأكذوبة تدنّس شرف زوجتي أيضًا! من يصدّق أنّ رجلًا، مهما بلغ به العجز الذي تطالبونني بالتصريح عنه، أن يتجرّد من رغباته الجنسية أمام جمال خارق كجمال شقيقتك؟».



خوان بورجا



شيزاري بورجا

«كما تشاء - يطمئنه شيزاري الرهيب - إن كنت لا ترغب في إقرار عجزك فأنت حرٌّ في ذلك. أحترم الكرامة التي يذود عنها أيّ رجل. جلّ ما أتمنّاه أن يحالفك الحظّ. فهذا العالم يا عزيزي مليء بالدسائس والمخاطر. قد تصادف ثورًا هائجًا يقفز من السور وينطح كلّ من يعترض طريقه. أو ربّما تلتقي بمتزمّت دينيّ يتّهمك بالهرطقة، ويعلّقك على سارية ويضرم فيك النار. أو ربّما تزدرد كأسًا من نبيذ فاخر، يحتوي بالصدفة على سمّ قاتل فتنتهي حياتك بصرخات فظيعة وتشنّجات لا تُحتَمل. قد تقع هذه الأشياء في أيّ لحظة! فكّرْ في الأمر عمومًا. سنلتقي بعد وقت قصير. آه كدت أنسى، إن أردت استشارة زوجتك، أعني شقيقتي، فاعلمْ أنّها منذ البارحة غادرت دير القديس سكستوس».

سأله جوفاني حانقًا: «هل خطفتها سموّكم؟».

«لا. لقد رحلت بملء إرادتها، اختفت، ولم نعثر على أيّ أثر لها. إن التقيت بها، أرجوك أن تمدّنا بأخبارها، فنحن عائلة واحدة في النهاية!».

«ها ها ها! أضحكتني!».

فلنترك شيزاري قليلًا، ولننتقل إلى أرياف فيرارا. على ضفة نهر البو الثاني، كما يسمّى. على الضفة المواجهة للبحر، ثمّة دير قديم مهجور منذ القرن الرابع عشر إذ فرّت منه الراهبات خشية الإصابة بالطاعون الذي اجتاح البلاد آنئذٍ. ومنذ عدّة أشهر جاء فريق من المتديّنات، عملن على لملمة أطلاله وترميمه.

أمام مدخل الدير، يتوقف شابٌّ، يمتطي فرسًا، ويسأل أحد عمّال

البناء عن أهل الدير. يفسح له الأخير الطريق ويرافقه إلى الداخل حيث الباحة المطوّقة بالأقواس. يترجّل الفارس، فإذا بامرأة بدينة تقترب منه وتدفعه إلى الخلف.

«ارحل من هنا! عمّن جئت تبحث؟».

يصدح صوت لوكريسيا من إحدى النوافذ:

«دعيه! إنّه زوجي!»، تضيف: «سأنزل حالًا يا جوفاني!».

تظهر لوكريسيا بعد ثانية في الباحة، وتقول بلهفة:

«آه يا جوفاني، كم يسعدني لقاؤك ثانية!».

«ما الذي دعاك للمجيء إلى مكان كهذا؟ إنّه دير قديم، إن لم أخطئ، من السهل أن يقبض عليك والدي هنا».

«لا. كان ديرًا، الآن هو نادٍ للبيزوكيريات!».

«بيزوكيريات؟ ماذا تعني هذه الكلمة؟».

«إنّهنّ راهبات قاصرات، لا يحتجْن إلى إذنٍ لفعل أيّ شيء. لذا لا تصل أخبارهنّ إلى الإكليروس».

«لحسن الحظ أنّ جاكومينو، خادمنا الأمين، وجدني في الوقت المناسب. تصوّري أنّه جاءني بينما كنت أهمّ بالرحيل... لا أعرف إلى أين، إلى أبعد مكان ممكن».

«ما الجديد؟».

«والدك أوفد إليّ شقيقك شيزاري. يريدان إبطال زواجنا، وذلك بإرغامي على توقيع وثيقة أصرّح فيها بأنّي عاجز جنسيًّا!».

«عاجز؟ وهل وقّعت على الوثيقة؟».

«ليس بعد، ولكنّي لا أعلم كيف أتجنّب الأمر».

«يا له من متسلّط حقًا».

«فعلًا. لقد ألمح إلى أنّي قد أتعرّض لمهالك مباغتة، في حال لم أوافق على التوقيع. ولا أحد سيعرف القاتل. بالمناسبة، عليّ أن أخبرك بنبأ مؤلم...».

«يا إلهي! نبأ آخر؟ ماذا حدث؟».

«شقيقك خوان... عثروا عليه مقتولًا».

«بلغني هذا النبأ من قبل».

«حقًا؟ وهل تعلمين أنّ شعب روما متيقّن من أنّ القاتل هو شقيقك شيزاري؟».

«أجل، أعلم هذا أيضًا. لقد وردني أنّهم يرون والدي مسؤولًا عن الجريمة، إذ كان على علمٍ بها وطلبَ أن يُغفَرَ للفاعلين».

«حقًا. وفي هذه الحالة يُعتبر متواطئًا».

«أجل، للأسف. وأعلم أيضًا أنّه مرّ بأزمة عصيبة منذ وقت قصير. لم يره أحد ثلاثة أيام متواصلة، أغلق على نفسه باب غرفته وسمعوه ينوح بائسًا ويذرف دموعًا غزيرة ليلًا ونهارًا. وأين كان ابنه المجرم؟ بقربه، يؤاسيه؟ لا طبعًا! انطلق مسرعًا إلى بيزارو كي يلتقي بك ويتوعّدك بالموت أنت أيضًا إن لم تذعن لمشيئته. لهذا السبب هربتُ بجلدي من الدير في روما. لم أعد أريد رؤية أيٍّ من أفراد عائلتي، ولا أن أعيش حياة تتغلغل فيها تلك اللعنة الرهيبة التي فُرضت عليّ من البداية: لعنة انتمائي إلى آل بورجا».

«الآن، إنّي مضطرّ للطلاق كي لا يقحموكِ في مشكلات عويصة. صدّقيني، إنّ الأيّام التي عشتُها معك أجمل أيّام حياتي».

«لا تقلق بشأني، بل ركّز على نجاتك بالأحرى. أتعلم؟ لديّ حلّ!».

«ما هو؟».

«عمّك لودوفيكو الأسمر، من آل سفورسا مثلك، عليه أن يسدي لك معروفًا، خصوصًا أنك تزوّجتني نزولًا عند رغبته، إذ كان زواجنا يصبّ في مصلحته أيضًا. أليس كذلك؟».

«هذا صحيح، ولكن ما من ضرورة».

«لماذا؟ هيّا، تحلّ بالشجاعة وحاولْ!».

«لقد فعلتُها من قبل يا حبيبتي ولم تجدِ نفعًا، بل خرجتُ من عنده مقهورًا أكثر من ذي قبل».

«اشرح لي أكثر! ما الذي أخرجك من عنده مقهورًا؟».

«طلبتُ منه أن يتدخّل ليحمينا من بطش آل بورجا، فما كان منه إلا أن اقترح التالي: «أتعلم ما الذي عليك فعله؟ عليك أن تثبت للجميع بأنّك لست عاجزًا، بل وإنّك فحلٌ أكثر من الحصان». وعندما سألته: «كيف يمكنني ذلك؟». قال: «تَمثُل أمام هيئة منتخبة من الذكور حصرًا، إضافة إلى الموفد البابويّ طبعًا، ونفر من كبار القضاة والعلماء، وبعض الإناث وحبّذا بوجود قوّادتين أيضًا. وهكذا يتحقّق الجميع شخصيًّا من سلامتك الجنسيّة. تبدأ الاختبار العظيم عاريًا: انطلاق! يُدخِلون إليك حسناءَ ذات صدرٍ مليء وردفين مصقولين، عارية هي الأخرى إلا من الشبق، وتدعوك

للجماع. فتُظهر كفاءتك بانتصابٍ دامغ، وتهاجمها كالثور الهائج، ثمّ تدخل بها مرّة واثنتين، وثلاثًا... يكفي مرّتين ربّما...»».

تنظر لوكريسيا إليه مصدومة وتهتف: «يا إلهي... أكاد لا أصدّق أنّه تفوّه بهذه العبارات المنحطّة. بالفعل إنّ المآسي الأشدّ إيلامًا تنتهي دومًا نهاية هزليّة. بالمناسبة، نسيت أن أسألك إن كنت جائعًا».

«لا تقلقي، سأجد حانة على الطريق».

«لا تفكّر في هذا إطلاقًا! الشمس توشك على الغروب أصلًا، ومن غير المجدي أن تشقّ هذه الطرق في ظلام الليل. اسمع مني، نم هنا اليوم وانطلق صباح الغد».

«أنام هنا؟ وهل توجد غرفة لأجلي؟».

«طبعًا، غرفتي».

«هل أنت متأكدة ممّا تقولين؟».

«لا أعلم ما الذي سيحدث في ما بعد، ربّما تكون هذه آخر مرّة نلتقي. أريد أن نحتفظ كلانا بذكرى طيّبة عن أيّامنا معًا».

في الصباح، يمتطي جوفاني حصانه ويتّجه نحو ميلانو حيث سيوقّع على التصريح بعجزه، في حضور لودوفيكو الأسمر، والكاردينال آشانو سفورسا، وشيزاري بورجا. «سأتنازل عن موقفي لصالحكم - قال جوفاني لشقيق لوكريسيا - ولكنّي أطلب منكم وعدًا بأن تتركوا شقيقتكم في سلام! أي أن تضمنوا لها الحقّ في أن تعيش حياتها كما يطيب لها».

في الوقت نفسه، تعود لوكريسيا إلى روما لتوقّع أمام البابا شخصيًا، وكاتبَيْ عدل، على وثيقة تعترف فيها بأنّ ما من نكاحٍ

حصل مع جوفاني سفورسا. ينصرف عنها أبوها وهو يعانقها: «لا تخشي شيئًا، أعطيتُ أمرًا يحرّم التعدّي عليك. أريد أن تكوني حرّة طليقة وسعيدة قدر الإمكان. اسمعيني، ابقي هنا بعض الوقت. حبّذا لو حضرتِ اجتماعًا سأعقده بعد قليل مع جميع الأساقفة والكرادلة».

«لماذا؟».

«مفاجأة يا عزيزتي. إنّي متأكد من أنّ كلامي سيذهلك، كما سيذهل هيئة الكنيسة كلّها».

«كيف بإمكاني الجلوس مع رجال الدين وأنا امرأة؟!».

«ادخلي إلى هذه الغرفة، ثمّة ملابس مخصّصة للراهبات اللواتي يساعدنني. ستجدين لباسًا من قياسك. ولن أبدأ كلامي قبل أن تدخلي الصالة».

الانقلاب المبارك

انعقد مجلس الكرادلة، في ما بعد، داخل الصالة المطليّة بالمنمنمات. يترجّل البابا عن عرشه واقفًا، ليبدأ خطابه بنبرة رخيمة، ومتحسّرة نوعًا ما: «اسمحوا لي أن أعبّر عن بالغ أسفي لمصرع نجلي. لم أصَبْ بألم أقسى من هذا طوال حياتي، كنت أكنّ له فائض المحبّة، مثلما يحبّ أيّ والد أفلاذ كبده، فما بالك بخوان الودود والنزيه! أمام هذه البليّة التي حلّت عليّ، لم أعد أشعر بأيّ جدوى من منصبي البابويّ ولا بأيّ منصب رفيع آخر».

تمتلئ الصالة بهمهمات واهنة، ينظر البابا حوله كأنّه يسعى

لمعرفة أسباب هذا الهرج، ويتابع: «لو كان ثمن عودة ابني إلى الحياة يكلّفني التنازل عن حكم مديد لفعلتُها. إنّه عقاب أنزله عليّ الربّ بالتأكيد، فهو لم يلقَ مصرعه لأنه يستحقّ ذلك، بل جزاءً لي على إحدى خطاياي. وأكبر خطيئة ارتكبتُها هي أنّي فكّرتُ بالامتيازات التي سأفيد منها بهذا المنصب، متناسيًا أنّكم انتخبتموني ليس لأدع الأمور كما كانت عليه، بل لكي أحسّنها. إن غضضتُ الطرف عن هذه الرسالة الأليمة، فلا شكّ أنّ لعنة أشدّ وطأة ستحلّ عليّ وعلى الكنيسة قاطبة. جرت العادة أن يتمّ تداول الملكيّات الكنسيّة، أي بيعها والتجارة بها والحصول منها على فائدة كبرى؛ وهي فائدة لا تتوافق مع مبدأ الإحسان الذي نصّ عليه الإنجيل، إذا تمعّنتم، إنما تصبّ في جيوب المتسلطين الذين تعرفونهم جيدًا.

بدءًا من الآن، دعوني أحرّم التورّط في هذه الموبقات. فلنتحدّث عن المصارف، بما أننا هنا جميعًا. لقد أعدت قراءة نصوص الإنجيل المقدّسة بتمعّن، تخيّلوا أنّي لم أجد أيّ إشارة ولو سريعة إلى حقّ الكنيسة في تأسيس هيئة عليا معتبرة تدير مقدّرات البؤساء، وتمنح القروض وتراقب الحركات التجاريّة والمشاريع والمداولات، وجمع الخيرات بانتظار أن تحصل البشريّة على خلاصها الموعود. لم أجد أيّ تلميح لهذا أبدًا!

بل وجدتُ نفسي قبالة نبيٍّ يضرب بالعصا رؤوس التجّار الذين يعقدون صفقاتهم داخل المعبد، يساندهم في هذا رهبانٌ فاسدون يحلّلون الربا والجشع والاستغلال.

للتوضيح، ثمّة قاعدة عليكم أن تتقبّلوها: من الآن فصاعدًا لن يترأس أيّ كاردينال أكثر من أسقفيّة ولاية واحدة، ولن يتجاوز

إيراده السنويّ ستة آلاف دوقيّة من ريع أملاكه[1]. منذ اليوم، ستتمّ معاقبة كلّ من تسوّل له نفسه المتاجرة بالمقدّسات، التي ارتكبتُها في السابق أنا أيضًا، وستأتي العقوبة على شكل لعنة كنسيّة، أي أن يُجرّد من صفة القداسة. أجل، أكرّر، لا أريد أن أوصف بالثرثار الذي يتّهم إخوته بالخزي والعار وفي الآن نفسه يحصل على الأموال والامتيازات ويوزّع المنافع والمناصب بينه وبين أبنائه وأقاربه. لا يوجد أمامنا سبيل آخر لإنقاذ هذه الكنيسة، وإظهار توبتنا أمام المؤمنين، إلا المضيّ بالتحديث قدمًا كي نحيي الضمائر ونرسّخ الإحسان.

هلّا أجبتموني على هذا السؤال: كيف لنا، نحن الذين خوّلنا الربّ بتحقيق العدل بين العباد، أن نتقاضى راتبًا يبلغ أضعاف ما يتقاضاه خدمنا مجتمعين، بدءًا من الخوارنة؟ هل تذكرون القصة التي يوجّه فيها ابن الطمّاع سؤالًا للمسيح: «أيها السيّد، ما الذي عليّ فعله كي أستحقّ السير خلفك نحو ملكوت الربّ؟». وهل تذكرون بما أجابه المسيح؟ حسنًا، تخيّلوا أن يطرح الشابّ نفسه السؤال ذاته على المسيح، اليوم. بم سيجيب ابن الربّ؟ هل سيكتفي بالقول: «اخلع عنك رداء الثراء»؟ كلا. بل سيقول: «تخلّصْ من كلّ الامتيازات التي تتمتّع بها بفضل منصبك، ودع المنافع والتركات والأعطيات والرشى، ناهيك بالاختلاسات التي تخطط لها عصابتك من دون خشيةٍ من الجزاء والقصاص». علينا أن نتحلّى بالشجاعة لنتنازل عن كلّ شيء أمام الهيئة الكنسيّة التي وقعت فريسة للفساد والسرقات.

---

(1) M. Johnson, *op. cit.*, pp. 108 sgg. [المؤلّف].

يتعرّض العلمانيّون في كافة الولايات إلى القمع والتنكيل من قِبل مديري الكنائس، وإن حاولوا التمرّد وقع عليهم عذاب أشدّ مرارة وقسوة من أيّ تعذيب.

أعلم أنّ خطورة هذا الاقتراح يعادل رمي صخرة كبيرة في مستنقع مليء بالضفادع؛ ولكنّي في الختام أطالب بأن يتوقّف الأساقفة والكرادلة والقساوسة عن التمتّع بالجواري والمحظيّات نهائيًا، بدءًا من البابا نفسه».

ظنّ الجميع أنّ الخطبة انتهت، فنهضوا مصدومين، تشغل عقولهم أفكارٌ متلاطمة، ويناقشون اقتراحات قداسة البابا.

«توقّفوا جميعًا، لم أُنهِ كلامي بعد»، يُخرِسهم ألكسندر السادس، ويجلسون ثانية على أرائكهم. «أودّ أن أخبركم بأنني، منذ ثلاثة أيام، التقيتُ مطوّلًا بعشرة كرادلة من الهيئة الإصلاحيّة، وذلك لنصوغ جميعًا خطّة عمل. لا تظنّوا أنّ مرادنا يقتصر على هزّ الضمائر وكسر إيقاع السلطة الرتيب. بل سنفرض هذه الإصلاحات كي ينجلي هذا الفساد الذي غاصت فيه أحذيتنا، حتّى لو كانت الكلفة أن نمشي حفاة».

يبقى البابا وحيدًا يرتّب أوراق خطبته، بينما تفرغ الصالة من المجتمعين. وفجأة، تشبكه ذراعان فترتمي الأوراق من حوله، ويلتصق وجهٌ بوجهه ويجود عليه بالقبلات. إنّها ابنته لوكريسيا بالطبع، جاءت تغمره بهذا القَدْر من المودّة.

«هائل. عظيم يا أبتِ. - تهتف بين دموع فرح وصياح بهيج - كلامك بليغ وشجاعتك خارقة. أتساءل ماذا لو أثمر انقلابك هذا

عن الإصلاح الذي وعدتنا به! قبل ساعة واحدة، كان قلبي يُضمر حقدًا لك ولكلّ مبادئك؛ أمّا الآن فإنّي أشعر بمحبّة تجاهك، لم أشعر بها تجاه أحد من قبل. أرجوك أن تتابع بالهمّة والعزيمة اللتين قرّرتَ انتهاجهما. لا تخيِّبْ رجاء الآلاف مثلي ممّن ينتظرون معجزة من هذه الكنيسة المقدّسة».

ترسل لوكريسيا مكتوبًا فوريًا إلى البيزوكيريات اللواتي استقبلنها في فيرارا، تقول فيه ما يشبه التالي: «إنّ الربّ كبير حقًا ولا يمكننا التكهّن بمشيئته. لقد حوّل والدي من طاغية مستبدٍّ إلى مسيحيّ مفعم بالإنسانيّة. سأبقى في روما حاليًا، أريد أن أواكب هذا الحدث العظيم عن كثب».

وقد علّق أحد الموفدين من فلورنسا إلى روما، يكاد لا يصدّق ما جرى: «الهيئة الإصلاحيّة تنعقد كلّ صباح في القصر البابويّ[1]. يعملون بإصرار وحيويّة. وقد تتساءل، حين ترى هؤلاء الأساقفة والكرادلة المنهمكين في عملهم، إن كنت في الفاتيكان حقًا أم وسط حفلة راقصة حيث يقدّم الجميع عرضًا يتجاوز حدود العبث واللامعقول».

من قرّر تطهير نفسه من الآثام فليتهيّأ للصعود إلى منصّة الإعدام

بعد عدّة أيّام، يظهر الابن، شيزاري، ويطلب التكلّم مع البابا حالًا وعلى انفراد. ينزويان في صالة كبيرة حيث يرمّم بعض العمّال

(1) *Ivi*, p. 109 [المؤلّف].

الجدران. يشير شيزاري إليهم لإخلاء الصالة ثمّ يتجهّز لمباغتة والده الذي جلس على أحد المقاعد، بكلّ هدوء.

«لقد قدّمتَ أداءً عظيمًا يا أبي. تهانينا!».

يسبقه البابا: «كنت أعلم أنّك ستؤاخذني على قراري يا بنيّ. اعذرني، ألم يحدث أنّك دخلت في أزمة ما؟ هذه الحياة التي تعيشها مثلًا، هل تشعر بأنّك بخير؟».

«أودّ تجنُّب الحديث عني يا أبي، لأصغي إلى ما يقوله عنك جميع أولئك الذين يتظاهرون بتأييدك الآن، حتّى بدوا مثلك وكأنّهم سقطوا مصعوقين عن الحصان على درب دمشق، تائبين ومستعدّين لتغيير العالم».

يقاطعه الحبر الأعظم: «أعلم أنّ أكثرهم يشاركون في اللعبة متمنّين زلّة منّي تعجّل سقوطي؛ ولكن في الخارج ثمّة آلاف من الرجال والنساء يؤمنون باقتراحاتي. أصابني الجنون من أجل الشعب، كما تقولون جميعًا».

«يا للغرابة! ألا تذكر أنّك كتبت رسائل إلى سافونارولا تعبّر فيها عن احتقارك له؟ لقد توعّدتَه أيضًا باستعمال القوّة ضِدّه وضدّ فرقة المدلّسين التي تؤيّده».

«أجل، لكنّي لطالما احترمتُه. ما أزال حتّى الآن أعتبره مختلًّا، لكنّه ذو شأن كبير».

«أعلم، حتى إنّك دعوتَه للمجيء إلى هنا ليعاونك في صياغة شيء خارجٍ عن تقاليد الكنيسة. وليس هذا فحسب، قرأتُ اقتراحاتك على مجلس الكرادلة: لقد تلبّستك كلماتُ سافونارولا

كي تضيف هالة إلى مشروعك. حفظتها عن ظهر قلب: «نحن لا نقول إلا الحقيقة، لكنّ آثامكم تتكلّم نيابة عنكم. نحن نريد قيادة الناس إلى عيش كريم. أمّا أنتم فتريدون اقتيادهم إلى درب الضلالة، وتُمعِنون في غيّكم وجبروتكم حتّى أفسدتم العالم وعلّمتم الناس الكذب والخداع»».

«هذا صحيح، لقد استخدمت كلماته لأنّي مقتنع بأصالتها وصلاحيّتها وقدرتها على هزّ الضمائر».

«أحسنت يا والدي. ولكن هل تعلم ما الذي ستحصل عليه حين تحرّض المغفّلين؟».

«أجل، سيهتزّ عرشي، إن لم أتشبّث به».

«لا. بل ستحصل على الشهادة. أهذا ما ترغب به حقًا؟ هل تريد أن يلتفّ حبل المشنقة حول عنقك ثمّ تصليك النار الموقدة بغبار البارود كي تصبح المحرقة مشهدًا رائعًا؟ كم يسعدني أن نكون أنا وأنت في فلورنسا، خلال عام، بدل من أن نكون هنا في روما. هناك، في فلورنسا، حيث نطلّ من شرفة قصر السيادة لنشاهد النهاية المذهلة للرجل الصالح القدّيس الذي نال إعجابك، سافونارولا. أنت تعلم أنّ حكومة فلورنسا نزعت عنه الحصانة ومن المتوقّع أن تحكم عليه المحكمة بالإعدام».

«أجل، أعرف أيضًا أنك تكرّمت بقتل القسّيس وأتباعه، منذ أشهر».

«ماذا تقول يا أبتِ؟ ماذا فعلتُ أنا؟».

«آه، لا شيء. سوى أنّك خدعت أسقف بيرّوجا لينفّذ أمرًا

أصدرتُه بنفسي من روما بفصل سافونارولا. وهي أوامر مزوّرة بطبيعة الحال، لكنّهم صدّقوها للوهلة الأولى، وأوّلهم آل ميديتشي. ولحسن الحظّ أنّهم اكتشفوا الخدعة يا عزيزي شيزاري. فهمتَ قصدي».

«وهل تعتقد بأنّ تلك الخدعة من ابتكاري؟».

«أجل يا عزيزي، ولم تُحِطني بها علمًا. أعرف مكائدك دومًا، وأشمّ رائحتها من بعيد».

«فهمتُ. كنت أعلم أنّ الكلام معك لن يجدي نفعًا. إنما جئت لأنبّهك. أؤكد لك استعدادي لمساعدتك إذا حاولتَ الفرار من المذبحة. قبلاتي يا أبي. وداعًا».

من المعلوم أنّ الحفلات الخاصة في الأوساط الكنَسيّة حُرّمت مؤخرًا، عملًا بإصلاحات ألكسندر السادس الجديدة. لكنّه أباح إقامة الحفلات التي لا تقتضي السريّة، تلك التي تقع في وضح النهار ولا تخلّ بالحياء العامّ، بما فيها الرقصات والأهازيج. خاصةً إذا نظّمها أتباع الرهبانيّة، كرهبانيّة «المستضعَفين» التي صفح قداسة البابا عن أتباعها بعد أن كانوا ملاحَقين. وسنتطرّق إلى حفلةٍ أقيمت فرحًا باجتياز مرحلة الخطر.

مناسَبةٌ لحبّ مفاجئ حقًّا

يختار المسؤول عن هذه الحفلة لوكريسيا ضيفةَ شرف، لتترأّس لجنة الضيافة. عليها أن تستقبل المدعوّين وترحّب بهم وتقدّم أحدهم إلى الآخر. طلبت لوكريسيا من جوليا فارنيزي أن تساعدها،

لعلّها تروّح عن نفسها، إذ كانت الفتاة يائسة وتنفجر باكية بين الحين والآخر، تشتكي من أنّ البابا قد هجرها فعلًا منذ أسابيع.

ثمّة فرقة موسيقية عند المدخل. الجوّ العام يوحي بمسرحيّات الزواج القرويّة - التي اشتهرت بها البندقية في ذلك الزمان - حيث يكون الزفاف فرصة للتعارف بين الشبّان والشابّات، ويسعى كلّ امرئٍ لإظهار سروره في جوٍّ من البهجة. وفجأة تدخل مجموعةٌ من الشبّان النابوليتانيّين الذين سرعان ما يخطفون أنظار الحاضرين وإعجابهم بأناقتهم. يوجد بينهم شابٌّ في مقتبل العمر، ربّما ثمانية عشر عامًا، يقدّم نفسه إلى لوكريسيا بانحناء مبالغ فيه، ويحصل في المقابل على ضحكتها الرنّانة. وحين يحاول الوقوف يختلّ توازنه ويقع أرضًا. تساعده لوكريسيا على النهوض فتجد نفسها بين ذراعيه. وتمرّ لحظة طويلة يتبادلان فيها نظرات مسحورة.

واضح! نحن بصدد الحبّ من النظرة الأولى المعتادة. وبالفعل لا ينفصل أحدهما عن الآخر طوال الأمسية، وينسجمان في حوار قد يشابه الحوار الذي دار بين روميو وجولييت.

«من أنت؟»، سأل الشابّ.

«أنا وصيفة».

«وصيفة من؟».

«وصيفة مولاتي لوكريسيا! هل تعرفها؟».

«لا، لكنّي سمعت عنها الكثير...».

«خيرًا أم شرًا؟».



ألفونسو أراغون

«سمعت عنها كلامًا رائعًا. في نابولي، حيث أعيش، غدت ابنة البابا أسطورة العشّاق».

«سوف يسرّها هذا التقدير حتمًا. إنها ليست هنا، للأسف. ومن يدري أين اختفت. وأنت من تكون؟».

«أنا مجرّد سائس عند دوق نابولي. هو أيضًا ليس هنا».

«انظر. إنهم يوزّعون الأقنعة الورقيّة، هل تريد واحدًا منها؟».

«لا أعلم... ولكن لمَ لا؟ إن كنت تودّين رؤيتي متنكّرًا...».

«سيتنكّر الجميع بعد قليل. ولا يسعنا سوى المشاركة في اللعبة».

تسأله لوكريسيا، وهما يرتديان القناعين: «ما اسمك؟».

«أفضّل عدم البوح به، فإذا عرفوني قد يطردوني حالًا من هنا».

«لماذا؟».

«آل كولونا يكرهون عائلتي، وهم أسيادٌ في هذه المدينة».

«حسنًا، سأمنحك اسمًا. ألفونسو! اسم جميل، هل يعجبك؟».

«أجل، بما فيه الكفاية. وأنت، ما اسمك؟».

«ابتكر لي أنت اسمًا».

«موافق، سأسمّيك إيميليانا».

«جميل، يعجبني!».

«لماذا أردتِ أن أختار لكِ اسمًا؟».

«لأنّ وجودي أيضًا غير شرعيّ هنا».

«ماذا تقصدين؟».

«إنني شمّاسة في الدير، وقد هربت منه في يوم استلام النتائج».

«يا لها من أكذوبة! وهل عليّ أن أصدّقها؟».

«إن أردتَ، قصصتُ عليك بأنّي بائعة هوى، وهذا مكان عملي».

وعلى غفلة منه، يجد الشاب نفسه، مختليًا بلوكريسيا في أحد أجنحة ذلك القصر النبيل.

يسأل الشابُّ: «ما الذي حدث؟ منذ هنيهة كنّا هنا مع جوليا، البكّاءة، وكان معها من تسمّينها المربّية ورفيقي لودوفيكو، أذهب لحظة إلى الشبّاك لألتقط أنفاسي، فأعود ولا أجد أحدًا. أبحث عنك فأجد الغرف كلّها خاوية ثمّ أراك هنا وحيدة. أين اختفى الآخرون؟».

«رحلوا».

«لماذا؟».

«قالوا إنّ حادثًا وقع لابن أدريانا المربّية، وهو زوج جوليا فارنيزي».

«آه، يؤسفني حقًا! ما الذي حدث له؟».

«لا شيء يستدعي القلق».

«وأخذا معهما رفيقيَّ أيضًا... لماذا؟».

«أظن أنّهم اختلقوا قصة الحادث كي نبقى أنا وأنت بمفردنا. هديّة جميلة، أليس كذلك؟ أم يؤسفك هذا؟».

«لا، لا، إطلاقًا! لمن هذه الشقّة؟».

«إنها شقّتي. أعيش هنا مع المربّية...».

«شقّتك؟ ماذا تقولين؟ اعذريني، إنّي قلِقٌ بشأن رفيقيّ... هل تعتقدين بأنّهم سيعودون؟ ومتى؟».

«لا تقلق بشأنهم، استرح هنا. خذ راحتك!». تشير إلى إحدى الأرائك.

يجلس وهو ينظر حوله، ثمّ يسأل ثانية: «اعذريني إن كنت أتصرّف كطير شريد، ولكن... أنت تثيرين فيّ شعورًا جياشًا بالإذعان...».

«إذعان؟ لماذا؟».

«لا أعلم، حين رأيتك قلت لنفسي: «هذه ليست فتاة عاديّة، إنّها ملكة»».

«شكرًا! هذا لطف منك!»، تمسك بيده وتسأله: «هل عمرك عشرون عامًا حقًا؟».

«حسنًا سأقول لك إنّي قد تفوّهت بأكذوبة... في الحقيقة لم أتمّ سبعة عشر عامًا بعد...».

«لا عليك، أنا أكبر منك بعام واحد فقط».

«أكبر مني بالسبعة عشر أم بالعشرين؟».

«بالسبعة عشر».

«آه، لحسن الحظّ...»

«هل لديك عشيقة في نابولي؟».

«أجل، ولكنّنا لا نلتقي أبدًا، لأنّها لا تعلم ذلك أيضًا».

«بمعنى أنّك لم... كيف تقال؟... لم تعترف لها بحبك بعد؟».

«تمامًا... أنا أدّعي الرجولة لكنّي... لم أضاجع امرأة أبدًا».

«حقًا؟».

«لا، ليس صحيحًا... منذ وقتٍ مضى، خدعني أصدقائي، طلبوا مني اصطحابهم إلى بيت صديقاتهم فاكتشفتُ أنّه بيت بغاء. تركوني مع إحدى الفتيات؛ نزعت ثيابها قبالتي وقالت لي: «ماذا تنتظر؟ انزع كلّ ثيابك كي نستمتع!»، وبمجرّد رؤيتها عارية، لذت بالفرار».

«لماذا؟ هل كانت قبيحة؟».

«لا، لا أعتقد... لم أدقّق النظر فيها، لكنّي شعرت بالاستياء من ضرورة التكلّم إلى امرأة عارية قبل أن أتعرّف إليها».

«حسنًا، وهل تتكلّم معي إذا نزعتُ ثيابي، بما أنّك تعرفني مسبقًا؟».

«يا إلهي... هل تسخرين مني؟».

«إطلاقًا! هيا، انزع ثيابك أوّلًا!».

«كيف؟ هكذا؟ فجأة؟».

«معك حقّ. ربّما من الأفضل أن نتعارف أكثر».

«عذرًا، هذا يعني أنّك اختليتِ بالرجال في السابق! كم عددهم؟».

«لا أذكر بالضبط... إنّي أمزح طبعًا! أتريد معرفة الحقيقة؟ أنا متزوّجة!».

«هل تقصدين أنّ لديك زوجًا؟».

«لا، لم يعد لديّ زوج. أجبروني على الزواج به لأسباب.. لن أقصّها عليك. ثمّ قرّرت عائلتي أن تفصل بيننا واستطاعوا أن يُبطلوا عقد الزواج، وهكذا عدت عزباء مرّة أخرى، ووحيدة».

«آآآآ... وكم من الوقت بقيتما معًا، متزوّجَيْن؟».

«أرجوك، كفّ عن هذا التحقيق. مرّ وقت طويل منذ أن رفعتك عن الأرض وتعانقنا، ثمّ نظرتُ إليك، وفي خاطري أن أطلعك على شيء... أتعلم؟ أنت أوسم شابٍّ رأيته في حياتي. قلت لي إنّي أبدو ملكة، وأنت أجمل من ملك. لو كان الأمر بيدي، لتزوّجتك حالًا. حتّى لو كان الهدفُ ممارسةَ الحبّ فقط».

«أمّاه! حقًا؟»، يلتقط الشاب نفسًا عميقًا ثمّ يقول: «وأنا أيضًا».

في الصباح يستيقظان متعانقَيْن. ينفصلان قليلًا ويظلّان في صمت يراقب أحدهما الآخر لوقت طويل، ثمّ تقف لوكريسيا على السرير وتهتف: «يا إلهي! تبدو لي أكثر وسامة إذ أراك عاريًا من الأعلى. من أيّ أسرة أنتَ أيّها النابوليّ؟».

«لا أستطيع أن أخبرك بهذا، لا أعلم إن كان سيسعدك. ثمّ إنّي أخشى ألّا يوافق أبي وإخوته على زواجي منك».

«انس الأمر، قل لي من أيّ أسرة أنت؟».

«أراغون».

«أراغون؟! بحقّ الربّ؟! أنتم ملوك نابولي».

«أجل، ولكنّي ابن غير شرعيّ».

«إن كان كذلك، فأنا أيضًا ابنة غير شرعيّة».

«من أيّ أسرة».

«بورجا».

«بورجا! رحماك يا مريم!».

البابا في مكتبه، والنافذة خلف ظهره، ينادي بصوت مرتفع: «ادخلي، ادخلي يا جيرترود! واجلسي».

تدخل الراهبة الشابّة وتنحني: «هل ناديتني، قداستكم؟».

«أجل. سأوكل إليك مهمّة جديّة».

«آمل أن أكون أهلًا لها. سمعًا وطاعة يا قداسة البابا».

«اليوم، سأستقبل شخصيّتين في غاية الأهميّة بالنسبة إليّ. أوّلهما بولنديّ لكنّه يتقن التخاطب بلغتنا جيدًا، وثانيهما من مدينة فيرارا وهو معلّم البولنديّ الذي اكتسب شهرة أوسع من معلّمه».

«هذا يحدث أحيانًا».

«صحيح. البولنديّ يُدعى كوبرنيكوس، وهو عالمٌ يدرس الفلك. والثاني يُدعى نوفارا وهو عالم رياضيات، ويتقن اليونانيّة كتابة وقراءة، عدا عن كونه عالم فلك أيضًا».

«يا إلهي! إنّه لشرف عظيم أن ألتقي بشخصيّتين من هذا المستوى».

«أصدقك القول: وأنا أيضًا أتشرّف بهما. ولكن دعينا نركّز على وظيفتك: عليك أن تمنعي الفضوليّين المعتادين، وهم كثرٌ حولنا، من أن يتلصّصوا على زيارة العالِمَين».

«أوامركم محقّقة يا قداسة البابا. سأذهب إلى مدخل القصر كي أنوّه لحضورهما. هلّا أعدت عليّ اسميهما، قداستكم؟». تُخرج ورقة وقلم رصاص.

«لا! لا تكتبي!»، يمنعها ألكسندر السادس. «احفظي كلّ شيء في ذاكرتك، لا أريد ملحوظات مبعثرة، أيًا يكن نوعها. إن كتبت كلمة ووقعت في يدهم، تعرفين من أقصد، سيجرون عنهما تحرّيات فوريّة».

«معكم حقّ قداستكم. أستأذنكم». تخرج.

يعود البابا إلى منضدته، فإذا بالراهبة تدخل من جديد: «عذرًا يا قداسة البابا».

«ما الأمر يا جيرترود؟ هل نسيت شيئًا؟».

«لا قداستكم، بل وصل العالمان، إنّهما يصعدان السلالم».

«سحقًا، ما هذه السرعة! حسنًا، اذهبي للقائهما، ورحّبي بهما بحفاوةٍ يستحقّانها، وادخليهما إليّ».

ولا تمضي ثانية إلا ويدخل العالمان مكتب الحبر الأعظم، فينهض واقفًا ويتّجه نحوهما: «حمدًا لله على سلامتكما يا صديقيَّ. لقد وصلتما قبل المتوقّع».

قال أكبرهما سنًّا: «هذا بسبب الأمر الطارئ الذي دعاكم للإيعاز إلينا بالحضور، فاستعجلنا».

ردّ البابا: «أتصوّر أنّكم - مشيرًا إلى المتكلّم - المعلم نوفارا، وهذا الشابّ تلميذكم كوبرنيكوس. هل أصبت؟».

«هذا صحيح».

«تفضّلا بالجلوس».

تجلب الراهبة كرسيَّيْن، ثمّ تتراجع إلى الخلف، وتقف عند

الباب. يقول المعلم نوفارا وهو يهمّ بالجلوس: «اعذروني قداستكم، قبل أن نبدأ حوارنا نرغب بمعرفة أسباب اختياركم لنا تحديدًا، كعالِمَي فلك، للإدلاء بنصائح عن حلول تتعلّق بمصير الديانة المسيحيّة قاطبة».

يعلّق البابا متسائلًا: «كيف أدركتم أنّ الأمر يتعلّق بمشكلةٍ تعرقل أداء الكنسية؟».

يجيب البولنديّ: «لا غرابة إذ إنّ إيطاليا برمّتها تتكلّم عن مشروعكم هذا، بل وسائر أوروبا».

يضيف نوفارا: «لكنّنا لا نستطيع أن نعرف كيف سيفيدكم عالمَان متفرّغان لعلوم الفضاء، أكثر من تفرّغهما لمشكلات الأرض».

«قبل كلّ شيء، لأنكم أقرّيتم بعظْمة لسانكم: مهنتكم قراءة النجوم؛ فأنتم أقرب إلى الله. كما تعلمون، ثمّة مقولة قديمة في كاتالونيا، وهي المقاطعة التي أنحدر منها: «إن أردت الخروج من أزمة حرجة، بإمكانك أن تسأل ساحرًا يستشير أمعاء دجاجة، أو ساحرة تصغي إلى نبض صدغيك وتتفحّص عينيك، ولكن ما من أحد يقدّم إجابة أفضل ممّن يقرأ النجوم». ثمّ إنّ أحدكما، أقصد المعلّم نوفارا بلا شكّ، منجّمٌ إضافة إلى كونه عالم فلك؛ وهذا يعني أنّه يتنبّأ بمستقبل الناس عبْر حواره مع الأجرام».

يجيب العالمان معًا: «حسنًا، اعذروا فضولنا قداستكم».

يتابع البابا: «ندخل في الموضوع. نظرًا إلى أنّكما على علم بالقرار الذي صرّحتُ عنه في آخر جلسة للكرادلة، قرارٍ بتغييرٍ شامل، تغيير البنية الكنسيّة؛ فإنّي متشوّق لمعرفة رأيكما».

يجيب نوفارا: «بصراحة، حصلنا على برنامجكم بمشقّة، وحين قرأناه انتابنا شعورٌ بالصدمة والارتباك في آن واحد».

«أرجو أن تتكلّما بوضوح. لدينا القليل من الوقت، وقد صادفنا مع الأسف كثيرًا من الصدوع في رفع الأساسات، إضافة إلى عددٍ من الانهيارات الجزئيّة التي لا تنذر بالخير».

«حسنًا قداستكم، هذا أمر طبيعيّ يواجه أيّ تغيير واسع كالذي تحاولون إحداثه».

يتدخّل الشابّ البولنديّ حينذاك: «لو سمحتم لي قداستكم. إنّني أجد المشروع، أقلّ ما يقال فيه إنّه مختلّ التوازن».

«ماذا تقصدون؟».

«في الفيزياء، تدلّ حركة التغيير الشامل إلى شيءٍ يفرض تناقضًا مع التوازن، أيّ أنّه يخرج عن قوانين الطبيعة كليًّا».

«جميل، يعجبني هذا التعريف! ولكن، هل ترون المشروع ممكنًا أم طوباويًا؟».

يجيب نوفارا، بابتسامة غريبة، مندفعًا: «يا قداسة البابا، عليكم أن تتحلّوا بالصبر، وأن تنتظروا غياب الشمس وحلول الليل. فمن الصعب قراءة النجوم في وضح النهار».

لا يتمالك البابا ضحكته: «ها ها ها! أضحكتموني. لم أفهمها للوهلة الأولى».

يهتف الشابّ البولنديّ: «نحن محظوظان بأنّنا نتعامل مع حَبرٍ يقدّر حسّ الدعابة. فهكذا نمضي مطمئنّين بأنّه لن يسوقنا إلى محكمة التفتيش».

البابا يُظهر تقبّله للدعابة ويدعوه للمتابعة.



كوبرنيكوس

يستأنف كوبرنيكوس: «اعذروني قداستكم، لقد تحدّثتم للتوّ عن تحفظّات ومعارضةٍ واضحة من معاونيكم ومستشاريكم الذين سيناهضون قرارًا كهذا بالطبع، أو سيشكّكون في إمكانيّة تحقيقه على الأقلّ. أليس كذلك؟».

«صحيح».

يتدخّل المعلّم نوفارا حالًا: «فإذًا، ها أنتم تدركون انعدام القدرة الجدليّة لصدّ تلك الملاحظات السلبيّة ومواجهة تلك التحديّات».

«أجل، نوعًا ما».

«ولهذا السبب تتّجهون إلينا كي نساعدكم في إيجاد كلام قويّ ومقنع».

«أحسنتم، تمامًا».

يقول كوبرنيكوس: «ولكن كي نكون مفيدين لا بدّ أن نطّلع على المعارضة التي وجدتم صعوبة في مواجهتها...».

يقول البابا وهو يحرص على وضوح كلماته: «لقد فرضتُ نقطة أساسيّة لبرنامجنا، هي سحب الأرباح والامتيازات التي يتمتّع بها الأساقفة والكرادلة وكلّ من يدير المصالح الكنسيّة. وفي المقام الثاني، أمرتُ ألّا يستغلّ أحدٌ تلك الموارد التي تثري الكنيسة، كالصدقات مثلًا..».

يقاطعه العالم الشابّ: «فلنحلّل أولًا هاتين النقطتين، من بعد إذن قداستكم. واعذروني على الابتذال؛ ماذا كان ردّ معارضيكم في ما يتعلق بسحب الأرباح؟».

«أعربوا عن رفضهم القاطع. ذكّروني بأنّ وظيفتهم جمع

العشريّات والأعطيات، وليس هذا فحسب، بل إدارة الملكيّات التي تُعتبر من مخصَّصات الكنيسة نفسها: «نحن خدم الربّ، لا يمكننا أبدًا أن نستغلّ العبيد في كرومنا!». ولم ينتهِ الكلام هنا، بل أضاف أحد الكرادلة، وهو رجل معتدل وعاقل: «سأرتدي ثيابًا متّسخة ومهشّمة بكلّ سرور، وسآكل من أطباق خشبيّة ما يكفيني من الطعام قليل البهار. ولكن كيف سأبدو إن التقيتُ أو دعوتُ إلى مائدتي شخصياتٍ بارزةً من العالم العلمانيّ؟ ناهيك بالأمراء الأجانب. تفضّل يا سيدي، هل ترغب بالقليل من الفجل مع جذور الحقل وبيض طائر السمّان؟ أتمنّى أن تكون طازجة!»».

هتف الشاب البولنديّ: «حسنًا، كان هذا متوقعًا. لقد اعتاد الأساقفة على هذه الامتيازات منذ عصور. كنت أقرأ قبل أيّام تاريخ مجمع نيقية عام 325، ففهمت كيف ولماذا طرأ التغيّر الكبير على الكنيسة ونقلها من جمعيّة فقيرة ومضّطهدة إلى هيئة رومانيّة مقدّسة في خدمة الامبراطوريّة».

يضحك ألكسندر السادس، ويقول: «يا للغرابة! أظنّ أنّها نفس الشهادات المجموعة التي قرأتها أنا أيضًا منذ شهر مضى؛ وقد كانت ملهمة وحاسمة في كتابة مشروعي الإصلاحيّ هذا. إحدى الفقرات التي أثّرت فيّ كانت لأسقف من روما، يعدّد فيها أسماء الشهداء المسيحيّين في القرون الثلاثة السالفة. مجزرة مروّعة حقًا، كان يقول، أشلاء مسيحيّين بؤساء مبعثرة في الساحات؛ أنبياء مصلوبون على الصلبان، رؤوس بعضهم إلى أعلى ورؤوس بعضهم إلى أسفل؛ نساء مغتَصَبات؛ أطفال تمّ رميهم من قمم شاهقة. ثمّ يرتفع صوتٌ ما: «كفى، لا يمكننا الاستمرار على هذا النحو، إذا رفضنا

وصاية الأقوياء في كلّ مناسبة سنصبح أكثر الحركات الدينيّة هيبةً في العالم بلا شكّ، ولكن بعد ذلك بمدّة قصيرة سنصبح جزءًا من هيئة الأموات الأتقياء»».

«تمامًا!» يشاركه نوفارا الرأي. «أرى أنّ قداستكم حفظتم الفقرة عن ظهر قلب تقريبًا. أجزم أنّكم تذكرون مرسوم ميلانو، سواء بنسخته الأصليّة أم المحرّفة».

«لا، لم أقرأ هذا الجزء بانتباه كافٍ».

يعلّق كوبرنيكوس: «حسنًا، سأذكّركم به. يقول قسطنطين الأوّل: «إنّ الأساقفة الذين يصوّتون لتحويل الكنيسة إلى كنيسة محميّة سيحصلون على امتيازات واسعة. قبل كلّ شيء، سيرتقون إلى مستويات رفيعة من التبجيل والاعتبار، من جانب السلطة المشكّلة، لا يمكن تخيّلها حتّى الآن. وعند انتهاء مجمع نيقية، سيحصلون للمرّة الأولى على مساعدات من الامبراطوريّة إضافة إلى حقّهم في جمع الأموال على شكل ضرائب، وأراضٍ خصبة تجتازها الأنهار، ومعابد الآلهة الوثنيّة التي ستتحوّل إلى أماكن للعبادة الكاثوليكيّة. وفي النهاية، اسمعوا اسمعوا، سيحقّ لهم استعمال الخدم، والعبيد أيضًا في بعض الحالات»».

«هكذا بوسعنا أن ندرك بأنّ المسيحيّة تخلّت عن الرّسُل، وعن المسيح؛ بل إنّني أخشى أن يكون المسيح هو الذي تخلّى عنّا».

يهتف كوبرنيكوس: «يا إلهي، يا إلهي! مع كامل احترامي، هل نحن متأكّدون من أنّ الذي يتكلّم هكذا هو الحبر الأعظم بعينه، أب الكنيسة المسيحيّة؟».



المعلم نوفارا

يقرّ نوفارا بنبرة خفيضة: «لا أخفي على قداستكم ضعف إيماني بسبب محاولتي النقاش عبثًا مع أمراء الكنيسة في الأعوام المنصرمة. لكنّي في هذه اللحظة أؤكّد لكم بأنّي سأكون من أكثر مؤيّديكم حماسةً، لو رأيتُ جماعة مسيحيّة تُولد من جديد كهذه التي تفكّرون في إنشائها». ينهض قداسة البابا حينها ويهمّ بالمشي جيئة وذهابًا في المكتب، كأنّه يحاول ترتيب أفكاره.

يتوقّف فجأة وينظر إلى الأعلى قائلًا: «أتعلمان بما أفكّر؟ من المستحيل تشييد بناية حديثة على أساسات بناية قديمة لم تعد قادرة على أن تشكّل ركيزة صالحة. لعلّ مظهرها ما يزال جبّارًا، ولكن من الصعب تحويلها إلى شيء آخر».

يسأل كوبرنيكوس: «ماذا تقصدون بكلامكم؟ هل إنّ الطريقة الوحيدة المعقولة تكمن في هدم البناية كليًا والبدء بإعمارها من جديد؟».

«بالضبط. يقال إنّ «الامبراطوريّة الرومانيّة انهارت»؛ لكنّ ما تمّ بناؤه ثانية كان أسوأ ممّا بُنِي في السابق بكثير. لماذا؟ لأنّه بُني على الأساسات القديمة نفسها. لذا، حين نقول «من جديد» يعني من الصفر تمامًا».

يهتف نوفارا: «بالتأكيد. ولكن ينبغي تغيير شيء آخر قبل المباشرة في عمل كهذا».

«وما هو؟»، يسأل البابا.

«البشر. لأنّنا سنعيد إنتاج القديم دومًا ما لم يغيّر المشيّدون

الجدد تلك الأفكار والمعتقدات والعادات والقوانين المنهارة؛ فما بالك إن تنكّر المسؤولون القدامى أنفسهم بزيّ المجدّدين».

«ما العمل إذًا؟».

«إن لم نكن قادرين على الهدم لتجديدٍ أفضل، فالحلّ الوحيد أن نبقى على حالنا. قد تبدو الحلول الأخرى رائعة، لكنّها غير مجدية».

نابولي جميلة في النهار تحت الشمس الحارقة،
وفي الليلة القمراء، وفي الليلة الظلماء؛
لكنّها أكثر من رائعة حين نمشي في أحيائها مُغرَمين.

تلك كلمات أغنية أهداها الشابّ ألفونسو أراغون إلى خطيبته الحسناء لوكريسيا حين جاءت لزيارته. استطاع الشابّ إقناع والده، ملك نابولي ألفونس الثاني، أن يسمح له بهذه العلاقة، وساعده في هذا شيزاري بورجا. إذ سرعان ما كرّس ابن البابا نفسه لترتيب هذا الأمر ما إن أعربت له لوكريسيا عن ولعها بالشابّ. ذهب شخصيًا إلى عاهل نابولي ليتوسّط، مستخدمًا اسم والده أيضًا، لصالح الشابّين.

في تلك الأثناء، كان ألكسندر، بهدوء ورويّة، يحيك النسيج الملحميّ لقصّة فشل مشروعه الإصلاحيّ الشامل؛ حريصًا على السقوط سالمًا وواقفًا على قدميه في حال الانهيار.

وحين كان يلتقي بالكرادلة القائمين على المجمع، كان يتساءل كيف خطر في باله أن يحقّق تغييرًا واسعًا إذا كان الأشخاص، الذين من المفروض أن يساعدوه، هم أنفسهم أولئك المخادعين

المنافقين الذين ستجرفهم الإصلاحات. إذ كانت أيادي هؤلاء موغلة في جيوب رجال الأعمال الذين يحتاجون دومًا لتفويضٍ من المجمع كي يشرعوا في أيّ عمل. ولم يكن التخلّص من المكر والاحتيال منوطًا بسَنّ قوانين جديدة ومنظومات تحديثيّة. فَهِمَ البابا رودريغو الدرسَ. لا يجدي الإصرار على بناء قصرٍ من الرمال على شاطئ البحر، ينتظر موجة عاتية تطيح به وبمن شيّده. بل ينبغي التصرّف بحنكة وحياديّة؛ متذكرًا أنّه في السياسة دومًا ينتصر المماطِلون. وبالفعل، تُعَدُّ المماطلة من أهمّ العناصر الأساسيّة في البرامج السياسيّة التي من غير الممكن، ومن غير الجدير، تحقيقُها.

أمّا الصعوبة بالنسبة إلى ألكسندر السادس، فتكمن في اجتياز العثرة المسمّاة بـ«الأخلاق». أي أن يتمكّن من تعديل احتياجاته الماجنة بالمعانقات المحرّمة، ظاهريًا على الأقلّ. فكيف له أن يبقى بعيدًا عن مليحة محبوبة مثل جوليا؟ ثمّة مقولة قديمة: «إن كانت الضباع تلاحقك فارم لها ألذّ وجبة عندك، حملًا وُلِد للتوّ. سترى كيف تغفل الضباع عمّا تبقّى، ما إن تنهش الفريسةَ بأنيابها».

وهكذا أطبِق على الإصلاح العظيم طيّ النسيان. كان أحد الناس، ممن يتحلّون بذاكرة قويّة، يسأل بين الفينة والأخرى: «متى نتحدّث مجدّدًا عن ذلك الانقلاب؟»

فيجيبه البابا، ومعه باقي الكرادلة: «اطمئنّ، لم ننسه يومًا. تحلّوا بالصبر. سنعيد اقتراحه مجدّدًا في القريب العاجل».

حقًا. هاتِ من يصدّق!

لوكريسيا في روما. يبدأ المشهد بالتزامن مع صفقٍ عنيف للباب أسفل السلالم المركزيّة، وإحدى الخادمات تصرخ: «خطيبك طرق الباب يا مولاتي!». فتجيبها لوكريسيا: «وأخيرًا! ماذا تنتظرين لتفتحي له؟».

«لقد دخل، إنّه يصعد السلالم!».

يظهر ألفونسو، تتجه نحوه الفتاة لتعانقه فيصدّها.

«آه، ما بك؟ لماذا تدفعني؟».

«اسألي أخاكِ، وأباكِ أيضًا! لستم سوى عصابة من النصّابين المحترفين!».

«نصّابون؟ هل ثملت أم تسيء إليّ ممازحًا؟».

«اسمعي، أنت فقيهة في الأدب، هل تعجبك قصائد الغرام الشعبيّة؟ اقرئي هذه إذًا!». يُخرج من جيب معطفه ظرفًا مغلّفًا. «تفضّلي، إنّه مهدى لكِ، أو لنا بالأحرى. ممتع للغاية».

تمسك الفتاة بالأوراق، وتسأل: «من كتبها؟».

«أحدهم... يُدعى بيلومو كواتروناتيكا. مهرّج بطبيعة الحال! وطريف جدًا».

«وهل تقصد إحراجي بلهجتك النابوليّة الآن؟».

«ومن يستطيع إحراجك؟ كفّي عن هذه السخافات! اسمعي ماذا يقول». ينتزع الأوراق من يديها ويقرأ بلفظٍ سليم: «ما أجملكِ يا لوكريسيا، ما أحلاكِ، عيناكِ كعيون الملائكة. لكنّك سفيهة وتؤدّين

دور الفاجرة مع فرقة الأوغاد، فخدعتِ هذا الفتى المسكين، شِبه حفيد الملك، وجعلتِه يصدّق أنّكما التقيتما صدفةً، لكنّها كانت صدفة مفتعلة لم يكن يعلم عنها شيئًا. ثمّ ارتمى أحدكما في حضن الآخر، ووقعتما في الغرام. لكنّ هذه كانت خطّة أخيك شيزاري، زعيم اللصوص، وأبيك المقدّس، بموافقة ملك نابولي أيضًا. أبرموا الاتفاق قبل أن يلتقي العاشقان. وهذا الفتى المغفَّل يحسَب أنّكما التقيتما بأمرٍ من إله الحظ وإله الهيام. آه، يا له من أبله!».

تنفجر لوكريسيا باكية. فينفجر الشاب ضاحكًا.

«تبكين؟ هذا ما كان ينقصني! تبكين وتعاملينني كأحمق في الآن ذاته!».

«كفى!»، تصرخ لوكريسيا وتصفعه: «لا أعلم شيئًا عن هذا. هل فهمت؟».

«حقًا؟ وهل شيزاري يجهل الأمر أيضًا؟ وأبوكِ، وأدريانا مربّيتك القوّادة؟ سأخبركِ: كدت أتشاجر مع والدي، فانفجر ضاحكًا وهتف: «آه وأخيرًا! أخيرًا فهمتَ أنّنا حضّرنا لك مقلبًا! ما همّك إن كان لقاؤك بها مصادفة أم لا؟ الفتاة جميلة في النهاية، ولديها من المال ما يلهب قلوب أصحاب المصارف. ثمّ إنّك ستمتلك ثروة يحسدك عليها ملك الهند. ناهيك عن أنّك ستصبح صهر البابا، وابنه قد يرث عرش نابولي». وأنتِ يا لوكريسيا ستصبحين ملكة! هل فهمت اللعبة؟».

«لا أعلم عن الأمر شيئًا! أقسم لك!».

تطلّ الخادمة برأسها حينذاك وتقول بصوت خافِت: «مولاتي، أخوكِ يوشك على الوصول، لقد ترجّل عن حصانه! ماذا نفعل؟».

«جيّد. سترافقين ألفونسو إلى الطابق الأوسط، ليقف عند الفتحة الكبيرة، هناك تمامًا، حيث بوسعه التنصّت علينا من دون أن يراه أحد. هيّا، رافقيه!».

وبينما ترافقه الخادمة إلى قاعة أخرى، تقول له لوكريسيا بوضوح: «اصغِ جيدًا إلى إجابة شيزاري عن سؤالي».

يخرج الاثنان، وتجلس الفتاة إلى نولٍ في وسط الغرفة وتحرّك مقبض الآلة.

«لوكريسيا! كم أنا سعيد لرؤيتك في البيت! ماذا تفعلين؟ ألا تسلّمين عليّ؟».

«ولماذا أسلّم عليك؟ هل لأنّك تواصل استغلالي؟ هل عليّ أن أشكرك؟».

«لا أفهم إلى ماذا تلمّحين».

«اسمع، هل تعلم أنّ المطربين يتجوّلون في شوارع نابولي ويسردون لقاء الحبّ بيني وبين ألفونسو، وهم يقهقهون؟».

«ماذا تقولين؟».

«حسنًا، قد لا تعلم شيئًا عن المطربين الشعبيّين، اسمح لي أن أعطيك الفرصة لتزيد ثقافتك قليلًا. اقرأ هذا». ترمي الكُتيّب الذي يحوي الأغنية عند قدميه. «مكتوبة باللهجة النابوليّة. هل تتقن اللهجة النابوليّة؟ حسنًا، استغلّ الفرصة الآن وتعلّم، إن أردت أن تصبح ملكًا على نابولي حقًا...».

يقرأ شيزاري بعينيه، ثمّ يهتف قبل أن ينهي الصفحة الأولى: «ما هذا الهراء؟».

«هذا الهراء يعكس حقيقتنا يا عزيزي!».

«ممَ تشتكين؟ ألم توبّخينا دومًا لأنّك تشعرين بالإهانة من استخدامنا لكِ كبيدق نحرّكه تبعًا لمصالحنا؟ والآن، ونحن نفعل كلّ شيء لتختاري الحبيب الذي تبحثين عنه، تتّهمينني أنا وأبي بخداعكِ؟».

«أجل، هذا صحيح. لقد أسأت إليكما بطلبي هذا! معك حقّ، إنّي فتاة طمّاعة. لقد فعلتما المستحيل لتعرضا عليّ شابّين من نبلاء إسبانيا...».

«لاحظي جيدًا، عرضنا اثنين احتياطًا...».

«ثمّ فكّرتما جيدًا في الأمر وتوصّلتما إلى أنّ هذين التافهين لا يناسباني، فرميتماهما في النفايات. وفكّرتما بالبحث عن شابّ أفضل، واحد من آل سفورسا دفعة واحدة! وماذا تريدين أفضل من ذلك؟ تجبراني على قبوله رغم أنّي لا أحبه. أسلّم أمري وأبذل قصارى جهدي لأتأقلم معه وأبادله المحبّة. نعيش معًا أربع سنوات. ولولا شدّة هيامه بي لما استطعتُ تقبّله. ثمّ يرتأي والدي، بمشورتك، بأنّه لم يعد يناسبني؛ فترغمانه على توقيع وثيقة يصرّح فيها بأنّنا لم نمارس الحبّ إطلاقًا. وبعد ذلك، أجد فارس أحلامي أخيرًا. لكنّي أكتشف أنّكما خطّطتما مسبقًا لكلّ شيء، لتضيع فضائل الصدفة سدىً. بالمحصّلة، أرغمتماني على أداء دور معيّن في مسرحيّة سخيفة، وكلّ هذا لصالح صفقاتكما!»

«لقد سئمت منكِ! عذرًا، ليس لديّ وقت أهدره على شكواكِ. سنلتقي بعد أن تهدأي قليلًا. وداعًا!».

ينصرف شيزاري. ويعود ألفونسو بعد قليل، يجلس بجانب خطيبته، ويقول بعد صمت طويل: «اعذريني على الإهانة. لقد ظلمتكِ».

«لا عليك، هذا حقّك. يا لهما من وغدين... يستغلان أيّ إنسان كأنّه حذاء مستعمل».

«والآن؟ كيف نتصرّف؟». يضيف من دون أن ينتظر إجابة: «لم أعد أحتمل العيش من دونكِ. إنّي متيّمٌ بكِ».

«وأنا أيضًا. إنّي أعشقك. بتَّ ترافق كلّ لحظات حياتي، أشعر بوجودك مع أنّك لست بقربي. عندما أنام، وعندما أمشي في الشارع، وعندما آكل. إنّي آكلك وأدَعُك تأكلني».

«كم تعجبني فكرة أن أكون طعامك وأنتِ طعامي. فلنبق معًا إذًا، وليحتمِ أحدنا بالآخر».

«ولكن حذارِ. لقد تعلّمت ألّا أثق بهما، مع أنّهما أخي وأبي. تكفيني تلك اللعبة الوضيعة التي لعبها في مجلس الكرادلة، ذاك الذي يُدعى قداسة البابا. سمعته بأذنيّ هاتين يقترح على الأساقفة هدمَ صروح الفساد التي تعربد في مطابخ الفاتيكان. سبّب صدمة للجميع، بل وأمر ثلّة من الحكماء الشرفاء بمباشرة التنفيذ. ثمّ حين فطن إلى احتمال نشوب حربٍ شعواء بين فرقاء السلطة، نزع عنه جلد الأسد فورًا وارتدى جلد الحرباء المقزِّز. لطالما كان تغيير المواقف السريع ميزة تحتكرها هذه الأسرة الضالّة. حتّى أخي، بالتزامن مع

أبي، خلع عن نفسه رداء الكرادلة القرمزيّ. رمى قبعة القسّ وارتدى درعًا منيعًا وخوذة وجزمة، وأشهَرَ سيف الأمير المحارب».

«وكلّ هذا في سبيل صفقاته القذرة... بالتأكيد، لا يسعنا إلّا أن نخلد لنومٍ قرير. اعذريني إن كنت فظًّا؛ لكنّي كمن وُلِد في وكرٍ لمخلوقاتٍ مرعبة، يعتبر نفسه في عداد الموتى ما إن يعارض مشاريعهم».

«معك حقّ. وإن وافقنا على مشاريعهم قد نصبح ألعوبة بين أيديهم إلى الأبد».

يتعانقان ويهمسان بصوت واحد تقريبًا: «أتمنّى ألّا ينتهي هذا الحبّ يومًا».

لعبة المبادلات

في الأوّل من أكتوبر عام 1498 يتجه شيزاري بورجا إلى باريس. كان يجهل هذه المدينة تمامًا، لكنّه بدأ يعشقها حين تعلّم اللغة الفرنسيّة التي يتقنها بطلاقة وجدارة، كما رأينا في رحلته إلى نابولي للقاء الملك شارل الثامن. ولكن، ما الذي ذهب ليفعله في تلك المدينة البعيدة كلّ البعد عن أصوله؟ لقد ذهب ليطلب يد شارلوت أراغون، دفعة واحدة، وهي التي ليس من قبيل الصدفة أنّها قريبة ألفونسو الذي بات زوجًا للوكريسيا، وابنة فدريكو عاهل نابولي. ليست تتمّة لقصة حبّ سعيدة، بقدر ما هي صفقة محض سياسيّة. فالزواج من إحدى بنات أراغون، سيمكّن شيزاري من ارتقاء السلّم نحو تاج نابولي.

لكنّ اللقاء يجري على غير المتوقّع. إذ تصرخ العروس الموعودة بوجه الوسيط مستاءة، حين يقترح عليها ذلك الزواج: «ماذا؟! تقترح عليّ أن أنتهي في سرير قذرٍ كهذا؟ مجرم محترف يستحقّ أشنع منصّات الإعدام. هل نسيت بأنّه ابن زنى، اتّخذ قريبتي عشيقة له، ليخطفها من زوجها، وزوجها هو أخوه الأصغر؟ هل تريد منّي أن أذهب إلى عرس ذلك الدنيء الذي سيأخذني إلى السرير ليتمتّع بمحاسني، ثمّ يذبحني في الصباح مثل المرزبان[1] السفّاح في «ألف ليلة وليلة»؟»

جاء الرفض صاعقًا، ولا رجعة عنه؛ لكنّ شيزاري لا يعبأ كثيرًا. وكما يُقال، المشهد الحاسم مثل الريح التي تدفع السفن، تهبّ عليك العاصفة فتغيّر مسارك بكلّ بساطة. فماذا يفعل شيزاري إذا خسر الملكة في لعبة الشطرنج؟ يستبدلها بغيرها على الفور. رفضتْه النابوليّة، لا بأس، ثمّة فتاة فرنسيّة جميلة من الطبقة النبيلة، شارلوت أخرى، تُدعى شارلوت ألبير، شقيقة ملك نافارا. توافق على طلبه، فيؤيّدها أبوها. هنيئًا للعروسين إذًا!

لاقت نقلة البيادق هذه استحسان ملك فرنسا، لويس الثاني عشر الذي سيفيد من هذا المعروف الذي أسداه لابن البابا المفضَّل، ليحظى بدعمه - أقصد دعم البابا - بخصوص فسخ عقد زواجه. فالملك كان قد تزوّج، عن سوء خاطر، من جان دو فالوا، المختلّة عقليًا. ووحده الحبر الأعظم قادرٌ على إبطال زواجه بها. زدْ على

(1) المرزبان: لقبٌ أطلقه العرب على ملوك الفرس، والمقصود به هنا شهريار السفّاح الذي أدمن على كره النساء وقتلهنّ. [المترجم].

هذا أنّ الملك يودّ الحصول على موافقة الفاتيكان لتنفيذ مشروعه الموعود في الاستيلاء على مملكة نابولي. ولا بدّ أن يفتح مدينة ميلانو أوّلًا. لذا نصّب شيزاري ملازمًا، ما يعني أنّه أصبح يشارك الملك في قيادة جيشٍ جبّار لفتح ميلانو ومدن مهمّة أخرى في مقاطعة رومانيا كذلك.

يفتح ميلانو، ثمّ يتحرّك جنوبًا إلى رومانيا.

بعد عدّة أشهر، في السادس والعشرين من فبراير عام 1500، يدخل شيزاري إلى روما كقائد مظفّر. يهيّئ له البابا احتفالًا يليق بالأباطرة، ويعيّنه حامل لواء الكنيسة. لكنّ الاستقبال الأكثر حفاوة وحماسةً يتلقّاه من أهالي روما؛ من الموظّفين في الإدارة العامة على وجه الخصوص، أكثر المتعصّبين والمؤيّدين لانتصارات ابن البابا. كان الإقطاعيّون في مقاطعة رومانيا يشكّلون عبئًا كبيرًا على الدولة البابويّة، لأنّهم ناقمون وغدّارون؛ إذ رفضوا منذ سنوات دفع الضرائب المستحقّة لحكومة روما، فاضطرّت الأخيرة لمصّ دماء الشعب في المدينة الخالدة، وخصوصًا الموظفين الذين انقطعت رواتبهم منذ أشهر. فكان انتصار بورجا، بالنسبة إليهم، يبشّر بعودة سريعة لرواتبهم المنقطعة.

عندما استقبل قداسةُ البابا ابنَه شيزاري، اضطرّ إلى عدم إظهار سعادته وفخره به بعد أن نال احترام الجميع. لكنّه عانقه بحرارة، حين بقيا على انفراد في القصر أخيرًا، حتّى كاد يقطع أنفاسه. وبينما كان الخدم يقدّمون الغداء للمدعوّين - الأب وابنه فقط - هتف ألكسندر السادس معبّرًا بالكاتالونيّة: «قصّ عليّ كلّ تفاصيل انتصارك يا بنيّ!».

«دعني ألتقط أنفاسي يا والدي، فأنا أيضًا متأثّر بهذا الاستقبال الحافل».

«حسنًا، التقط أنفاسك ثمّ قصّ عليّ. من البدء... منذ أن عيّنك الملك ذراعه اليمنى».

أزاح شيزاري أدوات الطعام ليفسح مجالًا للغة يديه في قصّ مغامراته: «حسنًا، دعني أقول لك أوّلًا يا والدي، إنّ فتح ميلانو، في الحملة الأولى، لم يكن سوى حقل تجارب، بالنسبة إليّ. أعرف تلك المدينة كراحة يدي مذ أوفدتني إليها أنت لتحضير زفاف لوكريسيا بجوفاني سفورسا، ذلك الجبان الرعديد الذي أصبنا حين كنسناه بعيدًا. وحين سألني الملك لويس عن كيفيّة سحق لودوفيكو الأسمر وجيوشه، أجبته متوخّيًا الحذر من المبالغة: «ما من شيء أسهل من حصار هذه المدينة». فسألني: «باعتمادنا على ماذا؟». فأجبتُه: «باعتمادنا على ما حقّقه دوق ميلانو نفسه لنا، إذ لطالما تصرّف بطريقةٍ غبيّة، جعلتْه يفقد ثقة شعبه في وقت قياسيّ، حتّى باتوا يحلمون بالتخلّص منه ومن حاشية بلاطه بضربة واحدة». انصدم الملك بشدّة وسألني: «لماذا؟ ماذا فعل هذا الأخرق المستهتر؟». قلت له: «بسيطة. لقد فكّر في مصالحه فقط. لم يراعِ مصالحِ شعبه ولو شكليًا». تمامًا عكس ما علّمتني مرارًا يا والدي: من يوفّق بين تنمية مصالحه والقليل من مصالح شعبه، يقع دومًا على قدميه، وسيعبده الشعب. بدءًا من المعدَمين وصولًا إلى الكبار».

«أجل يا بنيّ. ولكن إيّاك أن تبالغ، خصوصًا مع الكبار؛ فإنّهم إذا استشعروا ليونتك سرقوا ثيابك. ولا ينبغي بالملك أبدًا أن يظهر بسراويله!».

«أوافقك الرأي. بالعودة إلى حواري مع ملك فرنسا، ذكّرته بأنّ لودوفيكو الأسمر بالغ بوعوده: «أيها الميلانيّون!»، كان يشطح بمخاطبتهم. «يا شعبي العزيز! الآن وقد بايعتموني دوقًا عليكم، أعدكم بأنّي سأعيد إعمار المدينة، سأنظّف الساحة من المستغلّين وأطماع المصارف التي لم تعد تتعامل بالقروض بل بالربا. سأباشر بالقنوات والأنهار، وسأرمّم شبكة صرف الفضلات، إذ إنّ ليوناردو دافنشي حذّرني على الملأ بأنّ المجاري تعجّ بالجرذان التي تدخل كلّ مكان، حتّى الكنيسة أثناء الأعراس». وحينها ختمتُ كلامي: «سيكفيكم يا جلالة الملك أن تقتربوا من أسوار باب روما، لتُفتح لكم باقي الأبواب على مصراعيها، وسترون كيف يستقبلكم الشعب بالورود».

«وكيف تعامل الملك مع هذه التنبؤات؟».

«في البدء بدا لي شكّاكًا، لكنّه حين رأى المجريات، أقرّ بصواب ما تنبّأ به الملازم. وعندما دخلنا ميلانو، أراد أن أبقى بجواره دومًا؛ وشبكني بذراعه، كما تفعل أنت حين تتذكّر أنّي ابنك».

يضحك البابا ثمّ يضيف: «لا تشرد! وصلنا إلى انطلاقك مع الجيوش نحو مقاطعة رومانيا. حدّثني!».

«ما أسهل الكلام! اتجهنا إلى مدينة إيمولا ومدينة فورلي، حيث فوجئ جيشنا بمقاومة باسلة، وتعرّضنا لهجمة مباغتة عنيفة من جانب الكتائب المحليّة التي تقودها أنثى، يا إلهي، تُدعى كاترينا سفورسا، امرأةٌ وهبها الربّ قلبًا شجاعًا وشخصيّة فذّة. تصوّرْ أنها استطاعت أن توقظ في رعيّتها إحساسًا بالعزّة يليق بانتماءٍ أصيلٍ إلى سلالة محاربة. كم كانت عنيدة! وكم كان من الشاقّ إقناعها بالاستسلام، ومن ثمّ القبض عليها وأسرها!».

نحن في السادس والعشرين من شهر يونيو، وحرارة الصيف مرتفعة. يتلقّى ألكسندر السادس نذير شؤم، آتٍ من الأعلى تمامًا. إذ تنفصل إحدى النجفات الضخمة عن سقف الصالة الكبرى وتسقط عموديًا على عرش البابا[1] الذي نهض للتوّ ليحمل عن الأرض عملة ذهبية صغيرة كانت قد وقعت من يده. ينتابه الفزع حين يدرك أنّه ما زال حيًّا بفضل ملليمترات قليلة... وبفضل عملة نقديّة أيضًا.

لكنّ هذا نذير بسيط مقارنة بما تلقّاه في اليوم التالي. كان يومًا اعتياديًا، من تلك الأيام التي نادرًا ما يتغيّب فيها شيزاري. يكاد ألكسندر السادس أن يباشر الجلسة في صالة البابوات، فإذا بصاعقةٍ تزمجر في السماء وتزلزل رعودُها الأرضَ. بعد صمت قصير، تهبّ عاصفة توحي بيوم الحساب. تتبعها قرقعةٌ متلاحقةٌ لشروخٍ مجهولة المصدر، ويتلوها انهيار مباغت للدعائم التي تسند السقف. تتساقط الأوتاد والأعمدة واحدًا تلو الآخر. ثمّة كاردينالان يرميان نفسيهما من إحدى النوافذ في محاولة يائسة للنجاة. ألكسندر السادس لا يبرح مكانه، يظلّ جالسًا على أريكته تحت السرادق الذي يهبط فوق رأسه[2].

انتشر خبر الكارثة في المدينة كلّها بسرعة البرق. يعمّ النواح والعويل: «لقد مات! مات البابا تحت الأنقاض!». يشمّر بعض

---

(1) R. Gervaso, *op. cit*. [المؤلّف].

(2) M. Johnson, *op. cit.*, p. 133. [المؤلف].

الرجال عن سواعدهم لاستخراج الجثّة التي لا بدّ أنّها هناك. فإذا بالمفاجأة تصعق أبصارهم: يجدون البابا جالسًا على أريكته، تحت الأقواس والدعائم المتكسّرة. يجدونه فاقدًا وعيه، لكنّه لا يزال على قيد الحياة.

لا أحد يشرف على راحته، بجوار السرير، ما عدا ابنته. لقد أمر شخصيًا أن تتولّى لوكريسيا رعايته من دون الآخرين.

في ليلة الخامس عشر من يوليو 1500 يبدو أنّ السكينة تحيط بكلّ شيء. يصعد ألفونسو آخر درجة من سلالم مدخل الباحة المطوّقة بالأقواس في الفاتيكان، فإذا بنفر من الملثّمين يعترضون طريقه، يُشهرون خناجرهم الطويلة، ويهاجمونه. يقفز الشابّ نحو الخلف متفاديًا الضربة؛ لكنّه لا ينتبه إلى سيفٍ يضرب ذراعه من الجهة الأخرى، فيفقد توازنه. كان ضوء الفوانيس ينير أوجه الأقواس أو يكاد، نحو الحادية عشرة ليلًا. يراوغه أحد الملثّمين ويسدّد ضربة قويّة على رقبته.

ثمّة رجلٌ على بعد خطوات يشاهد الكمين، لكنّه يلتزم الصمت، لا يتدخّل ولا يُطلق أيّ إنذار. يختفي. ما زال ألفونسو يحاول الهرب، وهو يرفس أقرب القتلة الذي يوغل سكّينه في ساقه فيوقعه أرضًا. ينتبه القتلة الثلاثة إلى وصول فرقة من الحرس، فيلوذون بالفرار. يصعد الحرس السلالم، وينحني اثنان منهم على المغدور الذي ما زال يتنفّس. يحمله أربعة رجال وينقلونه إلى مدخل الكنيسة حيث مكتب الحراسة. يتعرّف القائد على الشاب ويصرخ: «يا إلهي! إنّه صهر قداسة البابا!».

يحمله الرجال الأربعة إلى أجنحة الفاتيكان الداخليّة حيث تسكن لوكريسيا بورجا. تخرج السيّدة إلى المسعفين. وحين تدرك أنّ المحمولَ على الأكتاف زوجُها، وينزف كميّة كبيرة من الدماء، تسقط على الأرض ويُغمى عليها. يأتون بطبيب يضمّد جراح المعتدى عليه ويعلّق: «لحسن الحظ أنّ ضربات النصل لم تخدش أجهزته الحيويّة. لسوء الحظ أنّه نزف كثيرًا. نتمنّى له النجاة. فلننتقل إلى مولاتي الآن».

يضعون تحت أنفها أملاحًا ثاقبة الرائحة، فتستعيد وعيها. يعاين الطبيب نبضها ويصرّح: «لقد أصيبت بحمًّى شديدة، بسبب الهلع حتمًا».

غالبًا ما يسطع القمر الأسود مرّتين

ثمّة فرقتان من الحرس، في ممرّ جناح لوكريسيا، تتناوبان على الحراسة منذ الفجر بلا انقطاع. في اليوم التالي، يخرج الطبيب من الغرفة حيث يوجد ألفونسو الجريح، ترافقه لوكريسيا وهي تحمل طفلًا بين ذراعيها.

«كيف حال طفلك يا مولاتي؟ يا لجماله، يبدو من أولئك الأطفال المرسومين حول العذراء المرتقية إلى السماء».

تقبّل لوكريسيا طفلها وتعلّق: «إنّه الفرد الوحيد الذي لا يزال بخير في العائلة».

يسألها الطبيب: «كم عمره؟».

«لقد وُلد منذ تسعة أشهر».

«ياه، تهانينا إذًا! يبدو أنّه مولود منذ عام على الأقلّ. اعذريني، مولاتي، إن كنت أتدخّل في ما لا يخصّني، هل لديكم شكوك حول مدبّر محاولة الاغتيال؟».

«لقد جاء هذا الصباح اثنان ممّن يسمّون أنفسهم قضاة، أرسلهما والدي. فتحوا تحقيقًا بالطبع. وطوال الصباح لم أفعل شيئًا سوى الإجابة على أسئلتهما. دعني أطلعك على سرٍّ شرط أن يبقى بيننا: تولّد لديّ انطباع بأنّهما على علمٍ مسبقٍ بالاغتيال الفاشل، ورغم هذا يتظاهران باستجوابي».

«ربّما لا تذكرينني يا مولاتي، إذ كنتِ تحت هول الصدمة. أنا الطبيب نفسه الذي هرع لإسعافك حين فقدتِ طفلك الأول».

«آه، اعذرني حقًّا! للأسف كنت فاقدة رشدي كليًّا في تلك اللحظة».

«ما زلت أذكر... لقد تعثّرتِ على السلالم، ففقدتِ الطفل الأوّل. عمليّة إجهاض بعد ثلاثة أشهر فقط. كنت يائسة جدًا. ولكنّك استعدتِ ألقك بسرعة لافتة يا مولاتي، وهذا ما أسعدني كثيرًا. حتى إنّك قلت لي بسعادة: «إنّي حامل مرّة أخرى، أيّها الطبيب!»».

«لكنّ فرحتي لم تدم طويلًا، لأنّ زوجي كان مضطرًا للهرب حينذاك، وقد أقنعه بذلك أحد الكرادلة المقرّبين من والدي».

«المعذرة مولاتي. لا أرغب بالإلحاح، ولكنّي سمعت أخبارًا متناقضة حول هذه القصة. فما الحقيقة إذًا؟».

«الحقيقة كانت دومًا في يد شقيقي. الكاردينال، الذي بوسعي كشف اسمه، ويدعى آشانو سفورسا، جاء إلى زوجي ألفونسو

وحذّره: «أنت في خطر كبير يا صديقي العزيز. أحد أفراد عائلتك الجديدة ينوي سحقك. اسمعني جيدًا، والتجئ إلى مكان أكثر أمانًا»، فردّ عليه ألفونسو: «ليس لديّ أماكن ألجأ إليها». «فاذهب إلى ناحية جيناتسانو، التي أديرها، فهي حصن منيع. هناك لن يجرؤ أحد على المساس بك، نظرًا إلى عدد المجنّدين فيها». وهكذا، بين عشيّة وضحاها، وجدتُ نفسي، أوشك على ولادة ابني، وأنا وحيدة تمامًا. بكيتُ أيّامًا بلياليها. ولحسن الحظ لم يتأثّر الجنين بذلك».

«ولم تلتقي بزوجك طوال فترة الحمل؟».

«أبدًا».

«عذرًا على الإلحاح يا مولاتي... لماذا ينوي شقيقك قتل زوجك بعدما فعل المستحيل كي يزوّجك به؟».

«أعلم أنّ الأمر يبدو لك مريبًا، ولكنّ الرجال في آل بورجا معتادون على تغيير خططهم بعد البدء بتنفيذها، ويجدون هذا الأمر طبيعيًا. وطالما أنّ الاغتيال أسرع وسيلة فعّالة لتحقيق تلك الغاية، غالبًا ما يلجأون إليه لحلّ مشكلاتهم. زواجي، في هذه الحالة، لم يكن الغاية الأخيرة، بل الوسيطة. فشقيقي كان يرى من الضرورة بمكانٍ أن يُخضِع نابولي تحت جناحه، عن طريق المصاهرة. يستخدمني لتمهيد الطريق التي تفضي به إلى السلطة، ثمّ يظهر بنفسه، بنيّة الزواج من قريبة زوجي، وهكذا يتربّع على عرش نابولي. إلا أنّ شارلوت أراغون، كما يعلم الجميع، رفضت شيزاري باحتقار».

«آه! فهمتُ الآن! - هتف الطبيب - حين ضيّع فرصة الوصول إلى عرش نابولي، لم يعد يجد فائدة من زواجك بأراغون الشابّ».

«أحسنت، هكذا تمامًا. لذا لا بدّ أن يتخلّص من زوجي في أقرب قبرٍ ممكن».

«القبر... هذا هو سبب محاولة الاغتيال إذًا. لحسن الحظ أنّها فشلت».

«أجل، لكنّي أخشى أن يحاولوا مرّة أخرى».

«هل يُعقل ذلك؟ من الواضح أنّ والدك، قداسة البابا، حريصٌ على حمايتك يا مولاتي. فكتائب الحرس تقف عند كلّ زاوية من هذا الجناح».

«أجل، لكنّ هذا لا يكفي. حتّى لو توعّد البابا بالقصاص مِن كلّ مَن تسوّل له نفسه الاعتداء علينا، ينبغي أن نتوخّى الحذر دومًا، فنحن نعرف شيزاري حقّ المعرفة».

وفعلًا، في الشهر التالي، هاجم المستبدّ الرهيب، وبعض زبانيته، البيت التي لجأت إليه لوكريسيا وقريبتها للعناية بالشابّ المصاب. طردوا المرأتين خارج الغرفة بهمجيّة، ثمّ دخل القائد ميغيل دي كوريلا، المعروف بـميكيلوتو، يد شيزاري الضاربة، دخل إلى غرفة ألفونسو وأرداه قتيلًا في لحظة واحدة.

وكما يحدث في المسرحيّات المرتجلة على الطريقة الإيطاليّة، تبدأ رقصة الأقنعة. إذ يشارك كلّ ممثل بأداء دوره ودور خصومه أيضًا. أعرب البابا في البدء عن استيائه، ثمّ غضّ الطرف ووعظ بالسلام. أقسم الشقيق السفّاح بأنّه لم يُقدِم على الجريمة، إنّما دافع عن نفسه فحسب، فالمغدور كان قد تجرّأ على توعّده بل وحاول اغتياله بسهامٍ بعيدة المدى. لكنّ الأدهى من ذلك كلّه، أنّ أحدًا لم

يحرّك ساكنًا حيال هذا الاغتيال الفظيع الذي قد يفجّر غضب شعب بأكمله. فها هي روما، في أوج الحركة الإنسانويّة، تغرق في سائلٍ زئبقيٍّ لزجٍ، يفرّغ الأشياء من وزنها ومعناها: النسيان.

تعي لوكريسيا تداعيات ذلك على المستوى الشخصيّ. إذ كان أصدقاؤها في السابق يدعونها إلى كلّ المناسبات؛ أمّا بعد تلك الحادثة، باتت تشعر بأنّه غير مرحّبٍ بها، ولا يطيق الآخرون وجودها خاصّة إذا نوّهت إلى الظلم الذي حلّ بها. وكلّما تجنّبوا نكء جراحها ردّت عليهم بكلمات وحركات غير لائقة، حتّى شعرت بأنّها منبوذة يومًا إثر يوم. وكما قال الآرتيني: «النحيب مقبولٌ إذا كانت الأرملة تتمتّع بسيادة فعليّة ومصيريّة على حياة الحاضرين. ولكنّها إذا فقدت جزءًا كبيرًا من نفوذها، أصبح بكاؤها عويلًا مزعجًا لا يُحتمل».

من جهتها، لم تعُد لوكريسيا تطيق حالة النفاق والمجون المتفاقمة في روما الرازحة تحت طغيان الفالنتين[1]. يحثّها والدها على مغادرة المدينة إلى نيبي مع حاشيتها، فتوافق بكلّ سرور، لأنّ نيبي كانت إقطاعًا تحت إمرتها، ناهيك بالهواء العليل والأجواء اللطيفة التي ستناسبها لا محالة. نشأ طفلها سليمًا معافى رغم سوء التغذية، وتعلّق بحنان أمّه الدافئ.

ولكن، إيّاكم والظنّ أنّ البابا وابنه سيتركان لوكريسيا تعيش بهناء

(1) Il Valentino أحد ألقاب شيزاري بورجا الكثيرة، منها: السفّاح، الرهيب، القيصر الظالم، المستبدّ... إلخ. أمّا الفالنتين يبقى محلّ شكوك، إذ يرجّح بعض المؤرّخين نسبته إلى أصوله المنحدرة من مدينة «بلنسية» الإسبانيّة، ويعزوه آخرون إلى اعتلائه دوقيّة «فالنس» الفرنسيّة. لذا آثرنا أن ننقله كما ورد. [المترجم].

أبديّ، منزوية في تلك المدينة الصغيرة كالقصص الخياليّة التي تناسب الأطفال. يشعر ألكسندر السادس بالمسؤوليّة على تحويل ابنته إلى أرملة بائسة ويائسة، تبكي زوجها الشابّ الذي أحبّته أكثر من أيّ شخص آخر في العالم. وبالفعل، يحاول أن يخلّصها من هذه المحنة. فهو يكنّ لها المحبّة، ويريد أن يساعدها لتتخطّى الألم. هذا هو العمق الأخلاقيّ الذي اعتاد عليه الطغاة: يديرون مصالحهم بقسوة وإجرام؛ ويتألّمون إزاء مشاعرهم نحو العائلة مثلما يتألم أيّ كائن بشريّ حقيقيّ.

الشعب من منظورٍ صادق

تعليقًا على تلك الوقائع، نقدّم لكم تحليل ماريون جونسون، وهي باحثة بريطانيّة ذات اطلاع واسع ونظرة ثاقبة، إضافة إلى شراسةٍ يمتاز بها الأنغلوساكسونيّون؛ تروي لنا الحياة في بلدنا إبّان عصر النهضة: «لطالما تعرّضت الأوضاع في إيطاليا لانتقاداتٍ لاذعة على امتداد القرن الخامس عشر. ورغم ذلك، فإنّ الحكماء في هذا البلد - حيث العباقرة كانوا متفوّقين على أقرانهم في باقي أوروبا؛ وحيث دراسة التاريخ مقرّرة في المنهاج العلميّ منذ القِدَم - كانوا يدركون جيّدًا أنّ المشكلة تكمن في الداخل، ولا بدّ من البحث عنها في حياة الناس». («الناس»: الرعيّة). «لم يكن ما أقدم ألكسندر السادس وابنه على تحقيقه سوى نتيجة منطقيّة ينشدها كلّ الساسة في إدارة مصالحهم الشخصيّة. كانت وسائلهما وغاياتهما مقبولة بالمجمل، وذلك لاستنادها إلى ركيزة أصيلة في فنّ السياسة

الإيطاليّ، الذي تلخّصه المقولة الإيطاليّة الشهيرة: «عش ودع الآخرين يعيشون حياتهم». شيّدت الدولُ المستقلة في إيطاليا، على مدى قرون طويلة، حلبة مصارعة تُجيز أيّ حيلة في سبيل الفوز، وتتيح الفرصة لأيّ رجلٍ موهوب، ذي بأس ومتعطّش للمجد، في أن يجرّب كلّ الوسائل المتاحة. وهكذا قدّم الملوك الإيطاليّون نماذج عن الدهاء والحكمة وتعدّد المواهب والولع بالفنون لا يضاهيهم فيها أيّ ملك أو أمير من بلدان الشمال الشاحبة؛ وقدّموا في المقابل مثالًا عن المكر والغدر والبطش والانحلال، لأسبابٍ من الصعب أن يفهمها أهالي المناطق الباردة والمحافِظة[1]».

تصفية الحسابات... والامتيازات أيضًا

وللتأكيد على ما قالته ماريون جونسون، نقدّم لكم ما جاء في إحدى الرسائل التي وجّهها الحبر الأعظم إلى كلّ الأسياد الإقطاعيّين في سائر مملكة الكنيسة؛ إذ يصرّح ألكسندر السادس بعزلهم جميعًا عن الإقطاعات التي يديرونها. بل ويفرض عليهم الحرمان الكنسي؛ معللًا قراره بانقطاعهم عن دفع الضرائب التي ألزمتهم بها الدولة البابويّة. يطمئنّ شيزاري حينذاك، «يتغذّى زبدة وأنشوجة» كما يُقال في مقاطعة رومانيا. والدليل أنّه استطاع، بسرعة وسهولة، أن يخلع كونت مدينة بيزارو، ويطيح بآل مالاتيستا في ريميني، ويُخضِع آل مونتيفلترو في أربينو، ويقهر آل مانفريدي في فاينتسا، ويذلّ آل فارانو في كامرينو. خلاصة القول إنّه أحكم قبضته

(1) *Ibidem*. [المؤلّف].

على المقاطعة بأكملها، بما فيها من قلاع وحصون عدّة. يسود الذهولُ إيطاليا، ومعظم أنحاء أوروبا، جرّاء ما أقدم عليه الجزّار. يُلهب هذا النجاحُ حماسَة ماكيافيللي، فيبشّر بإمكانيّة نشوء دولة واحدةٍ موحّدة في إيطاليا، بناءً على ما وقع في مقاطعة رومانيا. من هنا جاء إهداء رسالته في العلوم السياسيّة؛ «الأمير»، إلى شيزاري.

كلّ الطرق، حتّى أكثرها وعورة، تؤدّي إلى روما

في تلك الأيّام تحديدًا، يطلب البابا لقاءً مع ابنته، التي انتقلت كليًا إلى نيبي، فتردّ عليه: «متأسفة، لا أودّ المجيء إلى روما، لا سيّما أنّي أشعر بالاشمئزاز من أيّ صدفة محتملة - كما جرت العادة - مع أخي الفالنتين، الذي يلقّبه الجميع بالسفّاح».

يأتي ردّ البابا سريعًا، ما يضطّر ساعي البريد إلى تبديل حصانين لإيصال هذه الرسالة، والتي فحواها: «لوكريسيا، أعرف أنّك لا تثقين بوعدي، لكنّي أفعل المستحيل لإظهار ما أكنّ لك من مودّة خالصة. ونظرًا لصعوبة تحقيق مرادي وتعقيداته، لا بدّ أن تساعديني مباشرة. لا نستطيع النقاش عبر الرسائل وحَمَلَتها. تعالي إليّ في أقرب وقت، أرجوك. أمّا عن شقيقك، أؤكد لك أنّك لن ترينه طوال إقامتك عندي. فهو منشغل جدًا في رومانيا ولن يستطيع التغيّب عن شؤون تلك المقاطعة».

وها هي لوكريسيا في روما، بعد أيّام قليلة. لكنّها لا تنزل في القصر الذي سكنت فيه مع زوجها، بل في بيت فارنيزي، ضيفة عند صديقتها جوليا. ترفض حتّى أن تقابل والدها في الفاتيكان. فكم من الذكريات الأليمة تمنعها من العودة إلى ذلك المكان. تلمع في ذهن

البابا فكرة عبقرية حقًا. في تلك الآونة، عاد الاهتمام في روما إلى القصور الذهبيّة الشهيرة التي شيّدها أبرز الأباطرة الرومان. تذكّر ألكسندر السادس كم أعجبت ابنته بالاكتشافات الأولى لـ«دوموس أورا»، القصر الذي بناه الامبراطور نيرون؛ فدعاها إلى هناك لزيارة آخر ما توصّل إليه الاستكشاف، وبالطبع منع دخول المولعين بالفن. سيكونان على انفراد ولن يزعجهما أحد. توافق لوكريسيا فيلتقيان قبالة صخرة منحوتة بالكائنات الميثولوجيّة والحوريّات الراقصة.

يجلسان على مقعد مريح؛ ويبدأ الحوار بعد عناق فاتر، إذ يبادر البابا بالكلام:

«يا ابنتي، عليّ أن أعترف أولًا بأنّ ما حصل أمدّ آل بورجا بامتيازات كبيرة. لنا جميعًا، ما عداكِ أنتِ يا لوكريسيا. شاءت الأقدار أن تدفعي بمفردكِ ثمن مكرنا الطائش الملطّخ بالدماء».

«وأخيرًا يا أبي، أسمع منك كلامًا صادقًا. سوى أنك نسيت ذكر مَن ارتكب تلك الشنائع التي توجّب عليّ وحدي أن أكابدها».

«لا، لست لوحدك يا ابنتي. أعترف بأنّي أخطأتُ بالتأكيد، وقد عانيتُ بدوري من العواقب. فكّرتُ أيضًا أن أمحوَ شيزاري من حياتنا. ولكنّي توجّستُ بأنّه، إذا تركناه فريسة لنفسه، قد يرتكب هذا الابن الضال جرائم لا تقلّ شناعة عن سابقاتها، وقد يقضي على نفسه ويجرّنا معه إلى مهالك الخزي والعار نحن أيضًا».

«حقًا. وبانتظار أن يصبح الوحش حملًا وديعًا، أظلّ أنا في نظر الجميع عاهرة فتّانة لا ترى ضيرًا في مقتل أزواجها الذين يعشقونها، حين لا يلائم الزواجُ بهم صفقاتِ العائلة».

«تمامًا - يهتف البابا - هذا لبّ الموضوع. أنا، كمسؤول عن الافتراء بحقّك، سأبذل قصارى جهدي كي يكلّل الشرفُ ابنتي مرّة أخرى».

«وكيف ستفلح في هذا؟».

«اسمحي لي بسؤال يا لوكريسيا: ما المدينة التي تعرفينها وتحبّينها جدًا في إيطاليا؟».

«يا لك من ماكر يا والدي. تطرح سؤالًا تعرف إجابته مسبقًا. لقد أجبتك في مناسبة سابقة. إنّه المكان الذي قضّيت فيه أيّامًا لا تنسى، اسمه فيرارا».

«أحسنت. ولماذا تفضّلينها عن الأخريات؟».

«لأنّ أهلها مفعمون بالبشاشة، ويمتلكون إحساسًا عميقًا بـ«المجتمع»، إضافة إلى رغبتهم في حياة مرحة واحترامهم الآخر».

«أوافقك الرأي. وأضيف على ذلك قصورها رائعة البنيان، ونهر البو الذي يمرّ فيها فينشطر ليعانقها كعاشقٍ ولهان. أسواقها المتنوّعة مقصدٌ للناس من شتّى أنحاء القارّة. وفيها جامعة «لو ستديو» العريقة، حيث يدرّس أبرز العلماء ورجال الأدب والشعر».

«أعلم. ولعلّها المدينة الأولى في إيطاليا حيث تُعرض مسرحيات تفوق الخيال. هناك شاهدتُ مسرحيّة كوميديّة باللغة العاميّة وكانت موفّقة جدًا. المعذرة، أتنصحني بالذهاب للعيش في فيرارا، أم أنا مخطئة؟».

«بل أصبتِ».

«وهل بوسعي اختيار الأصدقاء الذين أريد، والعاشق المفضّل، أم سبق واخترت لي العريس كالعادة؟».



هرقل دا إيستي



ألفونسو دا إيستي

«حسنًا، لقد أفحمتِني وحشرتِني في الزاوية كلاعب كرة المضرب المتحايل. يا لي من غبيّ! أوقعتُ بنفسي كلاعب غرّ. مع مَن كنت أظنّ أنّي أتحدث؟ ألم أكن أعرف أنّ ابنتي تعلّمت لعبة الجدل حتى تفوّقت على معلّمها؟ فماذا أقول الآن؟».

«قل الحقيقة فقط. أرجوك ألّا تتحايل عليّ ثمّ تظنّ أنّك فاجأتني بدهائك. كنت أراقبك وأنت تنزل شباك صيدك، وأتابع طريقتك في إحكام الأفخاخ، وأتساءل: تُرى، علام يخطّط هذه المرّة؟ لمن سيقدّمني كي تنجح صفقته؟».

«كلا يا لوكريسيا. لقد أخطأتِ أخيرًا! لا وجود لأيّ صفقات هذه المرّة. والأولويّة الآن هي أن ترتقي إلى مكانة مرموقة تردّ لك الكرامة والاعتبار. وإنّي مستعدّ لضخّ الأموال وإتاحة الإمكانات وتفويض شخصيّات بارزة بحيث يُضطرّ الجميع إلى معاملتك باحترام».

«فهمتُ. لست بحاجة إلى تلميحات أخرى. توضّحت أمامي صورة الرجل الذي ستقترحه عليّ. إنّه ألفونسو ابن الدوق هرقل دا إيستي».

«أجل، هو بعينه!».

«ألا ترى أنّ ألفونسو هو اسم الرجل الذي أحببته حبًّا جمًّا وقتله أحد أفراد عائلتي؟».

«حقًّا، تبًّا لهذه المصادفة! ولكن ما العمل؟ أرجوكِ، فأنا أجد صعوبة في حلّ هذه المسألة. ما أعرفه هو أنّك التقيت بألفونسو هذا سابقًا، هنا في روما، لا أذكر في أيّ مناسبة. كيف بدا لك؟».

«لم أركّز عليه. ولكن على رأي المثل: «إن جئتني بالحبّ هديّةً، فلن أفتّش عن عيوب»».

«هذا المثل يُضرب عن الخيل، في الحقيقة؛ وليس عن الحبّ».

«معك حقّ، ولستُ أنا التي ستمتطي. بل أجد نفسي أؤدّي دور المهرة».

«على أيّ حال، أرجو منك أن تفكّري مليًّا في الموضوع».

في الأيّام نفسها تقريبًا، تزمجر عاصفة في مدينة فيرارا، فتُغلق النوافذ الكبرى من الطابق الأوّل في «قصر الماس» الذي أوشك على الاكتمال، نافذة تلو الأخرى بسرعة فائقة. وذلك منعًا لتسرّب الصياح إلى الشوارع والقصر المواجه حيث يُقام احتفال بزواج.

كان الدوق هرقل دا إيستي ونجله ألفونسو يفجّران عاصفة حادّة من جدالٍ محتدم. يبادر الابن بالهتاف بصوتٍ جهير: «هل تظنّني مغفّلًا أحمق، تلفّني كهديّة ثمّ تبيعني خلسةً لأوّل حقير يمرّ عليك؟».

يردّ هرقل: «حسنًا، من الأفضل أن نتكلّم بشأن آخر إذا كنت تنوي الإساءة!».

«أجل، هذا أفضل. فهكذا يتفادى كلانا تكدير مزاج الآخر».

«أجل، ولكن اسمح لي أن أذكّرك: حين يتعلّق الأمر بشخصٍ ما، فمن المستحسن دومًا أن تعلم عمّن تتحدث، وألّا تكتفي بانطباعك عمّا يشاع عنه».

«وهذا ما فعلتُه يا والدي! لقد استفسرتُ وفوّضتُ رجالًا موثوقين بالاستقصاء وتحضير تقرير شامل عنها. ها هو!». يُخرج ملفًّا ورقيًّا

من الحقيبة التي وضعها على الطاولة. «أكاد أجزم بأنّي أعرف كل شيء عن لوكريسيا الحسناء، منذ أن وُلدت. طوال أعوام، أوكل والدها أحد رجاله ليتظاهر بأنّه زوج أمّها، ودفع له أجرًا كي يتظاهر بأنّه والدها، هي وأشقائها الثلاثة. وحين مات ذلك الوالد الزائف، استبدله الكاردينال بورجا بآخر. وهكذا دواليك، مع تبديل الممثّلين واحدًا تلو الآخر. ثمّ يحين انتخاب الكاردينال حبرًا، فيضطرّ لكشف السرّ على عائلته كلّها - ما عدا الأمّ والعريس الزائف اللذين شاركاه في التمثيليّة - فيخبر أبناءه بأنّه ليس خالهم كما كان يمثّل لأعوام بل والدهم الحقيقيّ. وهكذا تكتشف الفتاة أنّها لم تمارس الفحشاء مع خالها، بل مع أبيها؛ وهذا ما يزيدها كرامة ونبلًا!».

«يا للمصيبة!»، يصرخ هرقل وهو يضرب قبضته على الطاولة. «هل ذهبتَ تستفسر عنها القوّادين في بيوت الدعارة؟».

«طبعًا، طبعًا. إنّها قصة قذرة لدرجة أنّها تبدو خرافيّة لنا، فنحن أناس أعزّاء ومحترمون! ولكن ما رأيك في أنّهم زوّجوها، وهي في الثالثة عشرة عامًا من عمرها، بجوفاني سفورسا البالغ حينذاك أربعة وعشرين عامًا؟ أي إنّه كان في عمري! والمسكينة، عليها أن تنتظر عامًا آخر كي يتمّ الاعتراف بالزواج. قوانيننا لا تسمح بذلك؛ إذ لا يحقّ لك أن تفضّ بكارة طفلة ما لم تبلغ أربعة عشر عامًا! ثمّ يفكّر قداسة البابا بالموضوع ثانية، ويجبر زوجها أن يعترف بعجزه ليترك الفتاة. وهذا بعد أربعة أعوام من علاقة جنسيّة قائمة ومشروعة. تصوّر! هذا يكفي! إياكِ والتذمّر! إلى زبون آخر، هيّا! ثمّ لا يلبث الأخير أن أصبح غير مرغوب به لدى الأب والابن، ناهيك بالروح القدس! هي وحدها التي ترغب به وتعشقه. وماذا نفعل بشجرة

عملاقة تقف عائقًا دون مشاريعنا؟ نقتلعها من جذورها. هكذا! ترمّل لوكريسيا، لكنّها لا تزال سلعة صالحة للعرض؟ ومن هو صاحب الحظّ السعيد هذه المرّة؟ أنا! مجنون القرية! آه وأخيرًا! كم كنت متلهّفًا، يا لسعادتي!».

«رجاء يا ألفونسو، هلّا هدأت قليلًا وأجبتني؟ قلت لي إنّك سبق وعرفت هذه الفتاة لكنّك لم تتحدّث إليها، اقتصر لقاؤكما على تحيّة عابرة. ما يعني أنّك لا تعرف كلامها ولا طباعها، ولا إن كانت فتاة مثقفة أو عديمة الشخصيّة...».

«لست بحاجة إلى ذلك! لقد اكتفيت بالاطلاع على قائمة شهواتها كي أقرّر إن كانت امرأة صالحة للزواج أم لقضاء ليلة هانئة للتمتّع بمفاتنها ليس إلّا! وأنت يا أبي، تخطّط مع مستشاريك ليس لأختلي بها على السرير فحسب، بل لتصبح أمًا لأولادي وأحفادك! هل أقمتَ حسابًا لشعبنا الذي سيهزأ بنا، وأصحاب المصارف والتجّار، ناهيك بالفرسان وقادة الجيش؟».

«طبعًا، طبعًا. لمَ لا تضيف المطربين الجوّالين والمهرّجين وزبائن الحانات المعجبين بك؟ أنا، خلافًا عنك، كرّستُ وقتي لأتعرّف إلى تلك السيدة التي تتكلم عنها كأنّها فاسقة. راستلها ودعوتها إلى لقاء. وتلقّيت رسالة منها، في غضون أيّام، ظننتُ بأنّها ردٌّ على رسالتي، لكنّها كانت قد أرسلتها قبل يوم من كتابتي لها. وماذا قالت لي لوكريسيا؟ قالت إنّها تودّ أن تلتقي بي، خلسة إن أمكن. وهكذا، ذهبتُ شخصيًا للقاء بها في نيبي، أقصى جنوب مقاطعة أمبريا، حرصًا على رغبتها بسريّة اللقاء. وتكلّمتُ معها. طيلة نهار كامل».

«وعمّ تكلّمتما؟».

«في الحقيقة، اكتفيتُ بالإصغاء إليها، إذ شغلت هي الحيّز الأكبر من النقاش. بدأت كلامها بالقول: «اسمح لي، فخامتكم. إنّ مشروع الزواج هذا بلا غاية واضحة، لأنّه بدأ بداية خاطئة، وإن سمحت لي، فأنا تلك البداية الخاطئة»».

«يا لها من عبقريّة!»، يعلّق ألفونسو ساخرًا.

«دعني أكمل. تتابع لوكريسيا كلامها: «يراني الجميع امرأة منحرفة، متشحة بالغموض، لكنّ هذا سبّب لي آلامًا مريرة. مررتُ بظروف جعلتني أفقد الرغبة في العيش. باختصار، اعتكفتُ في دير وقرّرتُ البقاء فيه مدى الحياة. ثمّ اكتشفتُ أنّ الصلاة والاستغفار لا تكفياني لأستعيد توازني. حقدتُ على كلّ أفراد عائلتي. ثمّ وهبني القدر الجميل فرصة اللقاء بشابّ وسيم ذي سبعة عشر عامًا. أنا أكبر منه بعام. أحبّ بعضنا بعضًا حدّ الجنون. وأعتقد أنّ سحرًا من هذا النوع يحصل مرّة واحدة في الحياة وقد يكفيك إلى الأبد». توقفتْ لتنتظر كلامي، فبذلتُ جهدًا في القول: «إنّي مصدوم يا سيّدتي. لم أكن أتوقع أنّي سألتقي بفتاة تمتلك كلّ هذه الصراحة والنزاهة. وبالنسبة إلى ما تفضّلتِ به، فأنا أيضًا محاط بعائلة، همّها الوحيد الانشغال بالأمور المبتذلة والنميمة السوقيّة. من الصعب التحرّك برباطة جأش ضمن أوساطٍ كهذه، فتضيع أعرافنا في مهبّ الريح. القاعدة الراسخة دومًا: - ما امتيازاتك؟ كم في جيبك؟ وكيف تتفادى من يحاول بأيّ طريقة أن يحتال عليك ويسرق منك الصرّة؟». «حقًا. هذا ما أتعرّض له تمامًا، في كلّ المناسبات الجديّة والحاسمة. إنّي هنا أحمل على كاهلي صرّة محشوّة بالخبث

والخداع. سأضرب لكم مثلًا مباشرًا، إذ لا يسعني، وأنا ألتقي برجل نبيلٍ ومثقّف مثل فخامتكم، إلّا أن أكشف بعضًا من خفايا هذه المفاوضات. إنّ قداسة البابا، والدي للمفارقة... يجازف الآن بكلّ شيء كي تقبلني فخامتكم زوجةً لابنكم، فأحصل بذلك على احترام الجميع؛ كيف لا، وفخامتكم قد أظهرتَ جدارة بإدارة مدينةٍ حتّى جعلتَها فتنةً للناظرين!». فقلت: «لقد حرّكتِ مشاعري بكلامك يا عزيزتي لوكريسيا»».

زأر ألفونسو: «إن تابعتَ بهذه النبرة العاطفيّة، سأرمي نفسي على الأرض وأجهش بالبكاء!»، وتظاهر بمسح دموعه بكمّ سترته.

«وفّر سخريتك يا ألفونسو. إن تحلّيت بالصبر واستمعت حتى النهاية، ستمسح عينيك. وفمك أيضًا».

يسكت الشاب فيستعيد أبوه حواره مع لوكريسيا التي تقول:

«وأخيرًا يا سيّدي، لا بدّ أن أكشف لكم عن أشياء أخرى. هذه الصفقة قائمة على الابتزاز».

فسألتُ: «أيّ ابتزاز؟».

فقالت: «أوّلًا، ستوافق على هذا الزواج، أيّها الدوق العزيز، شئت أم أبيت، وإلا تعرّضتَ لمشكلات جمّة».

«ما المقصود؟».

«كأنْ تستيقظ على تعليق العقد، الذي يسمح لك بحكم دوقيّة فيرارا، حتى أجل غير مسمّى. لا تنس فخامتكم أنّ كلّ شيء منوط بمزاج البابا؛ وفي يده القرار، إن شاء ألغاه، بين عشيّة وضحاها، من دون إنذار، وإن شاء جدّده».

«صحيح. هذا الهاجس يقضّ مضجعي دومًا».

«إن لم أخطئ، لقد توصّلتم لاتفاق مع ملك فرنسا لتزويج ابنكم ألفونسو بدوقة أنغوليم. أليس كذلك؟».

«أجل، في الحقيقة ما زلنا نناقش الأمر، بل إنّ المفاوضات في مرحلة متقدمة».

«للأسف، عليّ أن أعلمكم، يا سيدي العزيز، أنّ مفاوضاتكم قد توقّفت».

«ماذا تقولين؟ ما الذي حدث؟».

«هذه التبدّلات لا تفوتني، فلطالما عانيتُ منها. تغيّرت التحالفات منذ بضعة أيام. الملك لويس الفرنسيّ أبرم اتفاقًا مع إسبانيا لاقتسام مملكة نابولي؛ وبات بوسعه الآن التوجّه بجيشه لاحتلالها. ولكن، بما أنّ الطريق من باريس إلى نابولي لا بدّ أن تمرّ بروما، فالملك بحاجة لإذن والدي كي يجتاز الولايات البابويّة. وهكذا، فجأة، لن يزعج الملكُ لويس قداسةَ البابا، ولن ترفض طلبه بإلغاء المفاوضات، بخصوص زواج نجلكم بدوقة أنغوليم، وستقبل فخامتكم بي زوجة لابنكم».

وحينذاك، يتوجّه الدوق إلى ابنه، الذي ارتسم الاستغراب على وجهه؛ ويقول له بكثيرٍ من حسّ الدعابة: «تفضّل، بإمكانك أن تقهقه الآن!».

«كيف؟ هل أقنعتك بكلمات وجيزة، وابتزّتك هي شخصيًا، وحذّرتك من أنّ الحصار يُطبق عليك من كلّ الجوانب، فالأفضل لك أن توافق على كلّ ما يخطّط البابا لصنعه؟!».

«لم تفهم شيئًا حتّى الآن! هل أنت بليدٌ أم عاجزٌ عن قراءة الوقائع؟ لقد أطلعتني لوكريسيا على مخطّط سريّ، أيّها الأحمق. أي إنّها ساعدتنا على مواجهة إلزامات البابا بمرونة أكبر. والآن بفضلها لديّ الوقت لتحضير نفسي والبحث عن مَخرجٍ آمن، أو بالأحرى عن ضمانات تحفظ حقّنا في البقاء حكّامًا على هذه الدوقيّة، فنحافظ على علاقاتنا الطيّبة مع ملك فرنسا ومع الكنيسة على حدٍّ سواء، لمَ لا! شرط أن يدفع لنا حبرنا الأعظم دنانيرَ رنّانةً لتمرير ما يريد!».

تجربة: أنثى تتربّع على عرش البابا

أخرج ألكسندر السادس تمثيليّة حقيقيّة، مُسنِدًا للوكريسيا دورًا فخريًّا عظيمًا، رغبةً منه في التعبير عن مودّته الفائقة لها. لكنّ هذه التمثيليّة تبدو خطيرة من جانب ما، فعلى الخشبة ثمّة أساقفة وكرادلة، من المفترض أن يزكّوها أو يرفضوها، باتوا مشهورين آنذاك بالقضاء على رجال بارزين، عن طريق الخديعة والافتراء. قرّر البابا أن يغادر روما لمدّة شهر تقريبًا، متذرّعًا بالتوجّه إلى جنوب مقاطعة لاتسيو، على رأس جيشٍ كبير. ولم يجد من ينوبه على تصريف الأعمال في حكومة الفاتيكان أفضل صلاحيّةً من لوكريسيا. امرأة تتربّع على عرش البابا: ابنته، علاوة على ذلك! لكم أن تتخيّلوا ما أحدثه هذا القرار في مدينة مثل روما، يسكنها الرومان لحسن الحظّ، وهم الذين يحسَبون أنفسهم مطّلعين على كلّ ما يجري في هذا العالم، وفي الجحيم أيضًا؛ وكم أثار القرار دهشتهم، وفضولهم الممزوج بالدعابة حول التكهّن بنتائجه على وجه الخصوص.

في أوّل انعقاد لمجلس الكرادلة، كان بوسع لوكريسيا أن ترتدي ما تشاء، بدايةً من أردية رثّة ومتواضعة وحتّى أزياء أمسياتها الصارخة. لكنّها قرّرت أن ترتدي ملابس تخالف العادة، رداءً منسوجًا بالذهب الخالص، مزوّقًا بأحجار كريمة برّاقة.

ألقت التحية على رجال الدين الممتعضين منها، وأخرجت من أحد الملفّات بعض الأوارق: «إنّها رسالة». تجاهلت لوكريسيا – أو «راعية الكنيسة» كما سموّها هازئين – الطقوس المعتادة؛ دخلت في الموضوع فورًا، وتكلّمت بنبرة هادئة لها وَقْعٌ ثابت: «منذ بضعة أيّام، في مقاطعة لومبارديا، بين بحيرة لاغو ماجوري وبحيرة كومو تحديدًا، توفّيت امرأة شهيرة في وادي بادانا. ليست من عائلة نبيلة، بل كانت أميّة وتنحدر من أصول قرويّة. هربت في صباها من بيت أهلها، الكائن في بلدة تسمّى كوخ الفقراء، كما يحدث غالبًا، في معظم العائلات على امتداد العالم، إذ كان والدها يعنّفها باستمرار. بل كاد يزهق روحها بضربه المبرّح. ذات يوم، تسبّب عنفه بكسر ذراعها والتهاب عينها؛ فاضطرّت المسكينة إلى السير يومًا كاملًا، هربًا من الموت المحقّق، حتّى بلغت قمة الجبل المقدَّس، وهو مرتَفعٌ يتبع لسلسلة جبال فاريزي. هناك، عند أطراف الغابة، كان الأهالي يعرفون بأنّ ثمّة زاهدة متعبّدة، اشتهرت بمهارتها في تجبير الكسور. ولعلّ من الأفضل أن أقرأ عليكم بقيّة الرسالة التي تقصّ ما جرى لتلك الفتاة البائسة». تُظهر الرسالة: «نقلًا عن لسان مديرة الدير في الجبل المقدَّس: «كانت يدا الراهبة المجبّرة بمثابة معجزة حقيقيّة. قرّرت الفتاة، التي تُدعى جوليانا، البقاء برفقة الراهبة حتّى تتعافى. وعاشت معها في ذلك الدير المهجور منذ زمن. عند مدخل

الدير، ثمّة عربة الهِبات، كتلك التي غالبًا ما نراها عند مداخل الأديرة. إذ يوضع في تلك العربة أعطيات كالطعام والماء، والكساء أيضًا.

ذات صباح، كانت جوليانا كالعادة تفرّغ العربة من البيض والحليب والخبز الطازج، لتقديمه للفقراء الجائعين، فإذا بها تجد طفلًا محشورًا في إحدى تلك السلال. فكّرت الراهبات بمنح الطفل لنسوة القرية كي تتبنّاه إحداهنّ، لكنّهن كنّ ملزماتٍ بإشباع أبنائهنّ أولًا. وبما أنّ النساء في ذلك الوادي لا يمتلكن سوى ثديين؛ تكفّلت جوليانا وسيّدتها بتربية الرضيع، في ذلك الدير المتواضع. فأحبّته الراهبات حبًّا جمًّا، وهنّ اللواتي رعين كلّ البنات الهاربات من الاضطهاد. تضاعفت أعداد طالبي الصدقة، في غمضة عين، فالجميع يعلم ما أكثر المحتاجين حول العالم، وخاصةً أولئك المتوجّهين إلى عربة ذلك الدير. اتّحدت النساء في ما بات يُعرف بـ«جمعيّة راهبات الإغاثة»، وانكفأن على تعلّم إنتاج الطعام والأغطية والملابس، واستدرار الحيوانات، والصيد في البحيرات والأنهار، بل وحتّى تأليف الأهازيج والأدعية التي تخفّف من وطأة الكدح الشاقّ. بلغت شهرةُ المرأتين المؤسِّستين لتلك الجمعيّة أرجاء الوادي والجبال المجاورة، لما تقدّمه من إعانة للمرضى والمعوَّقين. ولم تعد طبيبة واحدة تكفي لسدّ الحاجات، فتطوّعت نساء أخريات للخدمة والطبابة. وكما تعلمون، حين ينجح البسطاء في التضحية والعطاء، تتأذّى مصالح الجِشاع. أجّجت هذه المبادرة نقمة الحاسدين، وخاصةً بعض رجال الدين الذي سرعان ما اتهموا بالهرطقة كلَّ من يسعى لإنجاح تلك الحركة التضامنيّة.

ولحسن الحظّ، تمرّد الفقراء والمستضعفون على تلك العصابة الجائرة، وانضمّ إليهم بعض الأساقفة الأخيار والفرسان ذوي البأس والرأي الحصيف. فاعترفت السلطات بذلك الدير، لا سيّما البابا سكستوس الرابع، واستطاعت الجمعيّة الاستمرار في ممارسة أعمالها وازدادت نشاطاتها.

منذ بضعة أيام، توفّيت جوليانا، التي يسمّيها الجميع «المرأة الصالحة». لا أعلم أيّ سماءٍ تستضيف روحها الطيبة؛ ولكنّي أطلب منكم، أيّها الرجال المقدّسون في خورية روما، أن تحفظوا ذكراها، وأن تسمحوا للجمعيّة بمواصلة مدّ يد العون لمن يكابد العنف والإجحاف»».

انتهت «البابة» من القراءة، ثمّ نهضت واقترحت: «علينا أن نرسل جوابًا مستعجلًا. سأفوّضكم باقتطاع جزية خاصة تساعد الراهبات في عملهنّ الخيريّ هذا، ومنحهنّ إدارة ذاتيّة مطلقة لمهامهنّ، إضافة إلى مساعدتهنّ في توسيع مجال مبادرتهنّ بلا حدود أو اعتراض. أدعوكم للتصويت».

تمّت الموافقة بالإجماع، ولاقت النتيجة ترحيبًا حارًّا أيضًا.

كان بعض الموفدين من فيرارا جالسين بين الحاضرين في تلك الجلسة. أعرب هؤلاء عن عجبهم من رؤية هذه الأميرة المؤقّتة، محاطة بكرادلة مذهولين ينتظرون أوامرها. وما أثار عجبهم كثيرًا هو كيف استطاعت هذه الشابّة توضيح واجبات الوزراء الكبار، بقراءة رسالة قادمة من جمعيّة خيريّة، تُشرف عليها نساء مؤمنات يتحلّين بإرادة صلبة لفعل الخير. اتضحت نيّة البابا ألكسندر السادس. إذ

استطاع، بهذه الحركة، أن يُظهر موهبة لوكريسيا الخارقة في تولّي زمام حكومة رفيعة كتلك، ناهيك بجمالها الذي لا مثيل له.

سمسارةٌ على نفسها

بينما كانت لوكريسيا تمضي قدمًا في مهمّتها، توجّب عليها أيضًا أن تشارك في الحوار مع موفدي دوق فيرارا، بخصوص الشروط المتعلقة بعقد زواجها. وكان هذا اكتشافًا عظيمًا آخر لعرّاب آل بورجا، والد العروس؛ فقد أثبت هكذا قوّة لوكريسيا وعصاميّتها، مرّة أخرى. لقد رأينا كيف كان الدوق هرقل راغبًا بتحصيل أقصى الفوائد من ذلك الزواج، كما اقترحت عليه العروس نفسها. ورغم أنّ البابا كان ينوي حقًا إنجاح عقد الزواج هذا، فإنّ مطالب الدوق أقلّ ما توصف به أنّها مجحفة. إذ طلب والد العريس مهرًا بقيمة مائتي ألف دوقية، إضافة إلى إعفائه من دفع الجزية الباهظة التي فرضها عليه البابا مقابل السماح له بحكم فيرارا التابعة للفاتيكان. في تلك المفاوضات، لم تكن لوكريسيا تفاوض على استحقاقاتها فحسب، بل انحازت كليًا إلى جانب زوجها القادم ووالده.

تدخّل البابا في نهاية النقاش، ووجد نفسه مُكرهًا على التنازل للدوق عن طلباته. ولكنّنا، نحن المشكّكين، متأكّدون من نجاح ألكسندر السادس في إخراج هذه التمثيليّة، إذ كان همّه الوحيد حينها - في دور التاجر العنيد المرغم على التنازل - أن يبدو مضحيًّا بمصالحه إرضاءً لرغبات ابنته ذات التأثير القويّ. وقد نجح في ذلك بلا شكّ.

في الأول من سبتمبر 1501 يُقام احتفالٌ بالزفاف، في قصر

«الأزاهير الجميلة»، في فيرارا، بغياب العروس طبعًا لأنّها ما زالت في روما تتجهّز لتلك الرحلة التي ستنقلها إلى إقامتها الجديدة. وأخيرًا؛ ستكون حرّة من تسلّط أبيها واستبداد أخيها الذي تشمئزّ حتى من ذكر اسمه.

تمّ الاتفاق شفويًا على عدم حقّ العروس في اصطحاب ابنها رودريغو، الذي لم يتجاوز عامه الثاني بعد. لكم أن تتخيّلوا مرارة الألم الذي استبدّ بقلب أمّه.

في 6 يناير 1502، تحرّكت الحاشية، التي جاءت لتقلّ العروس وتقودها إلى فيرارا، من الفاتيكان. بدأ الثلج يتساقط حينذاك. يخبرنا برناردو كوستابيلي، أحد الموفدين من فيرارا، بأنّ «قداسة البابا كان ينتقل من نافذة إلى أخرى وهو يتتبّع، بحرقة قلب، مغادرة ابنته العزيزة، حتى اللحظة الأخيرة».

انطلقت الحاشية بفرسانها ووصيفاتها على الخيول. وامتطت لوكريسيا حصانها أيضًا على طريقة الرجال، وليس كما اعتادت أن تركب، واضعة كلتا ساقيها على جانب واحد من جانبي الدابّة، على الطريقة الأمازونيّة. وكانت ترتدي بنطالًا تركيًا فضفاضًا، كالنساء المسلمات حين يرتحلن على ظهور الخيل والجِمال.

تجتاز قافلة العروس الأميال التي تفصلها عن فيرارا، لكنّها ستتوقف في كثير من المحطات، سواء في الليل أم خلال النهار. وهذا تجنبًا لإرهاق العروس. قد يتوقفون ثلاثة أيّام في كلّ محطة. عند وصولهم إلى فولينيو، تستقبلهم مجموعة من الرجال على خيولٍ تجرّ عربات عملاقة، تتراقص عليها الممثّلات الشابّات اللواتي

يرتدين أقنعة وأزياء توحي بالحوريّات والجنيّات، وآلهة أخرى مثل أبولوس وديونيسيوس، والفضائل الثلاث العاريات، وفولكانوس وفينوس. تؤدّي الشخصيّات أدوارها ببراعة وانسجام مع أهازيج الفرقة الموسيقيّة. ثمّة عدد من البهلوانيّين أيضًا، يترنّحون على حبالٍ غليظة معلّقة من بناية إلى أخرى. يؤدّي هؤلاء عرضًا شيّقًا، إذ يُخيّل لك بأنّهم سيسقطون، ثمّ تراهم يتمسّكون بأراجيح معلّقة في الوقت المناسب، فيحوزون تصفيق الجمهور وتقديره لمهاراتهم. يتمّ اختيار العروس ملكة جمال، من بين كل النساء، ويقدّم لها أحد الشبّان، المتأنّق بثياب الأمير باريس، الجائزة المنشودة: تفاحة مغطّسة بالذهب[1].

تصعد القافلة جبال أبينينو لتهبط في مقاطعة رومانيا. يصادفهم الثلج مجدّدًا، وهو أمر طبيعيّ جدًا في تلك المرتفعات. لحسنّ الحظ أنّهم سينزلون في أربينو عند آل مونتيفلترو، حيث تستقبلهم إليزابيتا غونزاغا. تُذهل لوكريسيا إذ تجد نفسها جالسة داخل موقدة عملاقة، مع قرابة الخمسين شخصًا.

تصل القافلة إلى مدينة بولونيا، في أواخر يناير، وتلجأ العروس لاستراحة في قلعة بينتيفوليو. لا يفصلها عن فيرارا سوى عشرين ميلًا.

تصعد لوكريسيا إلى الجناح الذي ستقضّي فيه الليلة، حين تسمع ضوضاءً آتية من مدخل القاعة. ثمّة فارس قفز بحصانه على جسر البوابة قبل أن يُرفع بقليل، غير آبهٍ بالسقوط في الخندق. تشير

(1) F. Gregorovius, *op. cit.*, p. 226. [المؤلف].

الأنباء إلى أنّ ذلك الفارس المقنّع المجنون راح يصول ويجول في باحة القلعة الداخليّة حيث تمكث العروس، كأنّه يستعرض خبراته الكرنفاليّة، يتشقلب غير مرّة على ظهر الفرس الراكض، ثمّ يعود إلى الجلوس على السرج. يقترب منه الحرّاس، ويسألونه عن هويّته بنبرة متوعّدة، فيجيبهم بفتور:

«ألا تعرفون خوذتي وأوسمتي؟ إنّي رسولٌ من دوق فيرارا، أحمل رسالة إلى مولاتي لوكريسيا! اطلبوا من سموّها أن تطلّ من النافذة. هيّا!». وبقوله هذا، يحرّض الحصان على التوازن على ساقيه الخلفيّتين فقط.

تطلّ لوكريسيا من النافذة وتصرخ: «ما الرسالة التي تستدعي منك كلّ هذا الصياح؟».

يُحني الفارس حصانه، تبجيلًا لها. «أنا الرسالة. لقد جئتك واهبًا نفسي إليكِ يا مولاتي!».

ثمّ أماط اللثام عن وجهه، ونزع المعطف المخطّط الذي يشير إلى أنّه رسول من الدوق. يُدهش الجميع حالما يرون وجه ألفونسو دا إيستي شخصيًا. وتنتاب لوكريسيا سعادة لا تُوصف. تصرخ متوجّهة إلى العريس: «شكرًا يا ألفونسو! هذه أجمل هديّة تلقّيتها يا سيّدي! اصعد إليّ من دون أن تترجّل عن حصانك إن أردت!».

يتجهان إلى خلوتهما في القاعة الكبرى. تنحني لوكريسيا حتى تقارب ركبتاها الأرض وتهتف: «هلا سمحتم لي يا عريسي المعبود أن أعانقكم وأستقبلكم كما تتمنّى أيُّ زوجة؟».

«هل جننت يا مولاتي؟»، يجيب ألفونسو، ويتابع: «ألا تعرفين

أنّه من المكروه تبادل المودّة قبل قضاء ليلة الحبّ الأولى على الأقلّ؟».

تسود الحيرة عليهما برهة، ثمّ ينفجران بضحكة رنّانة. يمسك ألفونسو بخصرها ويرفعها إلى مستوى شفتيه. يجلسان إلى إحدى الطاولات لشرب النخب. يطلب الشابّ مزيدًا من المشروب ليروي عطشه بعد تلك الرحلة، وليكبح تأثّره في الجلوس مع لوكريسيا على انفراد. وفجأة تُغيّر العروس الموضوع: «ثمّة شيء أودّ توضيحه يا عزيزي».

«ما هو يا سيدتي؟».

«أودّ أن أعرف ما الذي حدث لك. لمن سأكون ممتنّة بهذا التبدّل العظيم؟ كنتُ على يقين، قبل ساعات، أنّك تحتقرني إلى أبعد حدّ. أخبرني والدك بأنّك لا تتخيّل أن تتزوّج امرأة سيّئة السمعة مثلي. والآن كما لو أنّ ساحرة حوّلتني إلى شخص آخر لا يحمل صفات المرأة الشريرة التي وصفها لك الجميع كابنة الشيطان!».

«لا تنخدعي بالمظاهر! فأنا ما أزال أراكِ كابنة إبليس. لكنّي مولع بكلّ ما يأتي من الجحيم».

«حسنًا، تريد الحفاظ على تناقضاتك، هذا يسلّيني كثيرًا. لكنّي سأخبرك بنفسي عن السبب الحقيقيّ، ما دمتَ تتملّص من الإجابة. لا شكّ أنّك ذُهلت بانحيازي إلى جانبك وجانب والدك أثناء مفاوضات الزواج».

«صحيح، أقرّ بذلك. إضافة إلى إلحاحك في الفاتيكان على أن لا يُستبدل آل إيستي في حكم فيرارا بغيرهم حتى أجلٍ بعيد».

«هذا يشرّفني. سوى أنّ حبّك لي، في النهاية، وُلد لأسباب تتعلّق بمصالحك الاقتصاديّة».

«لا. ما قلبَ رأيي، رأسًا على عقب، أنّك تحسنين التصرّف مع محيطك».

«هل رأيتني من قبل؟ متى؟».

«منذ بضعة أسابيع، خلال السهرة التي احتفلتِ فيها، مع والدك البابا، بزواجنا».

«هل كنت هناك؟».

«أجل. متنكّرًا بشخصيّة غير معتادة».

«ما هي؟».

«كنت متنكّرًا بزيّ كاردينال، وأضع نظارات طبّية وأنفًا مستعارًا ولحية، كأيّ رجل دين نمطيّ. كان من الصعب أن تتعرفي إليّ. اقتربتُ منك متظاهرًا بالحديث إلى أحد الزملاء، وسمعتُ كلامك. اكتشفتُ ألق عينيك، وانسجام حركاتك، وشممتُ عطرك الفتّان».

يتحدّثان ويتمازحان، وتمرّ أكثر من ساعتين بلمح البصر[1]. تهبط الشمس، وعلى ألفونسو أن يعود حالًا إلى فيرارا.

«اعذريني، لم أخبر أحدًا بمجيئي إليك. نسيت حتّى أن أخبر الخدم والحرّاس. وقد يكتنفهم القلق في هذه الساعة».

«لا بأس، سأرافقك إلى الحصان. سنلتقي غدًا بكلّ الأحوال».

تمسك بيده، وهما على السلالم، وتقول له: «ليس لديك فكرة

(1) *Ivi*, pp. 231-232. [المؤلف].

عن مدى الفرح الذي أهديتني إيّاه بمفاجأتك! إنّي مسرورة لدرجة أنّي لن أنام هذه الليلة بسهولة».

الدرس الإيطاليّ

نحن في فيرارا. إنّ أشد ما يبعث على الذهول والدهشة من ذلك الأوان هو وجود أعظم الشخصيّات المؤثّرة في التاريخ والعلوم والفنون على مستوى العالم، جميعهم في الفترة ذاتها، في ذروة نشاطهم، يتألقون في المحافل الإيطاليّة والأوروبيّة. رافايلو، هرقل دا إيستي، أريوستو، ليوناردو دافنشي، بيمبو، كوبرنيكوس، مايكل أنجلو، لوكريسيا نفسها؛ نذكر هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر. يتفاعل جميعهم في الحقبة الإنسانويّة وعصر النهضة، وغالبًا ما يتعارفون ويتبادلون أبغض أشكال الحقد وأنبل مشاعر الحبّ على حدّ سواء. تتّحد شخصيّاتهم وطاقاتهم الإبداعيّة لتنتج ومضة فارقة، من الصعب تكرارها، في تاريخ الثقافة الإيطاليّة.

تُقدّم فيرارا، من هذا المنظور، أنموذجًا خالدًا. تحكمها، كما رأينا، إحدى السلالات المرموقة في إيطاليا؛ إذ تقرّر في تلك السنوات تحديدًا تجديد المدينة كليًا. وبالفعل، يحقّق الدوق هرقل مشروعًا نهضويًا ينقل فيرارا إلى مصاف المدن المثاليّة، ويجعل منها «المدينة الحلم» في ذلك الزمان، لتصبح قِبلةً لأرقى المجتمعات المتقدمة في كلّ أوروبا. يهدف المشروع إلى توسيع أبعاد المدينة، بحسب مبادئ التوازن والعقلانية التي امتاز بها عصر النهضة، على يد المهندس بياجو روسيتي، رائد الهندسة المدنيّة

في عصره. كان يفكّر بتحديث المدينة، حتّى تبدو غريبة في عين لوكريسيا، التي زارتها خلسة قبل أعوام مع زوجها السابق جوفاني سفورسا. كلّ مسكن، وبناية وبرج كنيسة وبيت حديث العهد، ثمرة مشروع معماريّ بالمطلق. لا شيء يحدث عن طريق الصدفة.

تستيقظ لوكريسيا في اليوم التالي، في قلعة بنتيفوليو، على مفاجأة أخرى. لن تصل إلى فيرار على الخيل، بل بركوب زورقٍ نهريٍّ يشقّ القناة التي تصل بولونيا بنهر البو. وهكذا ستتجنّب المشقّة والمطبّات، لتستمتع عيناها الزرقاوان الفتّانتان بمنظر الثلج الناصع.

هذا ما أدركه زوجها حين رأى عينيها تتلألآن، عند دخولها المظفّر إلى المدينة، واستطاع بعد ذلك أن ينزوي بها. وصلا على الحصان إلى القلعة العتيقة ودخلا الباحة الواسعة المطوّقة بالأقواس والأعمدة الأثريّة. «يا إلهي، ما أروع هذا النور الذي يشعّ من عينيك!»، هتف ألفونسو: «من أين تأتين بكلّ هذا السحر؟».

تردّ عليه: «آه! إنّها حيلة قديمة. نحن الساحرات موهوبات. أحسنتم صنعًا بعدم إزالة الثلج من الفِناء، فهكذا يدوم تأثير سحري وقتًا أطول!».

حمل الخدم على أكتافهم حقائب النزيلة الجديدة وصناديق أغراضها؛ وسبقوا العروسين. وقد أُفرغ الطابق المحجوز لهما، كي يتسنّى لهما المكوث بارتياح. وصلا أمام البوابة التي تفضي إلى غرفة السرير الكبرى، ولم تتمالك السيدة دهشتها: «آه! يا للعجب!». في وسط الصالة، ثمّة مقامٌ خشبيٌّ هائلٌ، مزيّن بالرسوم والصور المنحوتة. أشار ألفونسو إلى أربعة من الخدم، فشدّ هؤلاء

بعض الحبال، فانفتحت جوانب المقام وبرز منه سريرٌ مطوّقٌ بما يشبه الأشرعة التي اختفت بدورها كخلفيّة مسرح.

هتفت لوكريسيا: «وتجرؤ على وصفي بالساحرة؟ يا لهذه الروعة! هل يمكننا أن ننام داخل سفينة نوح هذه؟».

«طبعًا. تبدو كسفينة نوح فعلًا! تنقصنا المجاديف فقط. إذا شدّينا تلك الحبال سيُغلق علينا المقام، كأنّنا في عشّ الحبّ».

يُستَشَفّ الباطنُ من السمات الظاهرة: ينطبق هذا على البشر وعلى القصور أيضًا

منذ تلك الليلة، بات العروسان يقضّيان كلّ الليالي معًا، ما جلب سعادة عارمة للبابا، ولآل إيستي خصوصًا أنّهم كانوا يترقّبون ولادة الوريث. كانت الحياة مع الزوج الجديد تُغرِق لوكريسيا بالفرح والبهجة، حتى إنّها رغبت باكتشاف تلك المنطقة، التي بالكاد تعرّفت إليها حين اعتكفت في ذلك الدير المهجور. طلبت من والد زوجها الإذن بزيارة قصور آل إيستي الريفيّة، الشهيرة بـ«المسرّات». وكان هرقل يتعامل معها ببالغ الاحترام. بعض المقرّبين من بلاطه رأوا أنّ الفتاة، ذات الاثنين وعشرين عامًا، سلبت عقل الدوق؛ حتّى إنّه صرّح على الملأ بأنّه كان سيتزوّجها بكلّ سرور لو أنّ ابنه رفض الزواج بها. أعطاها هرقل الإذن، وأوفد معها ثلّة من الفنانين والمؤرّخين ليرشدوها؛ وقضّت السيدة أيّامًا هنيئة، تنتقل من قصرٍ ريفيّ إلى آخر، مرورًا بالقلاع الشاهقة قبالة البحر والحصون في الجزر عند مصبّ نهر البو.

كان ألفونسو لا يحتمل غياباتها المستمرّة. لم يعد يستطيع العيش من دون زوجته المذهلة. ذات يوم، لم يقاوم، فامتطى حصانه وانطلق في الفجر ليصل إلى أحد القصور في بلريغورادو. يعرّج على مزرعة حدّاد الخيول ليصلّح حدوة حصانه. فيستقبله الرجل بحفاوة قائلًا:

«أهلًا بفخامتكم! كيف حال زوجتكم الجميلة؟ هل استعادت عافيتها؟».

«وما مناسبة هذا السؤال؟».

«أحضروها إلى هنا أوّل أمس، وكانت مستلقية على العربة. بعد أن وقعت».

«وقعت عن الحصان؟ متى؟ أين؟».

«على بعد ميلين من هنا. ألم يصلكم الخبر؟ عمومًا، لم تكن حالتها خطيرة. فكما تعلمون يا سيّدي، نحن الحدّادين لدينا خبرة في التعامل مع العظام. وقد اتّضح لي، بنظرة واحدة، أنّها لم تتعرّض للكسر».

«أين أجد مطعمًا أو حانة قريبة من هنا؟».

«لا داعي للذهاب بعيدًا. خلفنا، تسكن معيلة شقيقتي. هي التي عالجتها».

«وهل لديها زيت الكتّان ودهون أخرى للتدليك؟».

«طبعًا. يسعدني أن أرافق فخامتكم!».

يصلان بعد ساعة إلى القصر حيث ترقد لوكريسيا مريضة. يفتح باب غرفتها، فيجدها في الظلمة على السرير غارقة في غفوة عميقة.

يتجنّب إحداث الضجّة، يقترب منها وينحني إليها ليقبّلها. فإذا بها تئنّ مستيقظة، تنظر حولها، وتغمغم بحزن:

«معذرة يا حبيبي، لا أستطيع لثم ثغرك».

يردّ ألفونسو:

«لا تقولي إنّك آذيت وجهك أيضًا».

«بلى. إنّها عبارة عن رضوض، للأسف، التهب أنفي وفمي. ألا ترى أنّي أكابد في الحديث أيضًا؟ من أخبرك بأنّي وقعت؟».

«شقيق المرأة التي عالجتك».

«حدّاد الخيول؟».

«أجل، قال لي أيضًا إنّ حالتك ليست خطيرة».

«ربما، لكنّي أتألم من رأسي حتى قدميّ. أتوجّع إذا تنفّست أو أغمضت عينيّ».

يطأطئ العاشق رأسه ويلتزم الصمت. ثمّ يقول:

«للأسف، لا يوجد في كلّ هذه المنطقة أيّ طبيب قادر على مداواتك. أتريدين أن أساعدك في نزع القميص؟ ثقي بي، أعتقد أنّ بوسعي فعل شيء ما».

تصدّه لوكريسيا خائفة:

«أرجوك يا ألفونسو، إن لمستني أوجعتني أكثر!».

«لكنّها الطريقة الوحيدة كي تشعري بتحسّن» يرد: «إنّي معروف في البلاط، وفي الخارج أيضًا، كفارس مقدام لا يبالي. هشّمتُ عظامي غير مرّة، في كبواتٍ كارثيّة. فتعلّمتُ، على حسابي الخاصّ،

أن أداوي جروحي وجروح الآخرين أيضًا. أتيتك بزيت الكتّان وأدوية أخرى. ثقي بي، أرجوك. لن أوجعك».

تثق لوكريسيا بيديه. ينزع عنها القميص برفق ويدهن جسمها بالزيت، برقّة وحرص، بدءًا من الكتفين. تكبت أنينها لكنّها تتوسّل إليه أحيانًا:

«خفّف، أرجوك! آآآآه! لم أعد أحتمل!».

«اصمدي ثانية واحدة فقط. حاولي أن تضغطي على بطنك».

تتأوّه قليلًا، ثمّ تذوي آلامُها شيئًا فشيئًا، حتّى تستعيد التنفّس بسهولة. ويهمس ألفونسو في أذنها ليشجّعها:

«إن أردتِ، كففتُ...».

«لا، لا، أرجوك. سأقاوم. ما تفعله يشعرني بالارتياح، والمتعة أيضًا. تابع على هذا المنوال. أشعر بآلامي تتلاشى. أحبّك. مسّدْ جسمي بمزيد من الزيت... أجل، هناك أيضًا... يا إلهي، ما أروع لمساتك الحنونة! أشعر بأنّي أخرج من الجحيم لأعود إلى المطهر. تابع. سأصل إلى الجنة عمّا قريب».

زوابع الخيال

لم تستطع لوكريسيا إخفاء شغفها العارم بالشعر والقصص الخياليّة، والرسم خصوصًا. كانت مولعة بالحكايات التي تبدأ من الواقعيّ ثمّ تنقلب إلى العبثيّ. في الزمن نفسه، كان هيرونيموس بوش، في الفلاندر، يُنجز لوحاته على الأقمشة، ويجسّد فيها اللحظات المأساويّة والهزليّة بتناقض صادم، مثل «حريق القرية»

حيث الرجال والنساء يهربون عراة ومرتعدين من بين ألسنة اللهب، وفي الجهة الأخرى ثمّة حديقة المسرّات، ما يشبه جنّات عدن المليئة بالمشاهد الاحتفاليّة والإيروتيكيّة الخرافيّة.

وفي فيرارا أيضًا، كانت جدران قصر سكيفانويا مزيّنة برسومات ذات موضوع مشابه، حيث تتجلّى العربات الأسطوريّة، التي تشير إلى الفصول، وتقودها آلهة مشهورة، من بينها فينوس، وتطوف حولها الأرانب البيضاء، ذكورًا وإناثًا، يلاحق بعضها بعضًا بشهوةٍ خياليّة لممارسة الجماع. وفي المقابل، ثمّة شبّان وشابات، بملابس أنيقة، يحرّض أحدهم الآخر لتبادل العناق والقبلات. أحد الذكور يجرؤ على خدش حياء الفتيات: يدسّ يديه بين سراويلهنّ. كما يطغى حضور الأطفال على فسحة كبيرة من الجدار. بعضهم رأى نور الحياة للتوّ، وآخرون يضحكون ويتباكون ويركضون للعب كالقطط. وكلّ هذا تمجيدًا لفصل الربيع. هناك تحديدًا، بينما تحدّق لوكريسيا مسحورة بتلك اللوحة الرائعة، التي توحي بالخصوبة الحيويّة، يغالبها الدوار فترنّح، كأنّها ستسقط أرضًا، فتسندها إحدى وصيفاتها اللواتي يهتفن معًا:

«تحيا مولاتنا! إنّها حامل!».

في المساء، يقيم آل إيستي احتفالًا كبيرًا. سيولد الوريث أخيرًا. أكثر المحتفلين سعادة هو الدوق هرقل بلا شكّ. وألفونسو أيضًا، يتلقّى التهانئ من أصدقائه والعاملين في البلاط؛ ناهيك بأحد الظرفاء الذي يقوم بتلميحات خليعة تثير ضحك الحاضرين. خلال الحفلة، تعانق لوكريسيا زوجها، هامسة في أذنه: «حبّذا لو احتفلنا بهذا النبأ بالعودة إلى ليلتنا الأولى».

فيردّ ألفونسو بعذوبة: «لن تصدّقيني، كنت أودّ أن أطلب منك الهديّة ذاتها».

يهتفان معًا بصوت مرتفع: «إلى سفينة نوح!».

فيلتفت نحوهما الجميع مذهولين.

إيّاك أن تعير المدافع لمن قد يستخدمها ضدّك

في انشغالنا بقصّ هذه الحوادث، كدنا ننسى الفالنتين كليًا. هل قُوّضت مطامحه العسكريّة؟ أبدًا، ولا حتّى في الخيال! بل في اليوم الذي دخلت فيه لوكريسيا شهرها الرابع، وردت إلى فيرارا أنباءٌ صادمة. إذ ما انفكّ شيزاري يستولي على مقاطعة رومانيا وما حولها، منطقة تلو الأخرى؛ نجح في إقناع غويدوبالدو دا مونتيفلترو أن يعيره المدافع التي جهّز بها جيش أربينو، وذلك لمهاجمة مدينة كامرينو. تمنّع غويدوبالدو بادئ الأمر، لكنّه وافق آملًا أن يذكر له البابا هذا المعروف. ولكن، في العشرين من يونيو 1502 يستخدم شيزاري تلك الأسلحة ليدكّ بها مدينة أربينو نفسها. يلوذ غويدوبالدو، ذو الحظّ العاثر، بالفرار. يكتب للكاردينال جوليانو ديلا روفيري رسالة، معبّرًا عن بالغ صدمته:

«نجوتُ من الموت بأعجوبة، مرتديًا ثياب النوم ليس إلّا. لم أرَ نكرانًا للجميل كهذا من قبل. سلوكٌ يليق بالقراصنة[1]».

علّقت لوكريسيا على ما حدث، محبَطةً: «يا للعار! كيف تطاوعه

---

(1) Geneviève Chastenet, *Lucrezia Borgia. La perfida innocente*, Mondadori, Milano 1995, pp. 228-229. [المؤلف].

نفسه على خيانة صديقه، الذي أمدّه بأفضل أسلحته، ليقصفه بها في ما بعد! أيّ تبريرٍ نتوقّعه من غدّارٍ كهذا؟». لكنّ فظائع الفالنتين لا تعرف حدودًا. بعد عدّة أيام، يتمّ العثور على جثّة أستوري مانفريدي في نهر تيفيري، في روما، وهو أحد أعيان مدينة فيانتسا، وكان قد أوقعه شيزاري أسيرًا وسجنه في قلعة سان أنجلو بعد فتح المدينة. وسرعان ما حامت الشبهات حول ابن البابا.

تتدهور حالة لوكريسيا الصحيّة، بعد سماعها هذه الأخبار المريعة، وإطباق القيظ الخانق على الأرياف حول فيرارا. تتجه إلى قصر «الأزاهير الجميلة» في المدينة، بحثًا عن أجواء صحيّة، فإذا بالشؤم يلاحقها إلى هناك أيضًا. في منتصف يوليو، تجتاح الحمّى الرهيبة فيرارا، وتنتقل العدوى إلى لوكريسيا. يخشى الأطبّاء على حياتها جديًّا؛ وفي تلك الأثناء يأتي لزيارتها شقيقها الرهيب، على غير المتوقّع.

احتدم النقاش بينهما، تلك الليلة، وكاد باب غرفتها ينخلع من شدّة الشتائم التي أمطرته بها. لم يفهم أحدٌ ما دار بينهما، إذ كانا يتكلمان باللهجة البلنسيّة، لكنّ المؤكّد أنّه بتلك الزيارة أطلق عليها رصاصة الرحمة. في ليلة الخامس من سبتمبر، تستيقظ لوكريسيا على آلام عنيفة تدفعها للنهوض عن السرير؛ وضعت حينذاك طفلة ميتة.

اكتسح الحزن فؤاد الدوق، والمدينة بأسرها التي كانت تتحضّر للاحتفالات. لكنّ ألفونسو يفقد عقله كليًّا بهذا الخبر. ذات مساء، بينما كانت لوكريسيا ترقد بين آهاتها وآلامها، يفتح ابن الدوق الباب على مصراعيه، ويجلس قرب سريرها من دون أن ينبس ببنت شفة، مكتفيًا بالنظر نحو النافذة. تنتبه لوكريسيا المريضة بالكاد إلى حضور زوجها، وتسأله بصوت منهك:

«هلّا غيّرتَ لي الخرقة المبللة يا ألفونسو؟ أشعر بأنّي أحترق؛ لم أعد أقاوم».

يمدّ ألفونسو ذراعه ويمسك الخرقة، ويرميها في الإناء المليء بالماء، من دون أن يفتح فمه، ثمّ يضعها بعدمِ اكتراث على جبين زوجته حتى انساب الماء البارد على وجهها ورقبتها وكتفيها.



غويدوبالدو دا مونتيفلترو

ترتجف لوكريسيا وتصيح: «ماذا تفعل؟ ما الذي دهاك؟».

ألفونسو لا يردّ؛ يعود للجلوس.

تلحّ لوكريسيا: «ما بك؟ لمَ لا تجيب؟ لماذا تعاملني هكذا؟».

يستدير نحوها ويقول باستياء: «لا شيء».

«لا شيء؟ كيف؟»، تردّ لوكريسيا ممتعضة: «ولماذا تبدو منزعجًا مني؟».

ينظر إليها ألفونسو ويقول بإيجاز: «قلت لك لا شيء، دعيني وشأني».

تعدّل جلستها على السرير بصعوبة، وتقول غاضبة: «أنا سأقول لك السبب. أنت تكرهني لأنّي لم أنجب لك الولد. أتحسب أنّي غافلة عن مرادك؟ أنت تخشى أن ينتزع إخوتك العرش، بموت والدك، ما لم يكن لديك وريث! هذا ما يهمّك!».

ينهض بقوّة ويصرخ غاضبًا:

«ليس صحيحًا! كيف تسوّل لك نفسك التفكير بشيء كهذا؟ أنت آخر من يحقّ له تأنيب الآخرين على أطماعهم!».

«ماذا تقصد؟».

«أفضّل السكوت، فهذا خيرٌ لكِ، صدّقيني!».

«بل أريد منك أن تتكلم!».

«دعيني وشأني يا لوكريسيا!».

«تكلّم! قل كلّ ما عندك، هيّا!».

«حسنًا، أنت من أراد ذلك». يتوقّف قبالتها تمامًا ويقول بضحكة مريرة: «كنت قد أخبرت والدي بأنّك أسوأ امرأة على الإطلاق، لكنّه كان تحت تأثير سحرك، ثمّ وقعتُ أنا تحت تأثيرك أيضًا. يا

لي من غبيّ! لقد أشفقت عليك وقلت لنفسي: «لوكريسيا مسكينة؛ لطالما استغلّها والدها، وذاقت شتّى أنواع المهانة؛ ثم وصفتْها ألسنة الحاقدين بالغول، بالشرّيرة، بالعاهرة». لكنّهم كانوا محقّين في ادعاءاتهم!».

تقاطعه لوكريسيا مذعورة: «أنت مجنون! ماذا تقول يا ألفونسو؟».

«سأقول لك اسمًا واحدًا فقط: بيدرو كالديرون، أو بيروتو إن كنت تفضّلين. إنّي واثق من أنّك على السرير تنادينه باسم الدلع!».

تحدّق إليه بعينين جاحظتين، تفتح فمها لكنّها تعجز عن لفظ أيّ كلمة.

يتابع ألفونسو: «والآن حان دورك، أم ليس لديك ما تقولين؟ أو لعلّك تعانين من ثقبٍ في الذاكرة؟ حقًّا، أستوعب الصعوبة في تذكّر أسماء كلّ العشّاق حين تغيّرين كلّ يومٍ واحدًا. ولكن لا تقلقي! سأنعش ذاكرتك»، يتابع بابتسامة متهكّمة ويائسة: «يا للغرابة! لم يمرّ على ذلك أكثر من أربعة أعوام! يا لهذه النهاية التعيسة! كان عبدًا مأمورًا عند آل بورجا، صديقًا مقرّبًا للعائلة؛ عُثر على جثّته في نهر تيفيري! من يدري ماذا فعل ليستحقّ عقابًا شنيعًا كهذا!».

تُغلق لوكريسيا فم زوجها بيدها، قائلة: «أرجوك، لا تُكمل، أرجوك! أقسم لك أنني...»، لكنّ ألفونسو يدفعها إلى الخلف ويكمل: «كلا! أردتِ مني أن أتكلّم؟ عليك أن تصغي إليّ إذًا. أريد أن أرى شجاعتك في الردّ! إنّي أتفهّمك تمامًا. كانوا قد أجبروك حينها على الطلاق من زوجك الأوّل. تستحقّين ترضية ما! ولكن كان بإمكانكم توخّي الحذر! لا بأس في اصطحاب الخادم إلى

السرير، ولكن حين تحملين منه، قد تتعقّد المسألة... وهكذا طلبتم مساعدة خادمة مطيعة أخرى، ما اسمها؟ بانتسيليا، أجل! ويا للصدفة، يعثرون عليها، هي الأخرى، في تيفيري! إنّكم زمرة من المجرمين الأوباش حقًّا!».

وكما في المسرحيّات الرائجة في ذلك الزمان، لا يسعنا سوى إسدال الستار والانتقال إلى مشهد آخر: الدوق هرقل يجتمع بمستشاريه في «قصر الماس».

«إنّ غزوات الفالنتين - يقول الدوق - لا تُبشّر بالخير أبدًا. لا نعلم أيّ موقف ينبغي علينا اتخاذه في هذه الحالة».

«إن استمرّ ابن البابا بهذه الطريقة - يعلّق أحد المستشارين - سيختلّ توازن إيطاليا».

«صحيح - يعلّق آخر - ولكن لا تنسوا أنّ أيدينا مكبّلة تمامًا، فشقيقة الفالنتين هي زوجة فخامة الدون ألفونسو».

وفي تلك اللحظة تمامًا، تدخل لوكريسيا إلى قاعة الاجتماعات. تتوجّه إلى الدوق بنظرة شاحبة، وتغمغم: «المعذرة يا سيدي، عليّ أن أتكلّم معكم، أرجوكم».

ينهض كلّ المستشارين حائرين، وينظرون إلى الدوق بدورهم، حتّى يأمرهم الدوق بعد تردّد وجيز: «سنستأنف اجتماعنا مساء اليوم أيّها السادة، بإمكانكم المغادرة».

تفرغ القاعة، بعد همهمة الوزراء، لتنفرد لوكريسيا بوالد زوجها. تتقدّم نحوه، تضع يدها على كتفه ثمّ تجلس وتلتقط نفسًا عميقًا.

يسألها الدوق مضطربًا: «ما بك يا لوكريسيا؟».

«يا سيّدي العظيم، لم يعد بوسعي البقاء في فيرارا، عليّ أن أرحل».

يحدّق إليها هرقل متفاجئًا، ويجلس بقربها، ينتظر كلامها صامتًا.

«ابن فخامتكم أهانني بما لا يسعني الردّ عليه».

«ماذا تقولين؟ متى حدث ذلك؟».

«أقول الحقيقة. وجّه زوجي إليّ البارحة اتهامات شنيعة، ولم أردّ عليه، بقيت صامتة».

«ماذا تقولين بحق السماء؟»، يسألها مشوشًا: «كوني أكثر دقة!».

«من غير المجدي أن أكرّر كلماته، إنّي واثقة من أنّ عيونكم وآذانكم نقلت إليكم كلّ تلك الافتراءات على جناح السرعة. ثمّ إنّي لم أعد أعبأ، فكم أشاعوا بحقّي من الأباطيل سابقًا...».

«لا يمكنك التصرّف على هذا النحو يا لوكريسيا!»، يقاطعها الدوق: «اشرحي لي ما الذي حدث!».

تمسك بيديه وتقول: «أتحدّث عن عاشقي المزعوم الذي وُجِد مقتولًا في النهر، وعن ابني السرّي الذي قد يعترف به والدي. ألم تسمع بهذه القصة المريعة، فخامتكم؟».

يطأطئ الدوق رأسه متأثّرًا، فتتابع لوكريسيا: «لا يهمّ يا سيدي، فأنت تعلم منذ متى يلفّقون عني الأكاذيب...».

«ولماذا لم تردّي عليه؟ يبدو من صمتك كأنّك تؤكّدين صدق هذه الأقاويل!».

«لن يجدي نفعًا يا سيدي، فهذه الأقاويل تكرّرت حتى فضّلوها

على الحقيقة. ثم إنّ ألفونسو لا يريد أن يصدّقني، كان مصدومًا ومحبطًا. أستوعب ذلك؛ لقد بذل قصارى جهده كي يحبّني، وحاول تجاوز كلّ الأكاذيب، لكنّ الغلبة تُكتب للباطل دومًا».

«تريّثي قبل اتّخاذ أيّ قرار متهوّر! أفهم أنّك تشعرين بالإهانة...».

«لا أشعر بالإهانة. لقد خاب أملي فقط».

«اسمعيني يا ابنتي، إنّي أعرف ابني حقّ المعرفة. لقد فقد أمّه في فجر طفولته، فتوجّب عليّ أن أتحمّل مسؤولياتها. بتّ أفهم ما يجول في خاطره بنظرة واحدة. أؤكد لك أنّ ألفونسو لا يعشقك فحسب بل ومتيّمٌ بكِ أيضًا. وبما أنّي أعرف طريقة تفكيره، أنصحك بأن تدعي الأمور على عواهنها، كالنبيذ في البراميل: ننتظر خمود غليانه، ثمّ نحتسيه! كوني متيقّنة من أنّه سيعود إليك طاهرًا من كلّ شكوكه، وهائمًا بحبّك أكثر من السابق».

تحنو جبينها على كتف الدوق، فتبلّل ثيابه بدموعها. وتنسحب بهدوء، وهي تغمغم: «أتمنّى أن تصْدُق تكهّناتُكم يا سيدي».

الكتابة بهدف الإغواء

تعود السيّدة الشابّة إلى قصرها، تجمع الوصيفات وتقترح عليهنّ إقامة أمسية حيث يقرأن الأشعار الدارجة في فيرارا. تقترح إحداهنّ بحماسة: «المعذرة يا مولاتي، لمَ لا نستدعي الشعراء أنفسهم ليلقوا أشعارهم؟».

«فكرة مذهلة»، تهتف لوكريسيا: «وما موضوع القصائد الذي ينبغي التقيّد به، برأيكنّ؟».

تسارع وصيفة أخرى للقول: «أنتِ يا مولاتي لوكريسيا! أنتِ الموضوع!».

وفي المساء، تتمّ دعوة أبرز أدباء المدينة إلى قصر «الأزاهير الجميلة». ترتدي لوكريسيا، لهذه المناسبة، أبهى فساتينها؛ وتكلّل جبينها بطوق الياقوت الذي أهداه لها الدوق هرقل يوم زفافها. من بين الشعراء المدعوّين، شيليو كالكانيني ونيكولو دا كوريجو وتيبالديو.

ينهض الأخير مصرّحًا: «مولاتي لوكريسيا، اسمحي لي بإلقاء هذه السوناتا، مهداة لك من الشاعر مارتشيلو فيلوسينو:

تيهي ألقًا يا فيرار، فالسماء أودعتْ فيكِ
أجمل هديّة؛ إذ تحمل صولجانك
الحسناءُ لوكريسيا التي ساكنت أسوارك
لوكريسيا التي وهبتها الطبيعةُ أجمل صفاتها[1]».

سُرّت لوكريسيا بهذا المديح، والتفتت إلى المدعوين لترحّب بقدومهم. يتغزّل جميع الشعراء بمحاسن السيّدة الشابّة. يحاول أحدهم النهوض بصعوبة، مستندًا إلى عكّازه الذي لا يتمكّن من الحراك بدونه. فتنحني تجاهه: «اطمئنّ يا سيّدي، ما من داعٍ للوقوف لإلقاء التحيّة».

«لكنّي أرغب أن أهديك من بديع الكلام يا مولاتي»، يجيبها الشابّ الأعرج.

---

(1) AA.VV., *Lucrezia Borgia. Storia e mito*, Leo S. Olschki editore, Firenze 2006. [المؤلّف].

«بكلّ سرور!». ثمّ تساعده على النهوض.

«عنوان هذا النصّ: «كلّ هذا من أجل ابتسامة»: «إنّني ربّان، أحصل على قوت يومي بالتجديف على جندولٍ يعبر القناة الكبرى، بمساعدة بحّارة آخرين. ذات يوم، صعدت على متن قاربنا مجموعةٌ من النساء المرهفات والشبّان النبلاء. سألنا أحدهم: «ألا يوجد بينكم، أيّها البحّارة، من ينشد علينا أغنية بينما نجتاز القناة؟». «أنا!» أجبته. ورحت أغنّي أهزوجة شعبيّة، مهداة إلى أكثر النساء ألقًا. اقتربت مني السيّدة في النهاية وتبسّمت متأثرة، ثمّ نزلت مع الآخرين واختفت. علقت ابتسامتها في بالي طوال الليل وغاب النوم عن عيوني. بل صارت ابتسامتها تلاحقني في كلّ مكان، خاصةً حينما أبحر»».

يحرّك الراوي عكّازه كأنّه مجداف، ويواصل:

««كفى، لم يعد بوسعي البقاء على هذا القارب. قرّرتُ الالتحاق بالجنديّة. كان لديّ صديقٌ يعمل ضابطًا في نابولي. ذهبتُ إليه وجنّدني في جيش الملك. وبعد أقلّ من شهر، وجدتُ نفسي في خضمّ معركة طاحنة، باغتنا العدوّ، واخترق خطوطنا الأولى، فتفرّق حشد فرساننا. ووصلوا إلى الملك أيضًا، فرميتُ نفسي في تلك المعمعة وبارزتُ المعتدي وقتلته. صاح الملك: «أيّها الجنديّ! إنّي مدين لك بحياتي. لولا سيفك لأزهِقتْ روحي». عانقني وقال لي: «أنت بمثابة ابني منذ هذه اللحظة». تجهّزنا للمعركة القادمة، وكنت بجانب الملك. وانتصرنا. خضتُ الحرب كالمجنون، وتوليّت مهمّات القائد الأعلى بعد أن لقي مصرعه. عيّنني الملك جنرالًا

فسطّرتُ الأمجاد. في آخر معركة خضناها، في سهول البو، طردنا حاشية أحد ملوك تلك المدن. وهناك تراءت لي صاحبة الابتسامة الرائعة. إنّها الملكة. انتهزتُ الفوضى لأنسحب خلسة؛ أمسكتُ بها وأركبتُها على حصاني. هربنا معًا. لجأنا إلى أحد بيوت الملكة في الريف، ومارسنا الحبّ فيه طوال الليل. وفي اليوم التالي، عدت إلى جيشي. ثمّ علمتُ أنّ مليكتي أبرمت اتفاق سلام مع الملك العدوّ، الذي أنقذتُ حياته. قرّر الملكان أن يتزوّجا، ليستتبّ الأمن في ربوع المملكة. هذا كلّ شيء: ليلة واحدة، ثمّ ضاع الحلم هباءً. ركبتُ إحدى السفن، وكان في حوزتي الكثير من المال. فاتّفقتُ مع القبطان واشتريتُ السفينة والوصاية عليها أيضًا. وهكذا شاء القدر أن نصطدم بقراصنةٍ من العرب. خضنا معركة ضارية، وتمّ أسرنا جميعنا، لأجد نفسي كالعبيد، أجدّف في تلك السفينة، على إيقاع الجلّاد. وأتساءل، بينما كنت أجدّف: لماذا؟ ما الذي حدث؟ فأجيب نفسي بنفسي: «كلّ هذا من أجل ابتسامة»».

يعمّ التصفيق، وتقترب لوكريسيا من الراوي، متأثرة مثل صاحبة الابتسامة، وتجلس بقربه.

«هل هذه قصّتك ياسيدي؟ وإن كان كذلك، فمتى كتبتموها؟».

«لماذا هذا السؤال يا مولاتي؟».

«لأنني رأيت أخي في تلك المعارك. وقد تلقّيتُ الحكاية كنذير شؤم، تبدّى لي شيزاري مقيّدًا بالأغلال في عرض البحر».

«لا أعلم. ربّما. فشخصيّة الفالنتين تثير اهتمام الجميع؛ ومن الممكن أن يكون موضوع أيّ نقاش. ولكن اسمحي لي يا مولاتي

بتهنئتك على فكرة جمعنا هنا هذا المساء. أعرب لك، باسم الجميع، عن امتناننا لعظيم عطائك».

تردّ لوكريسيا منتشية: «أشكرك يا سيّدي، وأتمنّى أن تصبح هذه الأمسيات عادةً ندأب عليها. هلّا ساعدتني في انتقاء أدباءٍ يثرون حلقاتنا هذه؟».

«لا أعلم إن كنت كفوًا للمهمّة التي تكلّفني بها مولاتي».

«سأكون ممتنة لك يا سيّدي. أرغب في اكتساب ثقتك، لذا أتمنّى ألا تخاطبني بهذه الرسميّة. فأنا لم أكن بحاجة لصديق كما في هذه المرحلة. المعذرة، لم أسألك عن اسمك!».

«العفوَ مولاتي. أدعى هرقل ستروتسي. أعمل قاضيًا، من بين الحكماء الاثني عشر؛ وأسعى مثلهم لخدمة العدالة، وأروّح عن نفسي بكتابة الشعر».

دعوة إلى وليمة التوابيت

في تلك الأثناء كان الفالنتين، الذي استولى على كافّة أنحاء رومانيا، يحاول بسط نفوذه في وسط إيطاليا، كي يبني لنفسه مملكة حقيقيّة. يهيمن على بولونيا وسيينا وبيزا ولوكا؛ فيتضاعف الناقمون عليه من حوله طبعًا. لا تقتصر قائمة أعدائه على خصومه المعلَنين، أي الحكّام الذين يخافون نهاية كنهاية أستوري مانفريدي، المرميّ في نهر تيفيري؛ بل كان من بينهم حلفاؤه المقرّبون أيضًا. قادة جيوشه أنفسهم، كانوا يخشون بالفعل من جبروت زعيمهم الآخذ بالاتساع. وكما قال ماكيافيلي: «بدا لهم أنّ سطوة الدوق تزداد

تضخّمًا؛ فخافوا - بعد احتلال بولونيا - أن يصفّيهم ليصبح الأقوى عسكريًا في إيطاليا[1]».

اجتمع هؤلاء القادة في ماجوني، عند الكاردينال باتيستا أورسيني، ليدبّروا المؤامرة. لكنّ شيزاري، حين عرف بالخيانة، دبّر لهم انتقامًا مروّعًا وأشدّ دهاءً.

تظاهر بنيّته التوصّل إلى اتفاق مع قادته المتمرّدين، ووعدهم بعروض وامتيازات شخصيّة. وحين تبدّدت شكوكهم، دعاهم جميعًا إلى مأدبة، في مدينة سينيغاليا، في الحادي والثلاثين من ديسمبر عام 1502. ينبغي الإقرار بأنّ الفالنتين كان على معرفة عميقة بالتاريخ. إذ نادرًا ما فشلت فكرة استدعاء الأعداء إلى وليمة احتفاليّة بقصد قتلهم. وهذا ما رواه زينوفون، المؤرّخ الإغريقيّ، أحد القلائل الذين لم يحضروا الوليمة التي دعا إليها الفرسُ قادةَ الجيش الهيلليني؛ حيث لقي جميع القادة المدعوّين مصرعهم.

يلتقي شيزاري بمن تآمر عليه في السابق، ويقول لأحدهم، فيتيلوتسو فيتيلي، مبتسمًا: «هل يُعقل أن نقهر جيوشًا متعدّدة، ثمّ نتخاصم يا أخي؟ سأنسى كلّ شيء، تعال وعانقني!». ويقبّل خدّه كدليل على نيّته في السلام.

يتجهون معًا إلى قاعة كبيرةٍ حيث تنبسط مائدة غنيّة بكلّ الأطعمة والنبيذ الفاخر.

---

(1) Niccolò Macchiavelli, *Descrizione del modo tenuto dal Duca Valentino nello ammazzare Vitellozzo Vitelli, Oliveretto da Fermo, il Signor Pagolo e il duca di Gravina Orsini*. [المؤلّف].

«هل فهمت؟ - قال الفالنتين للطبّاخ - أريد أن يكون عشاءهم الأخير أفضل عشاء يتناولونه في حياتهم».

وبالفعل، حين جلس الجميع، قال الفالنتين: «اعذروني يا أصدقائي، للأسف، سأترككم لوقت قصير؛ ففي الغرفة المجاورة ثمّة فتاة مسكينة لا تستطيع احتمال غيابي عنها دقيقة واحدة. وكما يُقال، أطيب عشاءٍ تنهشه أسنانك هو لحم أنثى حسناء!».

يقهقه القادة سعداءً، ويخرج شيزاري. وبعد لحظات، تقتحم القاعة فرقةٌ من الحرس؛ يحيطون بالمدعوّين الذين انتابهم الذعر. يحاول أحدهم الفرار، فيقبضون عليه بسهولة. وتبدأ المذبحة! يتولّى ميكيلوتو كوريلا ذبح اثنين من المتآمرين؛ كوريلا سيّاف شيزاري الخاصّ، الذي قتل الشابّ ألفونسو أراغون، ثاني أزواج لوكريسيا. يلقى اثنان آخران حتفهما بطريقة أشدّ بشاعة، يُسجنان لبضعة أيّام، لمنحهما أملًا بالنجاة، ثمّ يُقتَل أحدهما مخنوقًا والآخر خنقًا بالماء.

ومن الجدير بالذكر أنّ شيزاري، بفعلته الشنيعة هذه، حاز على الثناء أكثر من الاستنكار، في تلك الآونة. بل أثار إعجاب الجميع بدهائه الخارق وحزمه الصلب، كقائد حقيقيّ استطاع التخلّص من منافسيه. وبالتأكيد، فإنّ الهمجيّة تُعَدّ مزيّةً حين تُستخدم في سبيل المصالح السياسيّة أو الشخصيّة. أمورٌ تحدث عادةً، أو فلنقل إنّها كانت تحدث في القرن السادس عشر.

محادثةٌ عن الجثث

في الصالة الكبرى من القصر حيث تعيش لوكريسيا، كانت

الوصيفات يحضّرن استقبال المدعوّين. ومن المتوقّع أن يأتي أدباءٌ وشعراءٌ كبار لقراءة بعضٍ من كتاباتهم، في ذلك المساء.

خلافًا للعادة، تتأخّر لوكريسيا بالظهور، فيضطرّ هرقل ستروتسي لاستقبال المدعوّين.

«ها هي أخيرًا»، تهتف إحدى وصيفاتها وتتجه نحوها.

تعبر لوكريسيا الصالة، شاحبة الوجه، من دون أن تحيّي أحدًا. تجلس على أريكة قرب الموقد، وتخفي وجهها بيديها لتنفجر في بكاء غزير. يتجه كلّ الحاضرين نحوها.

ينحني إليها ستروتسي ويسألها: «ما الذي حدث يا مولاتي؟».

ترفع لوكريسيا وجهها، تمسح عينيها بالمنديل؛ تفتح فمها لكنّها لا تستطيع الإجابة.

يتدخّل أحد الشبّان ليبعد الحاضرين بلباقة ويطلب منهم: «دعوها تلتقط أنفاسها، أيّها السادة. لقد عرفتُ بالخبر في طريقي إلى هنا. كان من المتوقّع حدوث تلك المجزرة».

«عن أيّ مجزرة تتكلم يا سيد لودوفيكو؟ هلّا شرحت لنا ما الذي حدث؟».

«الفالنتين... دعا كلّ قادة جيشه إلى العشاء في سينيغاليا ثمّ أمر بتصفيتهم جميعًا».

يستغرب أحدهم: «مذبحة؟».

«أجل، ولو لم يتدخّل دوق رومانيا بقسوة، لكنّا نبكيه اليوم، وخاصة مولاتي لوكريسيا».

«كأنّك تقول إنّ أتباعه كانوا يدبّرون له كمينًا؟».

وقال رجلٌ آخر: «دفاعٌ مشروعٌ إذًا! هل تدرك ماذا تقول حضرتكم؟ عذرًا، من تكون؟».

«اسمي أريوستو، ابن نيكولو».

«أريوستو؟ وبأيّ دعوة دخلت إلى هنا؟».

«بنفس الدعوة التي دخلتم بها، على ما أظنّ».

يعلّق شابٌّ حسن الهيئة، من مكانه بجوار هرقل ستروتسي: «إنّي لأتوخّى الحذر في إطلاق الأحكام بهذا التسرّع، من دون أن نعرف الوقائع بأكملها».

يردّ أريوستو: «حسنًا، ما المعلومات الأخرى التي تُريدونها؟ لقد تعوّدنا على هذه الحالة في الأعوام الأخيرة. تتحضّر جبهتان لتدحر إحداهما الأخرى، والغلبة للأسرع. استنتاجٌ حسابيٌّ تقريبًا».

«صحيح» يردّ ذلك الشابّ بشبه ابتسامة. «وبما أنّ الحساب يعتمد على المنطق، فعلينا ألا نتعجّب. الغلبة للأسرع. لا يهمّ السياق بقدر الحاجة إلى إحداث الجدل وإبراز البلاغة، بلا رأفة! كما لو أنّ جثث القتلى ثمارٌ شهيّة تُقدّم على مائدة الكلام؛ بحيث يغدو القتل سمةً طبيعيّةً في زماننا هذا، وعلينا الاعتياد عليه والتعايش معه. ميّتٌ على الغداء، جثّةٌ خلال سباق الأحصنة، إهانة الذات الإلهيّة؛ باتت كلّ هذه الأمور طبيعيّة. من الغريب أنّ في هذا القصر العظيم لا يوجد تابوتٌ يرقد فيه قتيلٌ ما! ناهيك عن عدم اكتراثنا بأوجاع السيّدة المحترمة التي تستضيفنا، وهي تعايش الآن عاصفةً تقذفها إلى غياهب الإحباط. إنّ منطق الحوادث يقتضي اعتبار صلتها بأخيها، في هذه الحالة، محض صدفةٍ ينبغي تجاهلها».



بييترو بيمبو

وبينما كان الشابّ يدلي بدلو بلاغته مدافعًا عن لوكريسيا، نهضت ومرّت من خلفه. توقّفت برهة، التفتت نحوه وسألته: «هل حضرتكم الشاعر بيترو بيمبو؟».

«أجل يا سيّدتي».

«أشكر حضرتكم لأنكم أخذتم يأسي بعين الاعتبار، وأتمنّى أن ألتقي بكم مرّة أخرى». تمشي فيتبعها ستروتسي الذي يستدير نحو المدعوّين ويرجوهم أن يتفهّموا الحالة.

ينفضّ الجميع.

نهض بيمبو كالآخرين، فإذا ستروتسي يشير إليه بالمجيء؛ وبعد لحظة يجد نفسه في إحدى القاعات التي فيها شرفة واسعة.

السيّدة هناك، في الهواء الطلق.

«تقدّم يا سيّدي، فالظلّ يمنعني من رؤيتك جيدًا».

يخطو بيمبو بضع خطوات ويتوقّف في وسط القاعة، على مسافة قريبة من لوكريسيا.

«سيدتي...»، يحدّق إليها مذهولًا، وتغلبه الحيرة في ما يقول.

تأتي إليه لوكريسيا، تمسك بيده مبتسمة وتقول: «ما أجملك أيّها الفتى رافايلو، خلّدْني في إحدى لوحاتك، وعانقني. إن أبيتَ حبّي يا رافايلو الوسيم، فامحُني من لوحتك. أفضّل الموت على أن لا أكون ملكك».

ينظر إليها مشوّشًا. ويقول بعد سكتة طويلة: «ربّما ظننتِني شخصًا آخر يا مولاتي...».

«بالضبط!»، تضحك لوكريسيا. «أنت تشبه الرسّام رافايلو جدًّا، فتذكّرتُ هذه الأشعار التي أهدتها له نساء روما. وهذا الشبه من صالحك».

«سيدتي - يتردّد بيمبو - أنت تخطفينني من الواقع وتبلغين بي عالم الخيال بعيدًا من أيّ زمان ومكان. ويشرّفني أن تخصّينني بهذا من دون الرجال كي أحتفظ لنفسي بهذا الإغواء».

«مستحيل... من أين لك القدرة على التعبير بهذه التشبيهات البليغة!»، تعلّق لوكريسيا مذهولة: «عد إليّ مرة أخرى، يا سيّدي. كي يتناوب كلّ منا سحره على الآخر».

يتكلّم عن الحبّ ويمشي مع الأعرج

يلهث هرقل ستروتسي، متّكئًا على عكّازه، وهو يجري خلف بيمبو الذي أسرع من سيره في شوارع فيرارا بلا اكتراثٍ لأيّ شيء من حوله.

«قلت لي إنّها جميلة ولطيفة. لماذا كذبت على صديقك يا هرقل العزيز؟».

«بم كذبت؟».

«لوكريسيا أسمى من كلّ هذه الأوصاف! أخذتني للقائها ولم تحذّرني بأنّي سأمشي على حبال المستحيل أمام جمالها الفتّاك».

«ليت معي أوراقًا - يمازحه ستروتسي وهو يتوقّف لالتقاط أنفاسه - لعلّي أكتب ما ترتجله الآن من شعرٍ فتّان، يا عزيزي بييترو. خسارة أنّك تلقيه بالعاميّة!».

يلتفت بيمبو ويرمق صديقه بابتسامةٍ حادّة: «اسمعني يا هرقل. تعلّم الكتابة بالعاميّة! فهكذا ستقرأ أشعارك نساءٌ يعرفن معنى الحبّ».

«يبدو لي أنّي سمعتُ هذه من قبل[1]... بأيّ حال، سأجرّب طالما أنت من ينصحني يا صديقي. فقد دعتني مولاتي لوكريسيا إلى حفلة راقصة تقام في قصر «الأزاهير الجميلة» بعد عدّة أيّام».

«هل تلقّيتَ الدعوة؟»، يهتف بيمبو: «وماذا عنّي؟».

يغمغم ستروتسي: «ما فهمتُه يا صديقي أنّك لم تعد بحاجة إلى دعوة».

من أقسى العقوبات أن تُحرَم من التحرّق في ضرام الحبّ

كانت صالات قصر «الأزاهير الجميلة» مزيّنة بأبهى الورود والتصاميم، احتفالًا بتلك الأمسية الراقصة؛ كما جاء المدعوّون متأنّقين وكأنّهم يتنافسون على انتزاع لقب الفارس والأميرة الأكثر جمالًا. نحن في الخامس عشر من يناير، والريح تهبّ بقوة، والسماء صافية بفعل ساحر، والقمر يبسط ضياءه المتلألئ على وجه الأرض. ينزوي بيمبو وستروتسي عند إحدى النوافذ.

سأل الأول بنبرة متألمة: «هل ستأتي؟».

---

(1) «أيّتها النساء اللواتي تعرفن معنى الحبّ/ سأحدّثكنّ عن حبيبتي» مطلع قصيدة للشاعر الأعظم دانتي، يتغزّل فيها ببهاء حبيبته بياتريشه، التي خصّها بأبلغ أشعاره المؤلّفة بالعاميّة. [المترجم].

«هي التي دعتنا»، أجاب الثاني واضعًا يده على كتف صديقه: «من المعيب ألّا تأتي».

وكأنّها لبّت نداءه، تدخل لوكريسيا مع بعض الوصيفات إلى الصالة، بفستانها القرمزيّ.

تتوقّف وسط الصالة، لتتلقّى إعجاب الجميع، وتنظر حولها.

فإذا بنظراتها تتقاطع مع نظرات بيمبو، فتقترب منه وتمدّ يدها قائلة: «أنا متأكدة يا سيّد بييترو أنّك الوحيد الذي بوسعه التكهّن بأفضل مكافأة أودّ الحصول عليها هذا المساء».

ينظر هرقل ستروتسي مستغربًا، إلى لوكريسيا أوّلًا ثمّ إلى صديقه الذي يصافح السيّدة ببطء ويدعوها للحاق به.

يصلان إلى النافذة الكبيرة، التي تشرف على الحديقة، فيفتحها بيمبو على مصراعيها ويقول: «انظري إلى الأعلى»، يشير إلى القمر. «طلع القمر من إحدى النوافذ/ ووجه حبيبتي ينعكس فيه/ كم أنت ناصع البياض يا قمرًا/ يرتدي لون السحاب».

تهتف لوكريسيا: «هذا ليس عدلًا، لن أستطيع مجاراتك في البلاغة يا سيّدي...»

«سيّدتي، هل ترين من الحكمة تأليب الألسن الحاقدة؟».

«ماذا تقصد؟»، تسأله لوكريسيا متظاهرة بالسذاجة.

يرتبك بيمبو: «أقصد أنّك تهتمّين بضيفٍ واحد من دون الآخرين وتتجاهلين الجميع...».

تبتسم. «لقد اتهموني بالكثير من الشائعات التي لا أساس لها من الصحة. لعلّي أرتكب الآن خطأ، يستحقّ العناء على الأقلّ...»

«أمّا أنا فأعتقد بأنّ الأشياء الجميلة تكتسب قيمة إذا ظلّت مخفيّة عن أعين العالم».

«فماذا تخفي عني، إن كان الأمر كذلك؟».

«أحتاج إلى أكثر من كتاب كي أسرد عليك ما أخفيه، مولاتي».

تشدّ يده، ثمّ تتركها تسقط، وتبتعد عنه صوب المدعوّين الآخرين.

بعد عدّة أيام، يلتقي الصديقان في حديقة بيت ستروتسي. يأتي الخادم ويسلّم سيّده ورقة مطويّة ومختومة.

يمسك ستروتسي بالرسالة، يلقي عليها نظرة، ثمّ يعطيها لبيمبو: «إنّها لك، وأعتقد بأنك تعرف مَن المرسل».

يقرأ بيمبو بعض السطور ثمّ يقول لصاحبه: «وأعرف فحواها مسبقًا. إنّه مقطعٌ شعريّ ألقته لوكريسيا على مسامعي في آخر لقاء. أعجبتُ به وطلبتُ أن ترسله إليّ مكتوبًا». يعطي الورقة لستروتسي ويضيف: «هلّا قرأتها عليّ بصوتك الجهير؟».

«لكنّها مكتوبة بالأراغونية».

«بالتأكيد. ألّفها الشاعر الإسباني لوبي دي إستونيغا. اقرأها عمومًا حتى لو لم تفهم كلماتها، سأترجم لك».

يقرأ الصديق: «*Yo pienso si me muriese*».

يترجم بيمبو: «أفكّر إن كُتب عليّ الموت».

يتابع ستروتسي: «*Y con mis males finase desear*»

«وكففتُ عن التحرّق في ضرام الحبّ».

«*Tan grande amor fenesciese que todo el mundo quedas sin amar*.»

«وتلاشى هذا الحبّ العظيم، فقد يغدو العالم كلّه بلا حبّ».

«*Mas esto considerando mi tarde morir esluego tanto bueno*»

«وكلّما فكّرتُ، أجّل الموت رحيلي، وهذا كلّ ما أبتغيه».

يعطي ستروتسي الرسالة لصديقه.

«لم أرَ حظًا سعيدًا مثل حظّك يا صاحبي. هل تعي ما يحدث؟ لوكريسيا تعترف لك بحبّها، بشعر شاعرٍ غريب، وليس سوى الموت ما يُخمد ولعها بك!».

مبارزة بين مقاتلين متنكّرين كالدمى

نحن على تخوم فيرارا، في مستودعٍ سقفه كهيكل زورقٍ مقلوب. هناك حيث شُيّدتْ أكاديمية معتبرةٌ لحمل السلاح، يتدرّب فيها المقاتلون على مبارزات راجلة أو على ظهر الخيل، ويتمرّنون على الوكز والصدّ والطعن الموغل. الضوضاء قائمةٌ طوال اليوم، بصيحات تحفيز تحيلك إلى صراع دمويّ. سوى أنّ الخيول والدروع والرماح والسيوف كلّها خشب.

يُزاح حينذاك ستارٌ صغير، وتظهر من خلفه لوكريسيا ملثمة الوجه، مصدومة بما ترى.

«ما هذا؟»، تسأل المدرّب الذي يرافقها: «هل تستخدمون الدمى للتحضير للكرنفال؟».

«لا يا سيدّتي. تلك الدمى ليست سوى مبارزين شجعان».

«وتلك الأحصنة الخشب؟».

«عادة ما نستخدم هذه المجسّمات كي لا نعرّض الخيول الحقيقية للسقوط والأذى خلال التمارين. لا تنخدعي بالمظهر الهزليّ! فهؤلاء الفرسان يتعلّمون بهذه المبارزة المصطنعة أكثر من القتال على أرض المعركة».

في تلك اللحظة، يتأرجح حصانٌ هزّاز، مشدود الوثاق كأنّه مجنون، فيقع من على ظهره الفارس ويتدحرج أرضًا. يهرع أربعة خدم لينهضوه على قدميه. ثمّ يسحبونه خارج المضمار.

تهتف لوكريسيا: «ما الذي حدث؟هل مات؟».

«لا، لحسن الحظّ كان مدرّعًا بتلك الأغطية. سيكون مستعدًا لركوب حصانه الخشب بعد قليل. آه! ها هو السيّد الذي جئت تبحثين عنه يا مولاتي!».

«أين؟ أهوَ ذاك الآتي نحونا مقنّعًا من رأسه حتى قدميه؟».

«أجل، هو الذي غلب خصمه منذ قليل»، ثمّ ينحني أمامها وينصرف.

تصل الدمية المتحرّكة قرب لوكريسيا. يترجّل الفارس ويدفع السيدّة برفقٍ خلف الستار إلى مستودع السيوف والرماح الخشب ويغلق الباب. ثمّ ينزع قناعه القصب ليظهر وجه بييترو بيمبو.

«مولاتي!»، ينظر حوله مذعورًا: «أيّ جنون جاء بك إلى هنا، بمفردك في وضح النهار!».

«أعلم يا بييترو العزيز، لكنّي لم أعد أحتمل!».

تفلت ابتسامة على وجه بيمبو لكنّه يلحّ: «علينا أن نتوخّى الحذر يا لوكريسيا، نحن مراقَبون، إنّهم يتلصّصون علينا في كلّ لحظة، والآن أيضًا...»، ينظر حوله: «هل أنت متأكدة من أنّ أحدًا لم يتبعك؟».

«اطمئنّ، إنّي...».

«لا يمكنني الاطمئنان، فهذا يُنقص من واجبي تجاهك يا مولاتي!».

«لقد كتبت لك، وانتظرت أيّامًا بأكملها من دون أن أتلقّى جوابًا، فانشغل بالي!».

«اخفضي صوتك يا مولاتي أرجوكِ!».

«ممّ تخاف؟ لن يسمعنا أحد هنا. يبدون عرائس في مسارح الكرنفال!».

يقاطعها: «انتظري، قلت إنّك كتبت لي. لكنّي لم أتلقَ شيئًا من رسائلك منذ أيّام».

«كيف لا؟ أرسلت أربع رسائل على الأقلّ، ماذا يعني هذا؟».

«هذا يعني أنّ أحدًا سرقها، وقرأها، وربّما نسخها!».

«لا تصرخ بي هكذا. لو تعلم كم تعذّبتُ كي أكتب بأسلوب بليغ مثلك...».

لا يتمالك بيمبو نفسه عند سماعه ذلك الصوت وتلك الكلمات، فيمسك خصرها ويقبّلها بشدّة. تلتقط أنفاسها حين ينفصلان، وتعلّق هامسة: «أوفيتني أضعاف ما أرجو، فقبّلني مزيدًا!».

لا ينتظر بيمبو طلبها، ويغمرها بقبلة طويلة.

«لا أقاوم جمالك يا لوكريسيا؛ ولكن علينا أن نتوخّى الحذر».

«هل تقصد أنني لن أستطيع أن أراسلك؟».

«كلا. لم أقصد هذا البتّة. إنّها الطريقة الوحيدة التي تجعلني أشعر بقربك مني. ولكن ينبغي استخدام حيلة ما، أن نقول كلّ شيء من دون أن يفهم الآخرون ما نقول».

«موافقة. بدايةً، لم يعد اسمي لوكريسيا».

«بم أسمّيك إذًا؟»

«ف. ف.».

«لماذا؟».

«تمعّن قليلًا وستفهم القصد بمفردك».

يصاب الشاعر بحمّى الهوى إذًا، ولكنّه ليس الداء الوحيد الذي يصيبه. في شهر أغسطس، بينما كان عائدًا من إحدى الرحلات، تصادفه المالاريا التي تحصد العديد من الأرواح في فيرارا وأريافها. اضطرّ للمكوث منعزلًا كي يُجنّب الآخرين العدوى، فبات من المستحيل أن يلتقي بلوكريسيا.

ذات صباح، يسمع خادمه المرافق صهيل خيلٍ عند مدخل المنزل. يهمّ للتأكد فإذا لوكريسيا تفتح الباب وتصعد السلالم.

يتلعثم الخادم: «مولاتي، إيّاك أن تقتربي منه... هذا خطير... قد تنتقل إليك العدوى».

وما لبث يحذّرها حتّى فتحت السيّدة باب الغرفة لتجد بيمبو راقدًا على السرير، غافيًا ولم ينتبه لحضورها في الوهلة الأولى.

«حبيبي... هذه أنا يا بييترو».

يلتفت بيمبو وينظر إليها: «عذرًا، لا أرى جيدًا. من أنت؟».

تمسك معصمه، ثم تقرّب وجهها من جبينه: «لا ترهقْ نفسك. يا إلهي! إنّك تشتعل!».

بييترو يتأوّه: «من أنت؟ لا تقتربي مني... هذا خطير... لوكريسيا! أنتِ لوكريسيا!».

«أجل، أنا لوكريسيا».

«عرفتكِ من عطركِ الفتّان» تعانقه، فيصرخ: «كلا. لا يجوز. قد تموتين أنت أيضًا».

في تلك الأثناء، تدخل امرأة تحمل وعاءً وبعض المناشف. فتسألها لوكريسيا: «ما هذا؟».

«إنّها مياه باردة».

«أحسنت، أعطني إياها».

تمسك منشفة وتغرقها في الماء. ثمّ تبسطها على جبينه وهو يئنّ. تتفحّص رقبته وصدره بيدها وتصيح: «إنّه يتصبّب عرقًا».

«إنّها الملاريا يا مولاتي...».

«من غير المعقول أن نتركه غارقًا في عرقه! لا سيّما في غرفة متجمّدة كهذه. هل لديكم مرجل؟».

«أجل، إنّه في الأسفل. سآتي به حالًا».

تدفع الخادمة المرجل أمامها، وترفع لوكريسيا الأغطية وتقول: «علينا أن ننزع ثيابه!».

«ننزع ثيابه؟».

«طبعًا، علينا أن ننشّف جسده. أتريدين أن تتركيه متعرقًا هكذا؟ ساعديني!».

«بكلّ سرور». ويشرعان في تنشيف جسمه.

تعلّق لوكريسيا مازحةً: «يا إلهي! حتّى القديس سيباستيان لم يعانِ هكذا... ها قد جفّ العرق».

تعلّق الخادمة: «سيتصبّب عرقًا بعد قليل مرّة أخرى».

تقول لوكريسيا: «إذًا، سنفعل كما نداوي الأطفال المصابين بالحمّى».

«كيف؟ ما شأن الأطفال؟».

«أليس لديك أولاد؟».

«بلى».

«ماذا تفعلين حين يصاب أحدهم بالحمّى؟ ألا تضمّينه إليك حتى تخفّ حرارته؟».

«طبعًا».

«سأحاول تخفيف حرارته إذًا». تنزع ثيابها وتغطس تحت الأغطية بجواره. وتقول للمرأة: «اذهبي أنت. وإيّاك أن تُدخِلي أحدًا كي لا يستيقظ».

يتأوّه بيمبو: «إنّي أرتجف... يا إلهي، ما هذا البرد...».

«حسنًا، حسنًا. ستتحسّن بعد قليل. ابقَ قريبًا مني... اقترب أكثر... أكثر».

المرأة الشاحبة المتشحة بالسواد تنسلّ دومًا من دون أن تطرق الباب

في الصيف، حين كان القيظ يجتاح روما، اعتاد البلاط البابويّ اللجوء إلى تلال ألباني لالتقاط النسمات المنعشة[1]. لكنّ البابا ألكسندر السادس، في أغسطس 1503، فضّل البقاء في روما ليتابع الأوضاع السياسيّة بنفسه، فالجيوش الفرنسيّة على مقربةٍ منه، تصارع الإسبان على مملكة نابولي.

بلغ من العمر اثنين وسبعين عامًا، وها هو يحاول الصمود أمام هذا القيظ، إذ ذهب لتناول العشاء عند الكاردينال أدريانو كاستليزي دي كورنيتو، على التلال المحاذية لروما، يرافقه الفالنتين ورجالُ دينٍ آخرون. يشربون نخب السهرة، نبيذًا صافيًا ومنعشًا، ويهمّون بتناول العشاء.

يشعر أحد الضيوف بالغثيان فجأة، وينزلق عن الأريكة. ينهض البابا ألكسندر ليساعده، لكنّه يسقط أرضًا بدوره، ويتبعه ابنه الذي يتشبّث بصاحب المنزل ويقعان معًا على الأرض. لكنّ أسوأهم حالًا هو شيزاري الذي تقيّأ مرارًا، فأسعفوه بالكثير من الحليب، بعد أن أدركوا السبب: «لقد تجرّع سمًّا».

يُسعَف البابا وابنه إلى الفاتيكان مباشرة. يتمّ التعامل بسريّة تامّة مع الداء الذي أصاب بورجا الأب والابن، وباقي الأساقفة والنبلاء. تتسرّب بعض الأنباء طبعًا، وقد رجّح الخوارنة، الذين يمتلكون معلومات موثوقة، حمّى المالاريا. إلّا أنّه من الغرابة أن يُصاب هذا

---

(1) S. Bradford, *op. cit.*, p. 177. [المؤلّف].

الجمع من الرجال المقدّسين والمباركين بذاك الداء الخطير، كلّهم في اللحظة ذاتها.

بينما أكّد راهب آخر أنّ ملابساتٍ وأخطاء متسلسلة ألقت بظلالها على الواقعة. إذ كان السمّ موجّهًا للكاردينال كاستليزي، صاحب المنزل، ثمّ تكفّلت الفوضى في سكب النبيذ وتقديمه بالخطأ إلى الضيوف. لاحِظوا جيدًا أنّ هذه السلسلة من الأخطاء والعثرات، في تبديل الكؤوس المسمّمة، تتكرّر في ما لا يحصى من التمثيليّات الكوميديّة، بعد تلك الحادثة؛ حيث يقلّد الممثلون دور البابا والمدعوّين بأزياء وأقنعة فنيّة.

لكنّ المخالطات العبثيّة، بطابعها الهزليّ، لا تكتفي بهذا القدْر. تتحدّث الشائعات، في الأيام اللاحقة، أنّ البابا يتماثل للشفاء في حين يدنو الفالنتين من الموت. فإذا بمساء الثامن عشر من أغسطس 1503، أي بعد ثلاثة عشر يومًا من العشاء الدمويّ، يشهد وفاة ألكسندر السادس بعد احتضارٍ مؤلم. كان شيزاري راقدًا على السرير في الطابق الأعلى؛ وما إن يتلقّى الخبر حتّى يهبط إلى الطابق الأسفل، ويرى أباه هامدًا، فينفجر في بكاءٍ ساخط.

وسرعان ما يستعيد رشده ويصرخ إلى رجاله: «هيّا! احملوا المجوهرات والفضّة والأموال بعيدًا! بسرعة! ثمّة ما لا يقلّ عن ثلاثمائة ألف دوقيّة هنا في جناح والدي!».

كان عليه أن يستعجل؛ فالخدم، في اللحظة نفسها، فتّشوا جناح البابا، غرفة غرفة، كما يحدث في أيّ مسرحيّة محترمة.

لا يسهر أحدٌ عند جثمانه ليلًا. وفي اليوم التالي، يتركونه على

منصّة النعش، لأنّ الحرّاس منشغلون في سرقة الشموع. وهكذا تتفسّخ جثة رودريغو بشكل مريع، حتّى اسودّ وجهه كليًا وانتفخ لسانه وانفتح شدقه. ثمّ يحدث ما لا يصدّق: عندما يدركون أنّ النعش أصغر من أن يسع الجثمان، ينزعون عنه رداءه المذهّب، لكنّ ذلك لا يحلّ المشكلة؛ فيعمدون إلى حشر الجثّة بالإكراه، ضغطًا ورفسًا[1].

يتعرّف الأبناء إلى رائحة أمّهاتهم من دون مساعدة من أحد

في غمرة تلك الحوادث، يخطر ابن لوكريسيا على بالها. كانت ذكراه أكثر ما يسبّب لها العذاب، وغالبًا ما يجعلها تشعر بأنّها امرأة ذليلة. لكنّ رغبتها بالسفر إلى روما لمعانقة ابنها كانت دائمًا ما تذوب في تلك العادات البالية، التي لا تسمح لها بتوضيح مشاعرها الأموميّة مع زوجها.

أمّا حينذاك بدا لها أنّ العالم يتداعى على رأسها، فنجحت في التهرّب من أيّ تبرير، لتقطع المسافة على حصانها بلا استراحة، لعلّها تلقي تحيّة الوداع على أبيها، وتلتقي بابنها المنسيّ، في أقرب وقت ممكن.

وحين وصلت إلى روما، علمتْ أنّ طفلها برفقة مربّيته، يمتطي الخيل في ملاعب الكولوسيوم. فتتجه إلى هناك، وتراه وحيدًا على مهرة تحاول أن تقذفه عنها. تترجّل وتذهب نحوه.

«مرحبًا أيّها الطفل العزيز، هل عرفتني؟».

---

(1) *Ibidem*. [المؤلّف].

ينظر إليها الطفل قليلًا ثمّ يقول: «لا يا سيدّتي. اعذريني فإنّ آسونتا مربّيتي أوصتني بعدم التكلّم مع الغرباء».

«ولكنّي لست غريبة عنك يا عزيزي. أنا والدتك».

«حقًّا؟ قالوا لي إنّها ماتت...».

«ربّاه! هل تقول الحقيقة؟ بئس ما أفعله... أغيب عن الطفل عامين، فيبلغ عامه الرابع، وأطالبه بأن يعانقني، هكذا بكلّ بساطة...».

«لا أفهم عمّا تتحدّثين يا سيدتي... ربّما أخطأتِ الطفل. المعذرة، جاءت آسونتا. أستأذنك الذهاب». يلكز مهرته وينصرف.

تكبت لوكريسيا دموعها، وتقرّر أن تلقي تحيّة الوداع على أبيها.

وحين تصل إلى الفاتيكان، يصادفها شقيقها الجزّار وهو ينزل السلالم، فيمنعها من الصعود. «أرجوك، لا تذهبي لرؤيته. لقد شوّه الداء وجهه. لا أريد أن تحتفظي بذكرى أليمة عن أبينا. بل أنصحك بالرحيل عن هذه المدينة حالًا. لقد اندلعت الثورات في معظم الأحياء، والشعب يحمّلنا، نحن آل بورجا، المسؤوليّة عن كلّ المصائب التي لحقت به».

تقتنع لوكريسيا. تحاول أن تُرسل تحيّة وداع لأخيها لكنّه يختفي.

تتجوّل وحيدة بين سلالم الفاتيكان، مشتّتة الذهن. لا تفارقها صورة ابنها الذي أضاعته إلى الأبد. تستريح على مقعدٍ عند أحد مداخل القصر وتبكي بصمت. وفجأة تحنو يدٌ على يدها. تلتفت مذعورة فترى هرقل، والد زوجها. ترتمي بين أحضانه، دون أن تقول شيئًا، وتنفجر باكية.

«شكرًا، شكرًا يا سيدي... يا أبي»، هذا ما تقوى على قوله.

«آه!»، يبتسم الدوق. «ومن يدري أين كنّا، لو كان عندي ابنة مثلك، بدل أن نبكي هنا!».

«ما أطيب كلماتك. أنت الوحيد الذي تبعني من فيرارا إلى روما كي يساندني».

«ما كنت لأسمح بأن تذهبي بمفردك. لا يمكنك أن تتخيّلي المودّة التي أكنّها لكِ...».

«إنني أثق بك أكثر ممّا كنت أثق بوالدي. لو كنتَ والدي لما تهاونتُ في قول الحقيقة».

«أفهمك، لأنّي أعرف تمامًا ماذا تعني الوحدة».

«حقًّا. كلانا يعاني من الوحدة. زوجي يقضّي معظم السنة بعيدًا في الشمال، وغالبًا ما تصلني رسائله النادرة بالتزامن مع عودته».

«أتساءل لماذا يكثر ألفونسو من سفره؟ ما الذي ينقصه في مدينته فيرارا؟ يقول إنّي أنا مَن يرسله إلى الخارج لتعلّم فنون القتال والعلوم العسكريّة؛ لكنّ هذا ليس صحيحًا...».

«أتعلم بما أفكر؟».

«بم؟»

«بأنّ زوجي لا يحتمل العيش معنا».

«وما السبب؟ في فيرارا كلّ ما يشتهي المرء؛ عدا عن وجود المواهب الفذّة في مجالات الفنون والعلوم».

«هذا ما يزعجه تحديدًا! يشعر بأنّه محاصَرٌ من العباقرة والأبنية ذي العمران الباهر وشعبٍ متمدّن يقدّر قيمة المعرفة».

«حقًّا. لا أفهم ما الذي يجعله يفضّل المدافع والقذائف!».

«القذائف؟».

«بالتأكيد. تعلمين أنّه مولعٌ بهذه الفنون حتى الجنون. لقد صمّم مدفعًا بنفسه!».

«أجل. لطالما حاول أن يحدّثني عن اهتماماته، لكنّي لا أطيق الحديث فيها...».

«تخيّلي أنّه سيحكم دوقيّة فيرارا ما إن أموت! وكيف يتجهّز لتولّي شؤون المدينة؛ هل يُطلق مشاريع الريّ لسقاية الحقول؛ هل يطوّر الطبّ لمداواة شعبه؟ كلا. بل يتجهّز للحرب، فنّ التدمير، بعبارة أخرى! ذات يوم سألتُه: «أيّ مصيرٍ لهذه المدينة تفضّل يا ألفونسو؟ مصير أثينا أم إسبارطة؟» فأجابني: «إسبارطة، بالتأكيد!». «إسبارطة! هل تودّ زيارتها؟». «أجل!». «حسنًا؛ لن تجد حتّى أطلالها؛ لقد مُحيت المدينة ولم يعد لها وجود، ولا أحد يعلم أين موقعها»».

«وبم أجاب حينها؟».

«صمت لحظة ثمّ قال غاضبًا: «حسنًا، من الأفضل أن نكون أحياء من أن نموت ميْتةً جميلة!» وانصرف».

«يا لها من إجابة رائعة! لعلّه يتحالف مع أخي الفالنتين. تخيّلْ حجم التعاضد في بلوغ المجد رقصًا على قبور الأبرياء!».

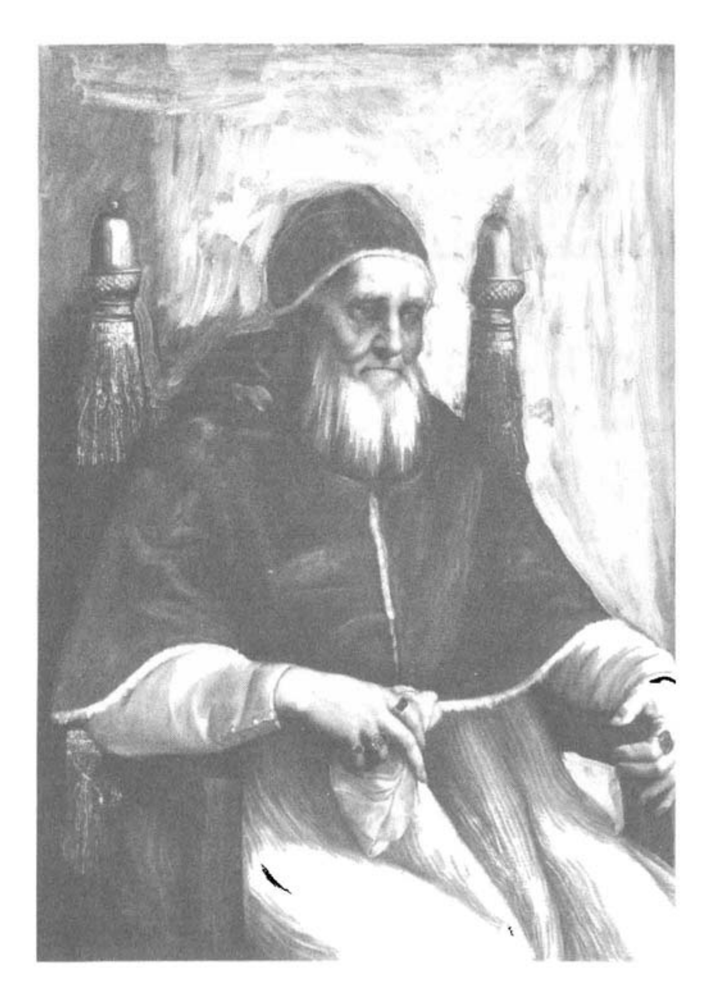
«سمعتُ عن الندوات التي تقيمينها مع الشعراء... والتردّد إلى أولئك الأدباء...».

تتجمّد لوكريسيا وترمقه بارتباك. ينتبه الدوق لذلك فيستدرك:

«لا يا ابنتي... لم أقصد الملامة... بل إنّني أفهمك... لا حياة بلا كلمة وفكرة. وإنّ امرأة مثلك، تدرس اليونانيّة منذ أن كانت صغيرة، وتجيد قراءة اللاتينيّة، وكانت تشغل وقتها في روما بزيارة القصور والاطلاع على التاريخ وتذوّق الأعمال الفنيّة، بحاجة دومًا للتغذّي من مناهل هذا الجمال...».

«شكرًا. أصبتَ القول. لديّ الكثير من الكتب، وأبحث دومًا عن كتب جديدة. القراءة تمدّني بسعادة بالغة، لكنّني في حاجة ماسّة إلى مناقشة ما يراودني من أفكار، والروابط بين الاكتشافات الحديثة، واللغات، والربّ على وجه الخصوص. لطالما كنت محاطة بالأساقفة والقساوسة والكرادلة، ومقرّبة من الحبر الأعظم، لكنّ الصلاة وحدها لا تساعدني على تخطّي اليأس. بل إنّ فكرةً جديدةً، يصدح بها الحكماء والحكيمات، تسحرني فتخلّصني غالبًا من براثن الخيبة القاتلة».

الجزء الثاني



البابا يوليوس الثاني

بلوغ أرذل العمر لا يكفي لاكتساب الحكمة

كاد الموت ينال من الفالنتين - أيًّا كانت الطريقة، داءً أم تسمّمًا - لكنّ هذا الحظّ السعيد كان آخر ما جادت به الأقدار على آل بورجا. فغالبًا ما تستمتع إلهة الموت بازدراء المغلوبين، وذلك بإعطائهم فرصة أخرى للنجاة.

بالفعل، بعد مضيّ قرابة شهر على رحيل ألكسندر السادس، ينتخب المجمعُ فرانشسكو توديسكيني بيكولوميني، بلقب بيوس الثالث، الذي يُبقي شيزاري قائدًا عامًّا للكنيسة وحامل لواء جيشها. ولسوء الحظّ، لا يكاد الحبر الجديد يفوّض الرسّام بينتوريكو العمل على تزيين مكتبة بيكولوميني، في كاتدرائيّة سيينا، حتى يُصاب بقرحة الساق، ويوارى الثرى بعد ستة وعشرين يومًا فقط من تولّيه العرش.

وكان الاسم، الذي رَشَح عن جلسات المجمع التالي، أسوأ ما قد يتوقّعه الفالنتين. فها هو جوليانو ديلا روفيري، عدوّ آل بورجا اللدود، بعد أن قضى أحد عشر عامًا يعارض البابا ألكسندر بلا جدوى، يتربّع على عرش القدّيس بطرس، بلقب يوليوس الثاني. وسرعان ما يلغي كلّ الصلاحيات والامتيازات التي حصل عليها

الفالنتين من البابا الراحل. وكما في لعبة الرهان الميلانيّة؛ ينال آخر أمراء بورجا بطاقة «لا شيء»، ما يعني أنّ المقامر خسر حتى ثيابه الداخليّة. إذ كان شيزاري من بين مَن أيّد انتخاب الحبر الجديد، آملًا أن يحصل جرّاء معروفه على مقابل؛ فإذا به يفاوض للحفاظ على فتات ملكيّاته، متنازلًا للبابا عن بعض القلاع في مقاطعة رومانيا، لكنّ وضعه ازداد تدهورًا.

وبعد أن خسر معظم جبروته بوفاة والده، تعرّضت مشاريع الفالنتين للخطر مجدّدًا، بما فيها هيمنته على رومانيا، وحياته نفسها. قرّر يوليوس الثاني أن يبتّ بالأمر حالًا، وذلك بعدما استفزّه نفرٌ من الأمراء الموالين لشيزاري، إذ أعدموا الرسول البابويّ الذي جاء يحثّهم على الاستسلام. بالنسبة إلى البابا، كان الفالنتين بمثابة عقبة تعرقل سياساته، ولا بدّ أن يفتّتها. وهكذا، بمؤازرة جمهورية البندقيّة التي كانت تودّ تقسيم غنائم تلك المنطقة، أمر البابا بحرب مقدّسة لاستعادة المقاطعة برمّتها.

حاول شيزاري أن يناور لعلّه يسدّ الثغرات، فتحالف أوّلًا مع الاسبان، ثمّ مع الفرنسيّين، بينما تندلع الثورات في رومانيا بغرض الإطاحة به وإعادة العرش إلى السادة القدامى.

تتأهّب لوكريسيا (لا أحد يشكّ بشجاعتها وإقدامها) وتحشد الجيوش لإنقاذ أخيها من الدمار الشامل؛ ولعلّ من المنطقيّ أنّها فكّرت بنفسها أيضًا، فهي زوجة ألفونسو دا إيستي.

لكنّ ابنة البابا تجد نفسها وحيدة بالمطلق، وبدا موقفها ضعيفًا رغم أنّها زوجة الدوق القادم. لم يقف معها، في تلك المحنة، سوى

هرقل ستروتسي، وبييترو بيمبو الذي سارع بالمجيء إليها ليشدّ من أزرها. وما إن رآها في ظلام إحدى الغرف، وقد مزّقها الألم بكلّ ما للكلمة من معنى، حتى جرّده الإحباط من قول أو فعل أيّ شيء، ففضّل العودة من حيث أتى.

وبينما كان ينزل السلالم، يتسمّر في مكانه، ويتساءل بصوت محروق: «ماذا أفعل، يا ربّ! أراني أتصرّف كمهرّجي البلاط. أجبنُ إذا أخذت الأمورُ منحىً خطيرًا، فأرتدي الملاءة واللثام وألوذ بالفرار».

يرجع إلى الخلف، ثمّ يصعد السلالم راكضًا. يدخل الغرفة فتنتفض لوكريسيا واقفة، وتدفعها الدهشة لمعانقة حبيبها: «كنت أخشى ألّا أراك بعدئذ».

«في الحقيقة، حين رأيتك منذ قليل جالسة على هذا السرير، فقدتُ القدرة على الكلام والشجاعة للوقوف بجانبك».

تقول وهي تداعب وجهه: «لست مشتاقة إلى كلماتك فحسب بل إلى وجودك أيضًا».

«أتمنّى حقًّا أن يكون وجودي كافيًا ليزيل آلامك».

«عانقني! أرجوك! من لي سواك الآن؟».

«من لك؟ أنتِ نفسك يا لوكريسيا! لم ألتقِ بشَجاعةٍ تجاري شجاعتك! ألا ترين؟ لا تزالين تفكّرين بالآخرين، في هذه اللحظات، بينما يتداعى كلّ شيء فوق رأسك!».

«ماذا تقصد؟».

يبتسم بيمبو: «لا عليك! لم أكن لأخونك أبدًا».

«هل تقصد أنّك على علمٍ بما جرى؟».

«أجل، وحين وردني الخبر، غمرتني المحبّة ونظرة الإعجاب بك... لا أصدّق في الحقيقة... شقيقك الهمجيّ، الذي نغّص عليك حياتك، وقتل الرجل الذي تهوين، يتعرّض الآن لأشدّ المخاطر... وبدل أن تتركيه يواجه مصيره، تجهّزين لمؤازرته جيشًا تنفقين عليه من جيبك!».

تهمهم: «أتوسّل إليك أن تخفضْ صوتك! إن كُشف الأمر، قُضي عليّ أنا أيضًا!».

«المعذرة، معك حقّ. لكنّ ما تفعلينه عظيمٌ ويلهب الحماسة!».

«من أخبرك بذلك؟».

«ألا تشكّين بأحد؟».

«لا. لقد أوصيتُ بأعلى درجات السريّة».

«أخبرني مدرّب القتال، الذي اصطحبك إليّ يومئذ، في الأكاديميّة الحربيّة. أطلعتُه على مخاوفي وطلبتُ منه النصح بما يتوجّب عليّ فعله. فابتسم وقال لي: «لا عليك، مولاتي تفكّر بالأمر!»».

تومئ لوكريسيا: «أجل إنّه يساعدني كثيرًا، وهو الذي تواصل مع المرتزقة، لكنّ الأمر سريٌّ حتى الساعة! تخيّل أنّنا استطعنا إلى الآن تجنيد ألفٍ من المشاة، وخمسمائة من الرماة، وما زلنا بحاجة لطاقم الفرسان...».

يقاطعها بيمبو: «مشاة ورماة وطاقم فرسان... هل تسمعين بنفسك ما تقولين؟ من أين لك هذه المصطلحات العسكريّة؟ تبدين

قائدًا مخضرمًا يحسن تجهيز الجيوش! أنتِ خارقة يا لوكريسيا، أرى أنّ حياتك عبرة ومثال عظيم! أنت... أنت...»، يرفعها عاليًا ويقبّلها.

تلتقط أنفاسها وتقول: «وإن كنتُ كذلك، فلماذا تطيل غيابك عني؟».

«معك حقّ. لكنّ انتهاز الفرص المناسِبة يغدو شبه مستحيل الآن وقد عاد زوجك... ثم إنّ والدي لا يلبث أن يستدعيني إلى البندقيّة...».

«حسنًا، حسنًا»، تقاطعه: «لا يهمّ. فلننتهز هذه الدقائق المعدودة! فكلانا يدرك حجم المصاعب... بالمحصّلة، زوجي الفظّ معه حقّ؛ من الأفضل أن نعيش ما دمنا على قيد الحياة!».

في المآزق الحرجة كلّ الحلول ملائمة

تدور رحى الحرب وتشتبك الجيوش. كان الهجوم على القلاع، التي ما زال أتباع بورجا يتحصّنون فيها، من بين أشدّ المعارك استعارًا. ورغم أنّ جيش البندقية يبثّ الرهبة في نفوس كلّ حكّام المدن الإيطالية، فإنّ المرتزقة، الذين جمعتهم لوكريسيا، وقادهم بيدرو راميريز، استطاعوا قهر الغزاة. لم يكن أحدٌ ليراهن، ولو بقرشٍ واحد، على انتصار تلك الفئة القليلة من الجنود. لكنّ المفاجأة الكبرى، فجّرها ممثّلو البابا يوليوس الثاني، في فيرارا، إذ استنكروا بشدّة وألقوا باللائمة على هرقل: «ألا تعتبرون ما حصل خيانة، يا فخامة الدوق؟ كيف تسمحون شخصيًا بدعم وتمويل

جيشٍ يهاجم قداسة البابا وحلفاءه؟ وكلّ هذا لإتباع سياسة معادية للكنيسة التي تدافع عن شرعيّة حقوقها في تلك المناطق؟ لا تنسَ، فخامتكم، أنّك إقطاعيّ تابعٌ لروما».

«ولأجل هذا، أنا الإقطاعيّ المتواضع، أتوخّى الحذر من دعم الفالنتين وشقيقته، كما تتهمني حضراتكم. لم أنفق أيّ قرش لتدبير ما وقع! لا تنقص زوجةَ ابني الوسائلُ والإمكانات لتُقدِمَ بمفردها على ما يحلو لها!».

كان من المتوقّع أن تبوء خطوة لوكريسيا السخيّة بالفشل. فبعد أن رفض شيزاري التنازل عن كلّ أملاكه، خرق يوليوس الثاني الهدنة، وقام في العشرين من ديسمبر بأسر الفالنتين وسجنه في جناح بورجا داخل الفاتيكان؛ تمامًا حيث قتل رجالُه زوج لوكريسيا الثاني.

يتجوّل السجين يائسًا في ذلك المعتقل الضيّق، بعد أن خاض الكثير من المعارك الموفّقة.

يناديه أحد الحرّاس في الممرّ: «بورجا، ثمّة زيارة لك!».

تقرقع المتاريس ليظهر آخر مَن كان السجين يتوقّع أن يراه.

«تحيّاتي. يؤسفني أن أراكم بهذه الحالة».

«المعذرة، ألست أنت سيادة الشاعر بيمبو، صديق شقيقتي؟».

«أجل».

«وكيف حصلت على الإذن بزيارتي؟».

«إنّي في روما أرافق والدي الذي أوفدته جمهورية البندقيّة في مهمّة. توسّط لي أمين مكتب البابا للسماح بزيارتكم».

«أتصوّر أنك جئت إلى هنا لتنقل إليّ تحيّات لوكريسيا».

«لا. لوكريسيا لا تعلم أنّني هنا. ولكن، حين أعود إلى البندقيّة سأنزل في فيرارا، ويسعدني أن أزفّها بخبر سارّ عن وضعك. بل آمل أن أنقل إليها خبر الإفراج عنك».

«جلّ ما أخشاه أنّ آمالك هذه لن تتحقّق».

«حسنًا. ربّما أستغلّ صداقاتي الشخصيّة في الفاتيكان كي أخرجك من هنا. كلّ ما في الأمر أن تتنازل عن القلاع لصالح البابا».

«هل جننت؟ القلاع هي آخر أوراقي!».

«تمامًا. العب هذه الورقة الأخيرة إذًا! عليك أن تدرك مدى صعوبة التوصّل إلى اتفاق مع البابا، لا سيّما أنّك أسيرٌ لديه، ومسجونٌ في هذا المكان الذي لا يليق بك. إن خرجتَ حيًّا من هنا، قد تتغيّر الأمور لصالحك. أمّا الآن فأنت تخاطر بحياتك ليس إلّا».

«ولماذا تسدي لي هذا المعروف؟ بحسب المعلومات التي وردتني، قبل اعتقالي، فإنّ علاقتك العاطفية مع لوكريسيا في أفضل أحوالها... أو كما يقال، تُبحر بشراع مرفوع».

«أجل، لقد مرّت العاصفة. لكنّي أكنّ لشقيقتك مودّة كبيرة. إنّها امرأة خارقة. لا بدّ أنّك عرفت بما فعلتْه لتدافع عن المناطق التي لا تزال تحت نفوذك».

«لا. ما بلغني أنّها كانت تجهّز فصائل الجيش».

«تمامًا. دخل ذلك الجيش المعترك واستطاع دحر جيش البندقيّة المدعوم من قوى البابا، فحافظ على شيزينا وإيمولا».

«هل فعلت شقيقتي شيئًا كهذا؟».

«أجل. وليس هذا ما يعجبني فيها وحسب. من الصعب العثور على امرأة تفكّر في مصالح الآخرين قبل مصالحها. قل لي يا شيزاري. علام تخطط إذا خرجتَ حرًّا من هنا؟».

«سأغادر روما حالًا، لأنّي لم أعد أحتمل البقاء فيها، خاصة تحت ظلّ هذا البابا... سأتجه مباشرة إلى نابولي».

«ولماذا نابولي؟».

«لوجود الاسبان فيها الآن؛ وهم أبناء جلدتي. سأباشر من هناك بالعمل على استرجاع إمارتي».

«هل ستعمل بنصيحتي إذًا؟».

«بالتأكيد، لقد أقنعتني. هذا هو الحلّ الوحيد».

«يسعدني هذا؛ ولكن كن حذراً حتى النهاية. فكما يُقال في سهول البو: 'عقدٌ مع البابا كاتّفاق مبرمٍ مع الكفَرة'. فهمت قصدي، أليس كذلك؟».

وكما قال فعل. خرج شيزاري بورجا من السجن؛ أمّن حصانًا؛ وانطلق إلى نابولي حالًا. لكنّ مخاوف بيمبو تتحقّق فعلًا. إذ ينصب البابا يوليوس الثاني له فخًّا بالتواطؤ مع الاسبان أنفسهم، الذين اتجّه إليهم شيزاري آملًا عونهم. تمامًا مثل المصيدة: يحاصرون الفالنتين؛ يقيّدونه، ثمّ يرسلونه في أوّل سفينةٍ إلى إسبانيا، أسيرًا لدى آل أراغون.

الستار لا يكفكف الدموع إذا انسدل

في تلك الأثناء كانت لوكريسيا تشعر بالوحدة في فيرارا. انطلق

ألفونسو في رحلةٍ يزور فيها قصور أوروبا؛ وغادر بيمبو؛ ولا سيّما أنّ والد زوجها كان مريضًا.

في هذا الجوّ الكئيب، تلقّت لوكريسيا رسالة موجّهة إلى ف. ف. ودعوة إلى لقاء خارج أسوار المدينة، ذلك المساء.

في الساعة والمكان المحدّدين، تقف الفتاة متخوّفة قليلًا، حتّى يقترب منها أحدٌ ما.

«بييترو!»، تهمس له، فيتعانقان بحرارة.

«اعذريني لأنّي جئت بك إلى هنا لكنّه السبيل الوحيد للقاءٍ بلا مخاطر».

«كم اشتقت إليك يا بييترو العزيز!».

«ليس لدينا الكثير من الوقت. عليّ أن أطلعك على نبأ ما».

«أيّ نبأ؟»، تغمغم لوكريسيا مضطربة.

«نبأ سارّ».

«وأخيرًا! أخبرني إياه، أرجوك!».

«أُفرِج عن أخيك. أُرغِم على التنازل عن القلاع في رومانيا، لكنّه أفلت من براثن البابا».

ترتمي لوكريسيا في أحضانه وتغمره بقبلاتها ثمّ تقول: «شكرًا، شكرًا! لا بدّ أنّك تدخّلت في حلٍّ كهذا».

«في جزءٍ منه. دعيني أكمل وإلّا فقدتُ القدرة على الكلام، فأنا متأثر جدًّا. كم يسعدني الغرق في قبلاتك».

«وأنا أيضًا... أين اتّجه شيزاري بعد ذلك؟».

«إلى نابولي. أخشى على حياته كثيرًا».

«لماذا؟ ألم يسلّمه البابا جوازًا بالسفر؟».

«طبعًا. ولكن، المعذرة، لا أحد يعرف كم تساوي وعود البابا أكثر منك. في البندقيّة يقولون: «المسيحيّ الصالح لا يُقسم بأمانته على الإنجيل». أنت تعلمين كم يحقد يوليوس الثاني عليكم! هذا المكان مكشوف. تعالي! بالقرب من هنا، ثمّة جوفٌ عميقٌ منحوتٌ في الصخر. سنكون في مأمن».

يلوذ العاشقان في ذلك المخبأ، ويجلسان على مقعد مريح.

يعانقها بيمبو قائلًا: «آه لو توقّف الزمن في هذه اللحظة. حلمتُ بأنّ القمر يخرج عن مداره ويهيم في أرجاء القبّة السماويّة حتّى يتلاشى».

«وماذا يعني هذا؟».

«يفترض القدماء، في حال حدوث ظاهرة كهذه، أنّ الإنسان إذا سقط من البرج بقي معلقًا في الفراغ، وأنّ الطفل إذا لاعبته أمّه وقذفته إلى أعلى سحبها معه، وأنّ العاشقين إذا تعانقا انصهر أحدهما بالآخر واتّحدا في كينونة واحدة».

«ما أجمل هذه الصورة، مع أنّها عبثيّة».

«للأسف، إنّها كذلك حقًّا. ربّما تهشّم ما كنّا نسمّيه الجوهرة، أي قلبنا[1]. من الصعب أن نلتقي مرّة أخرى».

---

(1) Pietro Bembo, Lcrezia Borgia, *La grande fiamma*. *Lettere* 1503-1517, Archinto, Milano 1989, pp. 28-29. [المؤلّف].

«لماذا؟».

«تعرفين السبب جيّدًا. لقد تعلّمت منك أن أعتني بأوضاع مَن أحبّ قبل الالتفات إلى أوضاعي. وأنت في وضع لا تُحسدين عليه. والد زوجك في حالة صحيّة حرجة. وزوجك سيعود قريبًا. وأعتقد جازمًا بأنّك منشغلة في رعاية الدوق طوال الوقت، لأنه يستحقّ المودّة التي تبدينها تجاهه. هل نعرّض أنفسنا لفضيحةٍ في هذه الأوقات؟ سيكون تصرّفًا غير مسؤول ولا معنى له. لديك حياتك التي رُسمت على راحة يدك منذ البداية؛ وأنا أسير في وجهة مختلفة. ولن أنسى أنّني أحببتك حتّى الجنون، وسأظلّ متيّمًا بك».

ورغم الظروف السياسيّة المتأرجحة، استطاعت لوكريسيا أن تكسب تقدير العاملين في البلاط وثقة الشعب. كان لجاذبيّتها، وميولها للإنصات وإغاثة الملهوفين، أثرٌ بالغٌ في محو كلّ الأقاويل التي ارتبطت باسمها؛ بل واجتازت طيبة قلبها حدود دوقيّة فيرارا أيضًا.

التقت لوكريسيا بإيزابيلا، شقيقة زوجها، وابنة الدوق المحتضر؛ وذلك للمرّة الأولى بعد الزفاف، عن طريق الصدفة تقريبًا.

قد تولد مودّة كبيرة من عداوةٍ بين النساء

عادت إيزابيلا، ماركيزة مدينة مانتوفا، إلى فيرارا، مسقط رأسها، كي تشرف على والدها. تلتقي المرأتان من دون وجود الحاشية. تتعانقان بفتور، وتتظاهران بتقبيل الوجنتين: ثمّ تتبادلان نظرة، ولا تتمالكان الضحك من هذه التمثيليّة.

«لحسن الحظّ يا لوكريسيا العزيزة أنّك لم تسمعي ماذا قلت عنك، بيني وبين نفسي، حين جئت إلى فيرارا لتتزوّجي أخي...».

«لماذا يا إيزابيلا؟ أيّ لعناتٍ ألحقتِها بحقّي؟».

«كنت أراك امرأةً جاءت تطهّر سمعتها بالزواج من وريث دوقيّة عريقة وراقية... علاوة على أنّني ظننتك ماكرةً ما جئت إلا لتسرقي بيتي الذي نشأتُ فيه، وبات يذكّرني بوالدتي».

«خلاصة القول إنّك كنت تحسبينني شرّيرة أبتلع الأزواج بشراهة».

«أجل، أعترف بذلك».

«حسنًا، لكنّي استطعت تغيير رأيك، ما دمتِ جئت لزيارتي اليوم...».

«بالتأكيد!»، تضحك إيزابيلا. «اقتنعتُ بأنّك لست انتهازيّة بما يخصّ والدي، إنّما تكنّين له تبجيلًا ومودّة صافية».

«صحيح، وأعترف أنّه يبادلني المودّة أيضًا».

«ما أجمل أن يحظى والدي هرقل، الذي يستحقّ هذا الاسم بجدارة، بعون امرأتين عطوفتين مثلنا في هذه اللحظات. مع أنّ هذا لا يعوّض غياب نجله ألفونسو وزوجي فرانشسكو».

«وأنا أيضًا، يؤسفني غيابهما في هذه اللحظات. كنت أظنّ أنّي استطعت تبديد الأباطيل الشنيعة بحقّي. لكنّ ألفونسو، منذ مدّة، أمطرني بوابل من الإهانات. التجأتُ إلى أبيك محبطة، فأكّد لي أنّ زوجي سيتجاوز الضغينة. ولكن، حين عاد مؤخّرًا إلى فيرارا، لم أرَه إلّا من بعيد، يمتطي حصانه لينطلق مجددًا في رحلةٍ أخرى».



إيزابيلا دا إيستي

«غريب! أنا أيضًا أعاني من الأمر ذاته، بين الفينة والأخرى... قدَرنا، أنا وأنت، يا لوكريسيا، أننا تزوّجنا مقاتلين. رغم أنّ أخي يعزف الفيولا بين حين وآخر».

«أجل، هذا صحيح. كان من الممكن أن يصبح عازفًا عظيمًا».

«نعم. لكنّ الموسيقى الوحيدة التي يحبّ عزفها هي أنغام المدافع حين تحصد الأرواح. وهذا ينطبق على فرانشسكو أيضًا».

تضيف لوكريسيا: «لا تنسي الصيد».

«تمامًا. حين لا يجدون بشرًا يقتلونهم، يواسون أنفسهم بذبح الحيوانات».

«حبّ الجَمال معاناة إن كان شريكك لا يهتمّ بالفنّ إطلاقًا».

«لا أعرف إن كنتِ على اطلاع: بعد نجاحاته العسكريّة الأولى، أقنعتُ فرانشسكو أن يأمر أندريا مانتينيا، أشهر الرسّامين الأحياء في مانتوفا، برسم سلسلة من اللوحات العملاقة التي تجسّد انتصار شيزاري، وهو انتصارٌ شارك زوجي في صنعه أيضًا. تحمّس لفكرة أنّ يُخلّد ذكره في عمل فنيّ بديع، ووافق. أشرفتُ شخصيًا على تلك اللوحة، مشدوهةً بمهارة الرسّام؛ وطلبتُ منه أن يسلّط الضوء على غاية المقاتلين الحقيقيّة أثناء ابتهاجهم بالنصر: أي أن يصوّرهم مثل شرذمة من اللصوص، ينهبون المدينة المهزومة ويعرّونها، إذ يسرقون الأطباق الذهبيّة والتماثيل القيّمة، ويسبون نساءها ويغتصبونهنّ. فما كان من فرانشسكو، وهو الشخصيّة الرئيسة في اللوحة، سوى أن ألقى نظرة خاطفة من دون أن يُدرك المغزى. ناهيك بأنّه منذ عامين لا ينفق قرشًا على الرسّام الذي ما زال يعمل في البلاط».

تعلّق لوكريسيا: «حقًّا، لا قيمة للفنّ، بالنسبة إليهم».

«بل لا يهتمّون بالفنّ إلّا إذا أرادوا التظاهر بأنّهم سادة أصلاء يقدّرون الثقافة!».

«أعترف لك بأنّي أحتقر زوجي أحيانًا».

«وأنا أيضًا، لا أستطيع إلا احتقار زوجي. هذا راسخٌ لدينا نحن النساء. تخطر فيدرا في بالي دومًا كما وردتْ في تراجيديا هيوريبيديس، إذ عشقتْ إبوليتوس الذي يحتقر النساء ولا يفكّر إلّا بالصيد».

تبتسم لوكريسيا بمرارة: «بالفعل، يوجد شبَه ما».

تسألها إيزابيلا: «وهل تعلمين كيف تنتهي التراجيديا اليونانيّة؟».

«لا. هاتِ، أرجوك!».

«حين تكتشف فيدرا أنّ زوجها لا يحبّها، تقرّر الانتحار».

«وأنتِ - تسألها لوكريسيا بعد صمت - هل تفكّرين في الانتحار؟».

تبتسم إيزابيلا: «أعتقد أنّي سأنتظر مزيدًا من الوقت. فزوجي، في بعض الأحيان، يعود من الصيد، على الأقلّ».

الإفراج عن السجناء

كان هرقل دا إيستي قد كلّف لوكريسيا، منذ بضعة أشهر، بمهمّة حسّاسة للغاية: متابعة الشكاوى والمظالم التي تلتمس عونًا ورأفة من القصر. لماذا كلّفها بهذه المهمّة؟ كانت السيّدات، بطبيعة الحال، يُكلَّفن بالاهتمام بالحدائق وتهيئة الصالونات، واختيار

الطبّاخين وقائمة الطعام كحدٍّ أقصى؛ من الصعب أن يُولّين مراقبة الدعاوى والأحكام. فما الذي دفع الدوق إلى هذا القرار؟

لأنّه اكتشف بالطبع أنّ زوجة نجله تتحلّى بالهمّة والعزيمة على تنظيم جيشٍ بأكمله، والخروج من النزاعات الحاسمة ليس إلّا بالنصر.

كانت غالبية الشكاوى، التي تتلقّاها لوكريسيا، تُعنى بإطلاق سراح الموقوفين من سجون مانتوفا. كما وصلتها شكاوى أخرى من عدّة مدن في إيطاليا، وأوروبا أيضًا. تعرّفت لوكريسيا على فرانشسكو غونزاغا عام 1496 حين جاء الماركيز، الظافر بمعركة فورنوفو، إلى روما. وفي عام 1502 أخذا يتبادلان الرسائل.

تطلب منه لوكريسيا، في إحدى تلك الرسائل، الإفراج عن إسكافيٍّ مسكين متّهمٍ بسرقة الخبز من أحد الخوارنة. لم تكن قضيّته خطيرة، ما جعل فرانشسكو يتسامح مع نسيبته الجميلة. لكنّها في ختام رسالتها، كانت تقول: «البارحة، أطلق سراح السجين الذي عفوتم عنه سيادتكم برحابة صدر. لكنّي أستميحكم بقضيّة أخرى، تتعلّق بسجينٍ عزيز عليّ كثيرًا، ويرجوكم الرحمة». ثمّ ظهرت مشكلة عويصة وشائكة، بعد عدّة أيام. جريمة قتل. إذ حُكم على أحد أبناء فيرارا بالإعدام، فادّعى أهله المظلوميّة، واتجهوا إلى لوكريسيا يستجيرون عدالتها. الوقائع: أحد العمّال في سدود نهر مينشو، متّهمٌ بقتل زميله لأسباب تافهة، كما لو كان شجارًا بين السكارى.

تعاين لوكريسيا، بمساعدة محامٍ يعمل عندها، الوثائق المتعلّقة بالتحقيق والحكم؛ وتكتشف التباسات واضحة وشهادات منقوصة

وانعدامًا جليًّا للأدلّة الدامغة. وبدل أن تطلب من نسيبها مباشرة أن يعيد النظر في القضيّة وتشعّباتها، تتصرّف من رأسها وتقرّر استطلاع آراء المحقّقين. يتمكّن هؤلاء من إعادة بناء مجريات الجريمة، بفضل مكوثهم سابقًا في مانتوفا، ويكتشفون أنّ المسؤولَ عن القتل شخصٌ آخر تمامًا، ومن الوارد جدًا أن يكون الرجل قد لقي مصرعه لأنه منع ابنته من الاستمرار في علاقة مشبوهة مع شخصيّة بارزة في المدينة.

تكتب لوكريسيا رسالة لفرانشسكو، وتحثّه على إجراء تحقيق قضائيّ في الوقائع. تمرّ أيّامٌ طويلة من دون أن يردّ فرانشسكو. تمتعض لوكريسيا، فتراسله بنبرة مستاءة نوعًا ما، مشدّدة على احتمال تنفيذ حكمٍ بالإعدام بحقّ رجلٍ بريء. فيتحرّك ماركيز مانتوفا أخيرًا، وبجدّيّة مفاجِئة، يرسل المسؤولين الثلاثة عن التحقيقات للقاء المحقّقين الفيراريين الذين أجروا التحقيقات السابقة. يحضر فرانشسكو الجلسة شخصيًا، ولوكريسيا أيضًا، وقد أظهرت كفاءة إداريّة مذهلة.

بإيجاز، يُكشف عن الحقيقة. فالمسكين، الذي كاد أن يُرفع إلى حبل المشنقة، لم يكن إلّا كبش فداء. رَشَح أنّ المسؤول الحقيقيّ هو ألبرتو دا كاستيلوكيو، أحد نبلاء مانتوفا، الذي قرّر أن يقتل والد الفتاة، التي أغرم بها، بعد أن توعّده بأن يشتكي ضدّه. ولم يتردّد النبيل الظالم بتقديم الرشا للقضاة وتهديدهم، ما لم يزيلوا عنه الشكوك ويحكموا على صديق الضحيّة، الذي كان رجلًا مغمورًا ومسكينًا لا سند له. يأمر فرانشسكو غونزاغا بالإفراج عن المتّهم فورًا، ويخبر لوكريسيا بذلك. تسرّ السيّدة بالنبأ، فتقرّر المجيء إلى مانتوفا شخصيًا، كي تعرب عن تعاطفها مع الرجل المسكين،

وتعود به إلى عائلته في فيرارا. تعرض إيزابيلا على صديقتها النزول ضيفةً في قصرها على الرحب والسعة.

يرافق الماركيز عودة لوكريسيا والمفرَج عنه إلى فيرارا، حيث يستقبله الشعب باحتفالات عارمة تثير دهشة فرانشسكو الذي ينزل في قصر بوجو روسكو، حيث دعا لوكريسيا للقاءٍ في اليوم التالي. وفي الصباح، يراها تُقبِل من بعيد، فيمتطي حصانه ويعدو نحوها. ثمّ يتمشّيان، واحدًا بجانب الآخر، ويصعدان الدرب المؤدّي إلى القصر.

يعلّق فرانشسكو: «شخصيّتك قوية يا نسيبتي العزيزة. في البدء، ظننت أنّك عنيدة تحاول الظهور مُحِقّة بأيّ ثمن».

تضحك لوكريسيا وتقول: «فعلًا، وقد نجحتُ في النهاية».

«أجل ولكنّك جعلتِني أتعرّق، مثل خنزيرٍ بريّ، مع ذلك العدد من المحامين وتلك الأوراق. أطالبكِ بتعويضٍ ما!».

«وماذا تريد؟ ألستَ سعيدًا بتخليص رجلٍ بريء من الموت ظلمًا؟».

«وهل تهتمّين بمساعدة البؤساء فقط أم تفعلين شيئًا آخر لأجلك أيضًا؟».

«أفعل ما عليّ فعله، وأترك للآخرين فرصة الحديث به».

«وأنا أيضًا لا أحبّ هدر الوقت بالثرثرة، لذا أدعوكِ للذهاب معي إلى الصيد. وهكذا ترين مرغمةً مقتل بعض الطيور البريئة حقًا؛ كما أحيطك علمًا من الآن بأنّ صقري لن يُحال إلى القضاء، بل ستلامسين رأسه كمكافأة».



فرانشسكو غونزاغا

تقول لوكريسيا: «ملامسة فقط؟ إنّها مكافأة متواضعة بالنسبة إلى صقر نبيل».

«يتعلّق الأمر بمن يمنحها له يا نسيبتي العزيزة».

وفي اليوم التالي، لم تبزغ الشمس بعد حين اتّجه فرانشسكو ولوكريسيا، برفقة بعض الصيّادين والعاملين في القصر، نحو الغابة.

تقول لوكريسيا لنسيبها: «هل تعلم أنّها المرّة الأولى التي أذهب فيها إلى الصيد؟».

يسألها: «كيف؟ ألم يصطحبك زوجك الشاطر يومًا؟ هل لا يزال عاجزًا عن انتعال جزمته بمفرده؟».

تقول مستاءة نوعًا ما: «لماذا تتكلّم عن شقيق زوجتك بهذا الشكل؟».

«أنا أتكلم عن رجل لديه امرأة مثلك، ولم يأخذها بعدُ إلى الغابة ليظهر فحولته».

«لعلّ هناك طرقًا أخرى لإثبات الفحولة؛ ألا يبدو لك ذلك؟».

«ما أسرعك، يا نسيبتي العزيزة! أليس من الباكر الحديث بهذه الأشياء؟»، ينزع الغطاء عن صقره المهيب الذي ينتفض محلّقًا.

يتبع النسيبان الطير الجارح ببصرهما، فإذا به يُتمّ عدّة دوائر في الجوّ ثمّ ينقضّ بشدّة على بطّة ويلتقطها بمخالبه. وكالعادة، يُتمّ دورة أخرى ليرمي الفريسة الممزّقة نحو صاحبه. يرى الأخير البطّة تهوي بحركةٍ لولبيّة فيدفع رفيقته كي لا تقع البطّة فوق رأسها.

تصرخ: «ماذا تفعل؟».

يمسك بخصرها قبل أن تقع أرضًا.

«دعني»، تأمره.

«المعذرة، لو لم أفعل ذلك لارتميتِ على الوحل. إن كنتِ تفضّلين السقوط، فأرجو أن تنتقلي إلى الجهة اليسرى، فهي أشدّ جفافًا».

لوكريسيا تستعيد هيئتها باستياء وحياء: «العفو، هذا الصيد أربكني قليلًا».

«استريحي هنا»، يشير إلى جذع شجرة مُلقًى على الأرض، ويكنس عنه الأوراق بقفّازه. ثمّ يجلسان متجاورين. يبتسم في وجهها، فتضطّر لوكريسيا إلى مبادلته الابتسامة.

«أبدو لك مغفلة، أليس كذلك؟ فتاة صغيرة متصابية مغرورة».

«في الحقيقة، أنا من وضعك في هذا الظرف. لم يكن شيءٌ ليحدث لو وقعت فوقك البطة. لقد خدعتك».

«حقًّا؟ يا لك من سفيه!».

«فعلتُها كي أكسر الحاجز الذي ترفعينه بيننا».

«أنا؟».

«حين كتبتِ لي أن أراجع الحكم ضدّ ذلك المسكين، المحكوم بالإعدام، ظننتُ - عذرًا على وقاحتي - ظننتُ أنّها حجّة كي تنفردي بي وتحاولي إغوائي».

«آه، رائع!».

«أجل. وهكذا هنّأتُ نفسي: يا لك من جذّاب! لا تفوتك أيّ

امرأة! لكنّك كتبتِ بعدها رسالة ناريّة، ليست لأنّها غراميّة، بل لأنّها تصفني بغلظة القلب واحتقار من لا حول له أو قوّة».

«تستحقّ ذلك!».

«ربّما، لكنّ الرسالة أخلّت توازني. قلت لنفسي: «أيّها الاحمق! هذه امرأة نزيهة، لا تؤدّي دور السامريّة الصالحة كي تصعد إلى السلطة». وحين التقينا لحلّ المشكلة مع القضاة والمحامين، ورأيت همّتك وعزيمتك الغرائبيّة في خوض المستحيل كي تنقذي رجلًا بريئًا، تذكّرتُ جملة، ما توانت والدتي عن ترديدها، والدتي مارغريتا دي بافييرا، والمعروفة بـالألمانية. تقول: «احكمْ على رجل، أو امرأة، مما يقدّمه للآخرين بأفعاله، وليس بأقواله فقط»».

«فلماذا دعوتني إلى الصيد؟ لتستعيد قدراتك وتضيفني إلى لائحة المغرَمات بك؟».

«لا، هذا كان الجوّ بشكلٍ عام؛ لكنّ المقصد شيء آخر كلّيًّا».

«وما المقصد؟».

«أردتُ أن أمثُل أمامك، من دون أيّ قناع على وجهي وقلبي. قد يبدو لك الأمر غريبًا: لقد جئت إلى هنا كي أقول لك إنّي أحبك».

تهتف لوكريسيا، كي تخفي تأثّرها: «يا لهذا المشهد الصاعق!».

«ليس صاعقًا بالمطلق. إنّي أكنّ احترامًا لشخصك الكريم، لذا لن أحاول أبدًا أن أدعوك لممارسة الحبّ. هل تعلمين لماذا؟ لأنها قد تُعتبر جريمة بشعة. فأنا مصابٌ بداء الزهري».

«داء الزهري؟ وتخبرني بهذا كأنّه نبأ عاديّ؟ «كما تعلمين، أنا مصاب بالزكام؛ لا بدّ أنّها أزمة برد، لكنّها ستمرّ...»، يا للمصيبة! داء الزهري!»

«أعترف بأنّني تسرّعت، لكنّي أردت أن أخبرك بالأمر، وأظهر لك يأسي».

«فهمتُ ولكن... هل هذا معقول؟ يبدو لي مستحيلًا... لم أعرف أحدًا أصابه هذا المرض، لكنّي سمعت عنهم... حركتهم ثقيلة، ذاكرتهم ضعيفة، يتعرّضون للإغماء المفاجئ ويسقطون أرضًا فينسون أسماءهم... أمّا أنت... كنت في نظري مثالًا عن العافية. لا سيّما أنّك أنجبت أولادًا كثرًا من زوجتك...».

«صحيح، لقد ولدوا ونشأوا بصحّة سليمة».

«وهل كنت تعلم بخطورة ما تقوم به؟ ربّما كانوا سيولدون مصابين بالعدوى، ويعيشون حياة... أشبه بالموت...».

«بالتأكيد، أشعر بأنّي مذنب في هذا خاصةً. أمّا بالنسبة لشكوكك، فإنّ هذا الداء يسمّى «المتقلّب» أيضًا. وذلك لأنّ المصاب يعيش هانئًا وقويًا كالشمس، في يومٍ ما، وفي اليوم الذي يليه، يصبح كالظلّ يتلوّى بين المزابل. حين ذهبنا لإخراج ذلك المسكين من السجن، مع أهله وأصدقائه، ثمّ ذهبنا إلى فيرارا لنوصله إلى بيته، ورأيتُ الناس يحتفلون بسعادة بالغة، قلت لنفسي: «هل يحتفلون بالإفراج عن الرجل البريء يا ترى؟ إطلاقًا، إنّهم يحتفلون بلوكريسيا، فهي التي تثير إعجابهم». فشعرتُ بالندم: «وأنا لا أفكّر إلا في اصطيادها غير مكترثٍ إن نقلتُ إليها العدوى الخبيثة؟ وقد تنقل العدوى إلى زوجها من دون أن تنتبه؟ أين ضميري؟ في مؤخّرتي؟ هل لديّ ضمير؟ كيف أعرّض بلدًا بأكمله للزوال، مع أمرائه، وأرمي كلّ القيم في مزبلة الإنسانيّة؟! يا لهذه القدوة الحسنة التي أخلّفها لأبنائي!»».

كانت صحّة هرقل تتردّى يومًا تلو الآخر، وقد يئس الأطباء المشرفون من قدرتهم على إنقاذه، وباتت خلافة الدوق حديث المدينة بلا منازع.

عندما عرف ألفونسو بظروف أبيه، عاد مسرعًا إلى فيرارا، في الثامن من أغسطس. لم يلبِّ نداء الوطن رغبة بتشريف والده المحتضر، بقدر ما كان متخوفًا من أن ينتهز إخوته غيابه ليعزلوه بأقصى سرعة وينصّبوا أنفسهم على العرش بدلًا منه.

في البهو، قرب غرفة الدوق، يلتقي ألفونسو بإيزابيلا التي لم تفارق سرير والدها منذ أيّام. يتعانق الشقيقان وتبادر إيزابيلا بالكلام: «لحسن الحظ أنك عدت».

«كيف حاله؟»، يسألها ألفونسو، مشيرًا إلى باب غرفة النوم الموارب.

تلتقط إيزابيلا أنفاسها: «حرارته مرتفعة جدًا. يرتجف باستمرار. من المؤلم رؤيته بهذا الوضع».

«ألا يشرف عليه أحد؟».

«بلى. لوكريسيا لا تفارقه دقيقة واحدة منذ أيّام؛ تظلّ بقربه دومًا».

«أشكرك على مجيئك من مانتوفا».

«لا تقل هذا! إنّه أبي. ثمّ إنّي لست حزينة لمغادرة مانتوفا».

«لماذا؟».

«انس الأمر. ما بوسعي قوله إنّ زوجي فقد صوابه منذ زمن، ولا يحتمل البقاء مع الأولاد، وتراه ممتعضًا على الدوام».

تفلت ابتسامة من وجه ألفونسو ويقول: «لا تؤاخذيه كثيرًا، لعلّه بات يؤدي دور ديك القرية!».

«ماذا تقصد؟».

«تعلمين طباعه جيدًا. ربما صاحَب إحدى بائعات الهوى. أنا أيضًا لم أستلطف زوجك يومًا، لكنّ هذه التسالي مشروعة طبعًا».

ترمق إيزابيلا شقيقها باحتقارٍ شديد، وتقول: «ربّما كنتَ محقًا، لكنّه سئم حتّى من القرويّات».

«ماذا تقصدين؟».

«لا شيء، لا شيء».

يمسك ألفونسو بيديها:

«أطلعيني يا إيزابيلا! منذ متى كانت بيننا أسرار؟».

«اعذرني، لا أريد أن أزيدك حزنًا. أوضاع والدنا أهمّ بكثير الآن».

«اسمعي - يزداد إصرارًا - لن ينفعك التملّص بهذه الطريقة. إن انتبه والدنا إلى خلافٍ بيننا، فقد تتدهور صحّته أكثر... هيّا! أخبريني بكلّ شيء، وستشعرين بأنّك على ما يرام».

«من الصعب إطلاع العصفور المهاجر على الأنباء الجديدة».

«هل تقصدينني؟».

«أجل».

«حسنًا. ما الجديد إذًا؟».

تنظر إليه إيزابيلا، تأخذ نفسًا، وتقول:

«لا أعلم إن كان يحق ليّ الحديث بالأمر؛ لا أعلم حتّى إن كان من المستحسن الحديث به... هل تكلّمت مع زوجتك؟».

«لا. لقد أتيت مباشرة إلى هنا. لماذا؟».

«عليك أن تبقى بجانبها أكثر وقت ممكن. لأنّ فرانشسكو...».

«ما به فرانشسكو؟»، ينتفض ألفونسو.

«لا شيء. اهدأ! لم يحدث شيء، على حدّ علمي... ولكن من المناسب لك ألا تعطيه الفرصة ليقابل لوكريسيا».

يصفرّ وجه ألفونسو، يمسك معصم أخته ويصرخ: «تكلّمي! قولي كلّ شيء، حالًا! ما الذي حاول فعله ذلك الخسيس؟».

«أرجوك يا ألفونسو! أرجوك! إنّك تؤلمني. دعني وشأني! تكلّمْ مع لوكريسيا بالأحرى!».

يترك معصمها، ويكرّر بجدّيّة: «قولي لي ما الذي ما حدث!».

«لم يحدث شيء، أقسم لك. اهدأ واجلس!».

يجلس ألفونسو، ويسألها مخفّفًا من حدّة نبرته: «زوجتي لها شأن في الموضوع... أنت لا تخفين عني شيئًا، أليس كذلك؟».

«لا، لا. أقسم لك. سوى أنني أنصحك بأخذ الحيطة. لا تبتعد كثيرًا عن فيرارا».

يلتفت ألفونسو إلى باب غرفة الدوق، ويختم: «لسوء الحظّ يا إيزابيلا، يبدو لي أنّي لن أحلّق مع أسراب المهاجرين بعد اليوم».

في تلك اللحظة، تمسك أخته بيده وتشير إليه بالسكوت، لأنّ

لوكريسيا خرجت للتوّ من غرفة الدوق؛ والتي ما إن تراه جالسًا بجوار إيزابيلا حتى تكبت صرختها وتركض نحوه لتعانقه.

«هنيئًا لنا بعودتك!».

«كان لزامًا عليّ أن أعود»، يجيبها وهو ينظر إليها بمودّة خالصة.

تبادله لوكريسيا نظرة رقيقة، وتقول: «ادخل إلى أبيك حالًا، ولكن إيّاك أن توقظه، فهو بأمسّ الحاجة للاسترخاء».

يرتبك ألفونسو قليلًا، فتدفعه زوجته بخفّة وترافقه نحو الباب.

تقول له: «سأنتظرك في الحديقة». يهزّ رأسه موافقًا؛ يدخل ويغلق الباب خلفه.

تسألها إيزابيلا: «هل بوسعي مرافقتكِ؟».

«بالتأكيد! تعالي! لا بدّ لنا من التقاط الأنفاس المنعشة أيضًا».

نزلت النسيبتان سلّمًا صغيرًا. تستند إيزابيلا إلى لوكريسيا وترجوها: «ساعديني قليلاً لو سمحت، فأنا أعاني منذ فترة بسبب البدانة».

«عليك أن تمشي كثيرًا، أو أن تمارسي ركوب الخيل مثلًا».

«أيّ خيل! بل فيل! ألا ترين مؤخّرتي الضخمة؟ قد يفرّ منّي الخيلُ خائفًا!». وتضحك كلاهما.

«تعلمين - تقول لوكريسيا متبسّمة - لطالما تساءلتُ كيف كنتما، أنت وألفونسو، في سنّ الطفولة. كنت أتوق دومًا لسماع محادثة بينكما، كشقيقين... منذ قليل، بينما كنت أفتح الباب، سمعتكما تتكلمان، كم كنتما رقيقين... سمعت ما تداولتماه عني».

تنظر إليها إيزابيلا مذعورة، وتستعجل التبرير: «هل سمعتِنا؟

أقسم لك يا لوكريسيا أنني... لم أكن أريد سوى... تكلّمتُ لمصلحته... لمصلحتكما معًا. لكنّي متيقّنة... أو أعلم جيدًا... أنّ ما بينك وبين فرانشسكو... لم يحصل شيء البتة...».

تقول لوكريسيا بنبرة جادّة:

«أنت مخطئة إذًا، لقد حصل شيء ما».

يتجهّم وجه إيزابيلا: «ماذا؟ أين؟ متى؟».

«كلّمني ذات مرّة عن مرضه، أو بالأحرى عن معاناته».

تتجمّد إيزابيلا من الدهشة لوهلة ثمّ تقول باستياء: «ولماذا تكلّم إليك أنت بالذات؟ إنّه لا يُطلع أحدًا على الموضوع، إطلاقًا...».

«منذ أن انشغلنا معًا، أنا وزوجك، بالمتّهمين والقضاء، حدث أننا تبادلنا بعض الخصوصيّات. كهذا الموضوع مثلًا. وأعترف لك بأني لم أصدّق حينئذ، وقلت له: 'كيف ذلك؟ أنت تبدو بصحة جيدة...'، وأحسستُ بأنني أقع في دوّامة من الإحباط».

«تمامًا، وأنا أيضًا، أحسست بهذا حين علمتُ بالأمر. سمعتُه فجأة يثرثر كمن تلبَّسه الجنّ... ثم ترنّحتُ وبتّ أمشي كالسكارى. لكنّي لم أشفق عليه، بل كرهته واحتقرته. لن أسامحه على الحمل منه، كان يعرف أنّه يعرّض حياتي، وحياة أولادي، لخطرٍ مريع».

«أفهم مشاعرك يا إيزابيلا».

«لا! مستحيل! لا يمكنك فهم مشاعري!». تنزع عنها عباءتها وترميها نحو درجات السلّم، وتكمل: «انظري كيف أصبحتُ. بعد أن عرفتُ، رحت أنتفخ مثل شراع السفينة الأكبر. أنتفخ كالكرة. كم ازداد وزني! حتى إنّي نقلتُ أغراضي في البيت من الطابق الثالث إلى الطابق

الأرضيّ، قبالة الإسطبل، لأنّي لم أعد أقوى على صعود السلالم!».

يجدر بنا التوقّف هنا لإضافة تعليقٍ مهمّ. أثناء القراءة، أو بالأحرى تحليل الكتابات العديدة عن آل بورجا، وعن لوكريسيا تحديدًا، اكتشفنا أحد المعطيات الأساسية: من بين جميع أولئك المؤرخين العظماء، والرواة الذين تناقلوا الحوادث البطوليّة والإباحيّة بأسلوب هابط، لا وجود لمن يعطي أهميّة لإصابة فرانشسكو غونزاغا بداء الزهري. تحاشى جميع الكتّاب التعامل مع هذه المسألة، وذلك بإزالتها. داء الزهري: حدثٌ هامشيّ. هل هذا معقول؟ من المعلوم أنّ داء الزهري، في تلك الأوقات، كان مرضًا خطيرًا. حتى إنّه من الصعب أن يمارس أحدٌ الحبّ مع أحد مرضى هذا الداء، ويخرج من هذه الممارسة سالمًا؛ بل كان سيصيبه بالعدوى الخبيثة، على الأقلّ. وهذا ينطبق على الأبناء أيضًا. والدليل أنّ فيديريكو، الابن الثاني لفرانشسكو وإيزابيلا، كان مصابًا بالزهري الخلقيّ، أي الذي ورثه عن أبيه. فهل من المعقول أن تصبح لوكريسيا عشيقة لفرانشسكو، بعد أن عرفت بحالته تلك؟ بل كيف لها أن تلد من زوجها خمسة أولاد يتمتّع كلّهم بصحة سليمة؟ لا شكّ بأنّها إحدى التلفيقات الثقافيّة المعتادة، والتي لا ينفع معها إلا دواءٌ واحد: أن نسردها بطريقةٍ تمنعنا من خيانة الحقيقة. وهذا بالضبط ما نفعله هنا.

ما من شيء أصعب من وداع حكيمٍ يفارقك إلى الأبد

يتهيّأ شعب فيرارا، بلوعةٍ حارقة، لرحيل الدوق. بلغ هرقل عامه الرابع والسبعين، وحالته في تدهورٍ مستمرّ، عدا لحظات قصيرة من صفاء الذهن تتخلّلها وعكات رهيبة من الرجفة والحمّى.

يمشي ألفونسو مضطربًا في ممرّات القصر، فإذا لوكريسيا تظهر راكضة نحوه.

تقول له: «بسرعة! تعال بسرعة، والدك يريد أن يتحدث إلينا معًا».

يهرع الزوجان بعجلة عبر السلالم صوب غرفة الدوق، ويدخلان يدًا بيد. ترتسم ابتسامة عريضة على وجه الدوق، مبتهجًا برؤية ابنه، ويشير له بالاقتراب. يجلس ألفونسو بجوار أبيه، ويشبك يديه صامتًا.

يقول الدوق مسرورًا وإنْ بنبرة واهنة: «يا بنيّ، حين يرحل والدك عليك أن تتذكّر الهبات والأعطيات التي تلقّيتها. إنّها كثيرة وقد يصعب العثور على أحدٍ حالفه الحظّ مثلك. ما يهمّ هو أن تدرك ذلك. ومن الغريب أنّنا نبذل كلّ ما في وسعنا للتعرّف إلى أبسط النِعم. أنت يا بنيّ، لم تقدّر قيمة الجمال أبدًا، ومع هذا فإنّ الجمال هو الوحيد القادر على إنقاذك في هذه الحياة.

لم تتشجّع يومًا على قراءة البهاء الذي يشعّ من الآثار والقصور والكاتدرائيّات. كنت شغوفًا بالموسيقى، وهذه نقطة تُحسَب لصالحك. وبالفعل، رأيتك تعزف بأسلوب رفيع متى أردت؛ لكنّك لم تعمل جاهدًا على صقل هذه الموهبة. ولهذا لا أراك قد أفلحتَ في قراءة جمال هذه المرأة التي أنعم القدَر بها عليك. لا أتكلّم عن شعرها العَبِق ووجهها الحَسَن وجسمها الفتّان؛ بل عن روح لوكريسيا التي ينفذ بريق جوهرها إلى مظهرها. كرمها وجرأتها ودفء قلبها وقدرتها على تسطير معاني التضحية والفداء والعطاء

لمن تحبّ. ليتني كنت عرّافًا لأقرأ عليك ما يطفح من جمالٍ في سريرة هذه المرأة.

وأنت يا لوكرينيا، أوصيك بعدم الحكم على المظاهر. فابني، الذي ستساعدينه في إدارة هذه الدوقيّة، مثل شجرة زيزفون عملاقة، غزتها نبتة اللبلاب فأخفت جمالها. قد تبدو لك شجرة ميتة لا تصلح إلا حطبًا لإيقاد النار؛ ولكنّك إن نظرتِ إليه مليًّا، وعزمتِ على البحث عن سرّه، لن تستطيعي إلّا أن تحبّيه بما يفوق حبّك له الآن».

أصغى ألفونسو وزوجته إلى كلام الدوق، بدموع مكبوتة، وتبادلا نظراتٍ طويلة.

يصمت هرقل بضع دقائق، ثمّ يهمس وكأنّه يستيقظ: «والآن، ضعا يديكما هنا، وأقسِما لي على حفظ المودّة بينكما، وأن تتعاونا لما فيه خير هذه المدينة».

ينفجر ألفونسو باكيًا بغزارة، ويرتعش جسمه. تمسك لوكريسيا بيده وتقبّلها وتحنو على رأسه. يهدأ ابن الدوق، ويقول متجهًا إلى أبيه: «ستبقى وصاياك في أذنيّ أبد الدهر يا أبتِ! وسأجعل منها ثمارًا مفيدة لي ولزوجتي، ولشعب الدوقيّة أيضًا. واسمح لي بأن أقدّم لك هديّة، لعلّي أنجح في الإحاطة بذلك الجمال الذي كلّمتني عنه للتوّ».

يخرج من الغرفة، يتشاور مع أحد الخدم، بينما تنحني لوكريسيا نحو الدوق وتهمس بأذنه: «شكرًا يا أبتاه! أعدك بأنني سأحرص على سعادته».

«بل الشكر لك يا ابنتي، فقد أتيتُ بك إلى فيرارا وحصلتُ على المال مقابل هذا!»، قالها ضاحكًا، وأضاف: «لقد كنت أكبر فرحة في حياتي».

في تلك اللحظة، ينفتح الباب على مصراعيه لتصدح أنشودة في المكان، وألفونسو يعزف على آلة الفيولا.

تغمر السعادة كلّا من هرقل ولوكريسيا. يحيط عازفو البلاط بسرير الدوق، وينشدون: «حين تقترب ساعة رحيلي، أودّ لو أرى الناس يرقصون حولي ويغنّون لي: «ارحل بسلام». لن يبكي أحدٌ فراقك من الحزن، فأنت الذي صنعتَ فرحة أصدقائك وأجمل ذكرياتهم. لن ينساك من عاش تحت ظلّك وتَنعّم بالعدل وهناء الأيّام السعيدة».

ألفونسو يضع الفيولا جانبًا، من حين إلى آخر، ليغنّي المقطع مع باقي العازفين بصوته الرخيم. وحين أنهت الجوقة ما عندها، عدّل هرقل جلسته بمشقّة وبسط ذراعيه، فركض ألفونسو إلى حضن أبيه. لوكريسيا تتابع المشهد متأثرة، ثمّ تقفز معانِقةً زوجها، وتطبع على فمه قبلة طويلة، وتقول له همسًا: «لم تخبرني من قبل بأنّك شاعرٌ أيضًا! خسارة أنّني تزوّجتك مسبقًا؛ وإلّا طلبتُ منك، بعد هذه الأنغام التي أهديتها لوالدك، أن تسمح لي بليلة حبّ أولى، مرّة أخرى».

بعد عدّة أيام، في 25 يناير من عام 1505، يسلّم هرقل الروح، على مرأى من ابنه وزوجته.

جرت العادة أن يختم أقارب الميّت الجنازة بتناول الغداء معًا، ما يسمّى «غداء الوداع». يصعد فرانشسكو غونزاغا ولوكريسيا إلى الطابق الأوّل من القلعة العتيقة في فيرارا. إذ فضّلت إيزابيلا البقاء في الطابق الأرضيّ، تجنبًا لمشقّة صعود السلالم، فآثر أخوها ألفونسو أن يبقى معها. يختار النسيبان، في الأعلى، بعض الأطباق ويجلسان إلى المائدة الكبيرة بمفردهما.

«تهانينا أيّتها الدوقة! لقد فعلتِها أخيرًا!».

تجيب لوكريسيا: «مزاحك ثقيلٌ كالعادة، هل ظننتَ أنّ غايتي ارتداء الطوق الدوقيّ؟».

«لا. أحاول استفزازك ليس إلّا. فما من شيء أجمل من عينيك حين تغضبين، تتلألآن ببريقٍ آسر. لكنّي أفكّر جدّيًا بما ينتظرك، منذ أن تركك زوجك، الدوق الجديد، على رأس هيئة الشكاوى[1]، كما يتوجّب عليك الاهتمام بالعلاقات الدبلوماسيّة مع أكثر الدول قبحًا؛ أقصد البندقيّة، إضافة إلى الفرنسيّين والاسبان، ولا سيّما دولة البابا. كوني حذرة، فأنا متيقّنٌ من أنّ يوليوس الثاني هذا ينوي السيطرة على دوقيّة فيرارا، ليبتلعها بلقمة واحدة. بعد أن يطردكم منها طبعًا».

«شكرًا للتحذير. لكنّي على علمٍ بهذا منذ زمن بعيد. وآمل أنّك ستبدي تعاطفك معنا في حال هاجمَنا البابا».

غالبًا ما ينفعك تدوين مذكّراتك في أن تحفظ الذاكرةُ أفضل اللحظات فقط

كان لدى لوكريسيا مذكّرة تدوّن فيها مختلف مجريات حياتها. وهذه بعض المقاطع التي قد تفيدنا هنا:

«يوم الجمعة 2 أحسستُ برجفة في بطني. أنا متأكدة من أنني حامل. أشعر بسعادة عارمة. هتفتُ بزوجي، وأنا أدخل فناء الاسطبل الرحب: «ها نحن ذا ننتظر ولدًا!»

---

(1) G. Chastenet, *op. cit.*, p. 263. [المؤلّف].

الاثنين 12. الطاعون، الذي اجتاح كوماكيو، مدينة سمك الإنقليس، في طريقه إلى فيرارا. في الفجر، وضّب ألفونسو حقائبي، كي أتّجه إلى غواستالا، حيث ثمّة قناة مائية تؤدّي إلى ريجو إيميليا؛ سأركب على متن قاربٍ تجرّه الخيول، تفاديًا لمطبّات الطريق البريّ، بما أنّي أوشك على الولادة. سأكون في مأمن، هناك.

الثلاثاء 3 يناير 1505. البارحة، ضرب الزلزال مدينة فيرارا. ثمّة أموات وبيوت محطّمة كليًّا وأخرى ستنهار عند أوّل هزّة. الشعب كلّه يهجر المدينة. يُرجّح عدد النازحين بأكثر من أربعة آلاف شخص[1]. ما يعني أنّ فيرارا ستغدو مدينة مقفرة، ستخلو حتّى من القطط والكلاب. انهار قصرنا أيضًا؛ ولحسن الحظّ لم تفاجئ الهزّة أحدًا في الداخل. يا للغرابة! بفضل الهرب من الطاعون المقبل، نجونا، أنا وزوجي والجنين، من الموت تحت الأنقاض.

السبت 19 سبتمبر 1505. دخلتُ في مخاضٍ عسير، وأنجبتُ ذكرًا. ألفونسو ليس هنا. توجّب عليه العودة إلى فيرارا ليرتّب العمل على إعادة إعمار المدينة المحطّمة.

السبت 26. عاد إليّ بعد بضعة أيام! كنت واقفة، واستقبلته والمولود على صدري. تعانقنا ونحن نصيح من الفرحة. ثمّ أدركنا أننا نرقص على إيقاع القبلات».

وكم من مرّة تتحوّل البسمة إلى ألم.

---

(1) *Ivi*, p. 265. [المؤلّف].

«مرّ أقل من شهر. إنّي غارقة في دموعي. لماذا ينزل بي كلّ هذا العقاب؟ لماذا مات ابني؟ لم يتعلّم بعد أن يناديني: ماما».

بعد زمن قصير، نجد في مذكرات لوكريسيا مدوّنة أخرى:

«4 نوفمبر 1505. البارحة تعرّض جوليو، الأخ غير الشقيق لزوجي، لاعتداء من مجموعة من المأجورين، يقال إنّ من بينهم أخًا ثانيًا لألفونسو، الكاردينال إيبوليتو دا إيستي. لا يخفى على أحدٍ أنّ الكاردينال وجوليو كانا يعشقان امرأة واحدة: أنجيلا بورجا، ابنة عمّي. مساء أمس الأول، باحت لي أنجيلا الجميلة أنّها تفضّل جوليو، قالت لي إنّ عينيه أكثر جمالًا من كلّ أخيه الكاردينال. انزعج إيبوليتو كثيرًا. كُسّرت عظام جوليو، بذلك الاعتداء، وفقد عينًا. طلبتُ من زوجي أن يفتح تحقيقًا لكشف المسؤولين ومعاقبتهم على فعلتهم».

نقرأ أسفل الصفحة:

«يبدو لي كما لو أنّي عدت إلى روما. ظننتُ أنّي غادرتُ، إلى غير رجعة، ذلك الوسط المحموم بالجرائم والغدر والمكائد، وأنّي انتقلت إلى مكان متمدّنٍ ومستنير؛ فإذا بي أكتشف أنّ الرجال يفقدون إنسانيّتهم بسهولة أينما حلّوا».

امرأة لا تسمح بالتخفيضات ولا بالتنزيلات

لكنّ توقّعات لوكريسيا عن زوجها تعرّضت للخذلان بلا شكّ. فها هو ألفونسو يطمر القضيّة تحت التراب، نظرًا إلى أنّ إيبوليتو كان

أكثر حلفائه ولاءً، وأشاع رواية تنفي أيّ صلة للكاردينال بما جرى.

ذات مساء، كان الدوق ألفونسو ينزل سلالم القصر، متّجهًا نحو الاسطبل، حين تظهر أمامه لوكريسيا. تقول له بنبرة استياء: «لماذا أخفيت الحقيقة؟».

يسأل ألفونسو بنفور: «أيّ حقيقة؟».

تتابع لوكريسيا: «أخوك إيبوليتو اعتدى على جوليو، لثأرٍ شخصيّ، وفقأ عينه، وأنت لم تحرّك ساكنًا! لم أصدّق بادئ الأمر، كنت أظنّ أنّك ستفي بوصيّة أبيك لكنّك... مثل أخي!». تصرخ: «لماذا عليّ دومًا أن...».

خشي ألفونسو أن يسمع أحدٌ ما تفوّهت به لوكريسيا، فأمسك بذراعها وجرّها إلى أقرب غرفة. وقال لها بنبرةٍ فيها شراسة:

«إيّاك أن تفعلي شيئًا كهذا في المستقبل، هل تتخيّلين الفضيحة لو سمعنا أحد ممّن حولنا؟».

تجيب لوكريسيا مشدوهة: «فضيحة! أيّ فضيحة؟ إخوتك يتقاتلون وأنت تخشى الفضيحة!».

«اسمعيني جيدًا يا لوكريسيا، ثمّة أشياء ليس بوسعك...».

تقاطعه: «أن أفهمها.. صدّقني! لقد تخرّجت من أرقى مدارس المَكر والوحشيّة، أفهم هذه الأشياء جيدًا. لكنّي لا أستطيع أن أفهم استغلالك لبعض العلاقات العائليّة في أغراض سياسيّة وسلطويّة. أجبني! كيف أصبحت هكذا أنت أيضًا؟».

يركّز ألفونسو أنظاره عليها من دون أن يجرؤ على لفظ كلمة واحدة. تنظر إليه لوكريسيا بدورها وتختم وهي خارجة: «كن حذرًا يا ألفونسو! من اختار الكذب والخداع وسيلةً لبلوغ غاياته، قضى على نفسه وخسر ثقة من يهواه».

استعاد جوليو البصر جزئيًا، لكنّ بصيرته ظلّت عمياء برغبة الانتقام. وبالفعل، دبّر مكيدة، في العام اللاحق، مع أخيه فيرانتي، للتخلّص من ألفونسو وإيبوليتو بضربة واحدة؛ فشاءت الأقدار أن تبوء المحاولة بالفشل. تمّ اعتقال فيرانتي في حين لجأ جوليو إلى مانتوفا. لكنّ فرانشسكو غونزاغا أراد اجتناب عداوة الدوق، فرفض أن يمنح جوليو الحماية، ووافق على تسليمه لألفونسو شرط ألا تُطبّق عقوبة الإعدام بحقّ الخائن. رُفع جوليو إلى حبل المشنقة في باحة القلعة المكتظّة بالحشود. وكان فيرانتي، المتآمر الآخر، تحت رحمة السيّاف. يسلّم رسول فرانشسكو، الذي رافق السجين، رسالة إلى الدوق. يفتح الأخير الظرف ويقرأ الرسالة: «أسلّم لك أخاك الذي حاول قتلك، لكنّي أطلب منك أن تصون وعدك وألّا تُقدِم على إعدامه».

حينذاك، تظهر لوكريسيا على حصانها، ترفع يدها نحو زوجها كأنّها تقول: «إنّي هنا».

يتلقّف الدوق مغزى حركتها تلك؛ فيرفع يده نحو السيّاف ويصرخ: «خذهما إلى السجن!». ويلتفت نحو الشعب ويقول: «انتهى العرض، عودوا إلى منازلكم».

الأنباء السيّئة غالبًا ما تصل كالعناقيد: بعضها مرٌّ وأكثرها أشدّ مرارة

بعد عدّة أشهر، يأتي فرانشسكو من مانتوفا، يترجّل عن حصانه ويصعد درجات السلّم الكبير ثلاثًا ثلاثًا، ليصل إلى جناح دوقة فيرارا. يدخل البهو، فيسمع بعض أصوات الغرام والبهجة بين الزوجين.

يدخل بخطوةٍ حازمة ويقول: «أعتذر عن الإزعاج؛ أحمل إليكم نبأ مهمًّا جدًّا».

تجيب لوكريسيا بمرح: «نعلم مسبقًا. النبأ ورادٌ من إسبانيا، أليس كذلك؟».

«أجل، حصلتُ عليه من الموفد الذي أرسلته مؤخّرًا إلى هناك، بناءً على طلبك».

يقترب ألفونسو ويسأل: «قل لي يا عزيزي. وصلني أنّ شيزاري ارتمى من إحدى النوافذ على ارتفاع خمسة عشر ذراعًا عن الأرض، وكُسرت قدمه وكتفه أيضًا. هل استعاد عافيته؟».

«أجل ولكن...».

تقاطعه لوكريسيا: «المهم أنّه لا يزال حيًّا!».

فيجيب فرانشسكو: «لم أكن أرغب في نقل الجزء الآخر من النبأ...».

تهتف لوكريسيا: «يا إلهي، ما الذي حدث؟».

يردّ ألفونسو: «نعلم أنّه انخرط بجيش قريب زوجته، جيش ملك نافارا».

تضيف لوكريسيا: «وفيم العجب؟ لطالما كانت لعبة القتال لعبته!».

لكنّ فرانشسكو يقول موضحًا: «أجل، أنتِ على حق، لكنّه أثناء تولّيه قيادة الجيش في إحدى المعارك؛ وخلال حصاره لمدينة فيانا، وقع في كمين... وسقط قتيلًا».

تصدر من لوكريسيا صرخةٌ سرعان ما تلجمها، وينعقد لسانها. ترمي الرجلين بنظرة إحباط، ثمّ ترتمي في أحضان زوجها.

في المساء نفسه تتجه إلى دير كوربُس دوميني/ «الجسد المقدّس»، وتنقطع أخبارها عن العالم طوال أسبوع كامل.

بالعودة إلى مذكّرات لوكريسيا، نجد ما يلي:

«5 أبريل 1508. إنّني في أقصى درجات السعادة. البارحة أنجبتُ ولدًا، سليمًا معافى. اجتمع الشعب حالًا تحت نوافذ القصر، وهتفوا، كما جرت العادة في كافّة مقاطعة رومانيا وإيميليا: «ها هو الأب يولد من جديد! واسمه هرقل!»».

أعداد الظرفاء في تناقصٍ مستمرّ

تمرّ بضعة أشهر، وكلّ شيء على ما يرام، إلى أن يدخل فرانشسكو، كالفاقدين رشدهم، إلى غرفة لوكريسيا. ومن دون أن يلقي التحيّة، ينبري قائلًا: «كنت قد نبّهتك، لا تذهبي أرجوكِ إلى ذلك الموعد حاملة سيفًا وخنجرًا».

«عمّن تتحدّث؟».

«هيّا! لا تتصنّعي دور البليدة، التي لا تعلم شيئًا، التي لم تكن

في مكان الحادثة، أو كانت هناك محض صدفة، وظنّت أنّها مجرّد مشاجرة عابرة...».

«عفوًا، لم أفهم بعد عمّا تتحدّث».

«كيف؟ لقد وجدوا الرجل مقتولًا باثنتين وعشرين طعنة في جسده. أفهم طيشك الاسبانيّ، والحقد الذي قد تضمرين، لكنّ خمس طعنات، أو ستًّا كانت ستكفي. فلماذا تبالغين بهذه الهمجيّة؟»

«اسمع، أنت لا تسلّيني إطلاقًا. إن لم تشرح لي ما حصل فإنّي سأخرج من هنا. قل لي، من هو المقتول طعنًا؟».

«حسنًا، إنّه هرقل ستروتسي[1]».

«ستروتسي؟ الأعرج؟».

«أجل، الأعرج. لقد وجدوا على ساقه العرجاء جروحًا بالغة. يا لقلبك عديم الرأفة!».

«ومتى حدث ذلك؟».

«هذه الليلة».

«وهل عرفت من الفاعل؟».

«إن لم تكوني أنت، فمن إذًا؟».

«اسمع، إن لم تكفّ عن السخرية، فإنّي سأشهر خنجري حقًّا، وأطعنك به أنت!».

---

(1) ظلّ مصرع الشاعر ستروتسي عام 1508 لغزًا محيّرًا، لم يُعرَف الجناة ولا مَن أوعز إليهم هذه المهمّة. وبُنِيت تحليلات وآراء عديدة حول الموضوع على مرّ العصور. إلّا أنّ أكثرها منطقيّة هو تحليل الكاتبة ماريّا بيلونتشي، التي ترجّح بأنّ ألفونسو هو الذي يقف وراء هذه الجريمة، إذ اكتشف بأنّ الشاعر كان مرسالًا أمينًا بين لوكريسيا وفرانشسكو غونزاغا. [المترجم].

«حسنًا، حسنًا. لا تغضبي أرجوك. كنت أمزح فقط...».

«تمزح! يا لك من ظريفٍ ثقيل الظلّ كأيّ جنرال حرب... أتسمّي هذا مزاحًا؟ هل اختلقتَ كلّ شيء، بما فيه مصرع ستروتسي؟».

«لا، للأسف، هذه هي الحقيقة الوحيدة. بل ليست الوحيدة، ثمّة أيضًا عدم معرفتنا بشيء عن منفّذي الجريمة ولا عمّن يقف وراءهم.... حسنًا، تجاهلي ما سمعتِ! في الحقيقة، لقد أتيت لأخبرك بأمرٍ مهمّ: بعد أشهر، سأنطلق إلى الحرب!».

«أنت أيضًا؟».

«ماذا تقصدين؟».

«حتّى زوجي، منذ قليل، أخبرني بالأمر ذاته. أيّ جيشٍ ستتولّى قيادته؟».

«سأكون في جيش البابا».

«أنت، مع البابا؟ ألم تكن متحالفًا مع البندقيّة؟».

«من فضلك يا لوكريسيا، لا تحدّثي أحدًا عن التبدّل في مواقفي، ولا تلمّحي إليه حتّى! لقد تشكّلٍ حلفٌ جديد في مدينة كامبريه، واعتبروا جمهورية البندقيّة عدوًّا ينبغي هزيمته: سحقٌ شاملٌ للجمهوريّة البهيّة».

«ولماذا يا ترى؟ البندقيّة، في نهاية المطاف، تفعل ما يناسب مصالحها، تمامًا كما نفعل نحن. سوى أنّ البابا، مثل جمهوريّة البندقيّة، يخطّط منذ زمن لالتهام كلّ أقاليمنا، بما فيها فيرارا ومانتوفا، بلقمة واحدة».

«أجل، ولكن يغيب عن بالك يا عزيزتي أنّ السياسة تفرض الرقص على المشاركين!».

«بأيّ معنى؟».

«بمعنى أنّه يجب عليهم عدم التوقُّف أبدًا عند ذات النقطة. اليوم نكون هنا، وفي الغد قد يكون من مصلحتنا الانتقال إلى هناك. المعذرة، هلّا سمحتِ لي بهذه الرقصة؟ تذكّري أنّ كلمة السرّ التي اتّفق عليها جميع المنضوين في العصبة الجديدة هي: السلام. نحن نجتمع في كامبريه لنناقش السلام ليس إلّا. ولنناقش كيفيّة الحفاظ على السلام أيضًا».

ضعوا الفرّامة جانبًا كي نوزّع الحصص: الأسرع والأقوى يلتهم اللقمة الأكبر

ومن هم المتحالفون المتأهّبون للدخول في جبهة موحّدة؟ ها هم: لويس الثاني عشر ملك فرنسا، ماكسيميليان هابسبورغ الأوّل، الامبراطوريّة الرومانيّة المقدّسة، فرديناندو أراغون الثاني ملك نابولي وصقلية، شارل الثالث دوق سافوا. أوروبا قاطبةً بالمحصّلة؛ مع انضمامٍ متأخّرٍ لألفونسو دا إيستي وفرانشسكو غونزاغا.

سيتقاسم كلّ هؤلاء مناطق نفوذ البندقيّة، بما فيها دالماسيا وجزر البحر المتوسّط وصولًا إلى قبرص وكورفو. سيبتلع كلّ واحدٍ منهم لقمة كبيرة، ما عدا دوق فيرارا وماركيز مانتوفا اللذين ستقتصر مكافأتهما على إبقائهما على كرسيّيهما.

تكبّد جيش البندقيّة خسارة فادحة من قِبل الفيالق التي قادها ألفونسو، في معركةٍ طاحنة، عُرفت باسم أنياديلو، وكيارادادا أيضًا، نسبةً إلى الموقع الذي دارت فيه المواجهة، شمال إيطاليا. لدينا شاهدٌ

استثنائيٌّ حقًّا يروي تفاصيل الموقعة بصيغة المتكلم، مرتديًا زيّ جنديٍّ قرويٍّ، وهو المؤلّف أنجلو بيولكو، المعروف بـ«اللاهي». يفسّر لنا اللاهي الأسباب الحقيقيّة وراء تلك المجزرة التي حلّت بالجمهوريّة البهيّة كأكبر هزيمةٍ منيت بها خلال تاريخها الطويل.

ما الذي دفع بكلّ تلك القوى المتحالفة، في عصبة كامبريه، للانقضاض بوحشيّة على مدينة البندقيّة التي ليس لها حلفاء؟

بسيطة: الاقتصاد. ابتكرت مصارف البندقيّة نظامًا يمكن وصفه حاليًا ببطاقة الائتمان. يسمح هذا النظام لأيّ مواطن في الجمهوريّة، بعد حصوله على تلك السندات التجاريّة، أن يساهم بفوائد إحدى عمليات السوق، أو أكثر؛ تلك العمليات التي يحدّدها اغتنام الأراضي (من دالماسيا إلى اليونان وعموم المشرق) أو الغزو العسكريّ. لكنّ البندقية نادرًا ما كانت تركّز على غزو الأراضي، التي تنوي استغلالها، بالمعنى الملموس. بل غالبًا ما تفضّل أن تترك إدارتها السياسيّة للأمراء المحليّين، وتغتنم موارد تلك البلاد بدفع الإيجار. فهدّدت هذه الهيمنة شتّى مصالح القوى الأخرى التي شعرتْ بالضرر من صعود البندقيّة كقوة اقتصادية خارقة بفضل مصارفها ومشاريعها وأسواقها. أدّى تكاتف البرجوازيّة التجاريّة الوليدة إلى سحب إدارة الأعمال من زمرة المالكين الضيّقة، وتسليمها مباشرة إلى شعبٍ نشيط من الناحية الاقتصاديّة، ورائدٍ في مشاريعه التي تتمدّد شيئًا فشيئًا.

لا يمكن الاستغناء عن الأقنعة في مسرحيّة عبثيّة

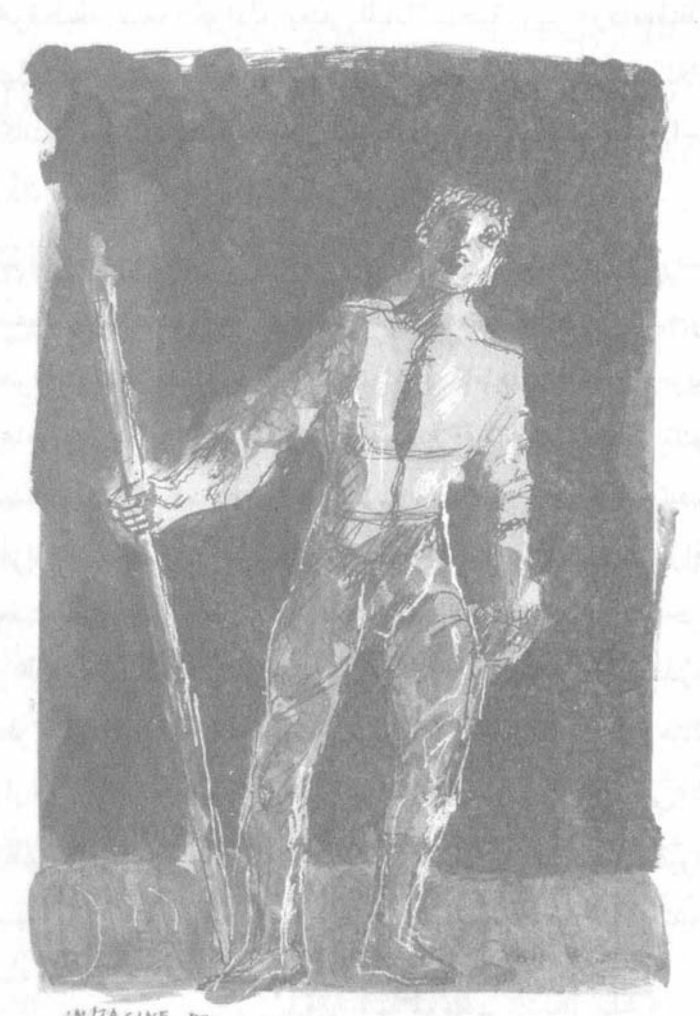
في تلك السنوات، بينما كانت دول العصبة تحتفل بانتصارها

الساحق الذي أخضع جمهوريّة البندقيّة لمطالب الحلفاء ما جعلهم يتهيّأون لتقاسم الكعكة، قدّمت إحدى الفرق المسرحيّة العريقة في فيرارا عرضًا إيمائيًا، من إخراج القدير أريوستو ذاته الذي كان يدير مسرح البلاط. كانت الفرقة مكوّنة من موسيقيّين وممثّلين، سعوا إلى إعادة إنتاجٍ عبثيّة للواقع المزري والمتخبّط، الذي تعيشه أوروبا، بكلّ ما فيه من حوادث رهيبة وكارثيّة.

في المشهد الأوّل، يظهر بعض المهرّجين، المتنكّرين بأقنعة وأزياء لمحاربين عجائبيين، يتصارعون بضراوةٍ وعنف تحسَبهما حقيقةً لا تمثيلًا. وكانت خدعة المجزرة مُحكَمة لمهارة الممثّلين في التخفّي وسرعتهم في التبديل ما بينهم وبين الدمى النازفة.

تلي ذلك رقصة عبثيّة وبهلوانيّة بالفعل، يتقدّم فيها مهرّجون آخرون، متنكّرين بزيّ الكنّاسين، ويجرّون عربات أشبه بعربات عمّال النظافة، ويلتقطون أشلاء المقاتلين بمذارٍ طويلة فيجمعونها ويرمونها في الحاويات، وهم يرقصون دومًا.

في تلك الأثناء، تتقدّم عروش الظافرين من عمق المسرح، يدفعها أساقفة ورجال دين. فها هي ملكة فرنسا، ترتدي ثياب محاربةٍ تذكّرنا بجان دارك. يظهر بعدها مباشرة الامبراطور ماكسيمليان، وهو يحمل بين يديه كرة ذهبيّة، تشبه كوكب الأرض، يقذفها إلى الأعلى بينما يتلقّف كرة أخرى، آتية من خارج الخشبة، أكبر من سابقتها بكثير. ثمّ يبدأ عرض الخفّة برمي مئات الكرات المحشوّة بالخِرَق التي تملأ خشبة المسرح. من بين اللاعبين، ملك إسبانيا، ومعه الملكة خوانا المجنونة، يلهو بالركض ذهابًا إيابًا، وهو يحمل سهمًا حديديًا يثقب به تلك الكرات. هل فهمتم الترميز؟



اللاهي

في المشهد الختاميّ العظيم، يتقدّم الحبر الأعظم من عمق المسرح، واضعًا على وجهه قناعًا لوجه يوليوس الثاني، بملامح ساخرة طبعًا، يتبعه الكرادلة. يعتلي البابا المنصّة، وينزع رداءه لتظهر تحتها بذلة معدنيّة واقية، إضافة إلى السيف والترس. وبعد تلاوة البركات، يحرّك سيفه بخفّة فإذا به يقطع رؤوس الكرادلة، واحدًا واحدًا، فيتّجهون خارج الخشبة راقصين، بأجسادٍ بلا رؤوس.

ثمّ يُفسح كلّ المهرّجين والراقصين المجال لجان دارك، لفرنسا، ويقدّمون إليها ملفوفات كبيرة من الرقّ، مصطنعة طبعًا. تتدحرج الملفوفات لتكشف عن خرائط كبرى لمقاطعة لومبارديا: بريشا وبرغامو وكريما وكريمونا، وخريطة عملاقة لميلانو أخيرًا. تلتهم القدّيسة الفرنسيّة المحاربة الخرائط، واحدة تلو الأخرى، وتبصق الأجزاء التي يصعب هضمها. وكلّما ابتلعت من تلك الأوراق، انتفخت بطنها حتّى انفجرت بذلتها المدرّعة. يأتونها ببذلة أخرى على الفور، ثمّ بأخرى، فإذا هي تتحوّل إلى امرأة عملاقة مدرّعة تسيطر على المسرح كله. تحاول دول العصبة القفز هنا وهناك، للفرار قبل أن تسحقهم تلك المرأة العملاقة التي تأكل كلّ شيء.

يظهر البابا ثانية من أسفل الخشبة، حيث يعزف الموسيقيّون. وحينها، يأتي أمير البندقيّة، من عمق المدرَّجات، على متن جندولٍ يحمله فوق رؤوس المشاهدين. فيصرخ به البابا:

«يا أمير البندقية البهيّة، حان وقت السلام بيننا إن أردنا البقاء على قيد الحياة!».

«كيف يا قداسة البابا؟ تقهرني في ما مضى، ثمّ تطلب مني أن أنقذك؟».

«ألا ترى كيف تضخّمت ملكة الفرنجة؟».

«أجل، لكنّي لا أثق بك. في البدء اصطحبتني إلى السرير ثمّ عاملتني كما لو كنتُ عاهرة. أمّا الآن، أريد زواجًا مُعترفًا به أمام الجميع».

يتبدّل المشهد كليًا، لنجد أنفسنا أمام وليمة غداء، أو مأدبة زفاف. وأمام كلٍّ من العروسين أطباقه المليئة بالطعام. عصافير مشويّة، سمك مقليّ، أجبان وفواكه وخضروات. يسعى العروسان إلى سرقة طعام أحدهما من يد الآخر، ومن فمه أيضًا؛ إلى أن ينتصر البابا، وينتفخ بدوره، في رفّة عين. لكنّه ينفجر للأسف، وتتطاير أشلاؤه في كلّ مكان. وسرعان ما يهبط حبرٌ جديد، منتفخٌ أساسًا، من أعلى المسرح. تطغى فرنسا البدينة على المشهد ثانية، وهي تحاول شقّ طريقها، مهاجِمة ببطنها، فتصدّها البندقيّة والدولة البابويّة ببطنَيْهما أيضًا. وفي النهاية، يقع الجميع على أرضيّة المسرح، وقد أنهكهم الإرهاق، ويغفون بشخيرٍ هادر شبه نغميٍّ.

في ذلك العصر، الذي عُرضت فيه تلك التمثيليّة الإيمائيّة، كانت تقع مجرياتٌ حقيقيّة تبدو امتدادًا لعبثيّة تلك المسرحيّة. ينشغل ألفونسو بجيش عصبة كومبريه، بعد أن تولّى القيادة العامة، ما يرغمه على إهمال حكومة فيرارا. فيقرّر تكليف الشخص الأمين، الذي لا يثق بأحد سواه، على تولّي مهمّات الدوقيّة الجسام. ومن يستطيع شَغل هذا المنصب الحسّاس غير لوكريسيا؟ وها هي

تُنصَّب حاكمةً بصلاحياتٍ مطلقة على دوقيّة فيرارا. حتّى رأت أنّها قد بلغت المجد.

قبيل معركة كيارادادا الطاحنة، والتي كان صاحبنا ألفونسو دا إيستي يعدّ لها العدّة بتجهيز فيالق العصبة وتركيب المدافع وقدْرٍ هائلٍ من البنادق، كان فرانشسكو غونزاغا يقود فصائل الجيش البابويّ، فإذا به يتعرّض لوعكة صحيّة رهيبة، بسبب دائه المزمن. يفقد وعيه ويختلّ توازنه، ناهيك عن إصابته بحمّى ارتعاشٍ شديدة وشللٍ جزئيّ في ساقيه. خلاصة القول، لا يمكنه أن يقود المعركة بالتأكيد. ينتشر الخبر فورًا، ما يثبّط عزيمة الجنود والفرسان بين صفوف التحالف الكبير. وكان من المتوقّع أن يصبح الحدث أضحوكة على لسان كلّ شاعر شعبيّ ساخر في شتّى المدن.

بعد قرابة الشهرين، اجتاز فرانشسكو الأزمة، وكان يعبر مع مجموعة من المحاربين الحدود التي تفصل أراضيه عن أراضي البندقيّة، من دون أن ينتبه لذلك بسبب الضباب الكثيف. فوقع في أيدي طليعة من جنود الجمهوريّة، وسرعان ما عرفوه وصرخوا: «ها هو الغدّار!»، وأسروه.

يُساق إلى البندقيّة ويُسجن في برج صغير. يخشى ماركيز مانتوفا أن تحكم عليه البندقيّة بالإعدام؛ ويعيش اضطرابًا وتوترًا لعدة أيّام، فضلًا عن ازدياد آلامه بسبب داء الزهري، وأوضاع السجن المترديّة. لكنّه يفكّر أنّ البندقيّة تنوي الإبقاء عليه رهينةً لتبادل الأسرى؛ فتشدّ هذه الفكرة من عزيمته ويصمد.

تتحرّك إيزابيلا ولوكريسيا، كلٌّ على حدة، بإرسال توسّلاتهنّ إلى الجمهوريّة، لعلّهم يتوصّلون إلى حلٍّ يُفضي بالإفراج عن

فرانشسكو. تحاول لوكريسيا إقحام زوجها أيضًا، لا تنسوا أنّه كان قائد الفيالق البابويّة، كي يتشجّع ويفاوض لصالح الأسير.

تقع إيزابيلا فريسة الإحباط، فتّتجه إليها لوكريسيا لمؤاساتها. وما إن تنزل من الزورق، الذي أوصلها إلى رصيف البحيرة الكبرى، حتّى تجدها بالانتظار عند بوّابة القلعة. تركض إيزابيلا نحوها، رغم بدانتها، وتعانقها: «كنت بأمسّ الحاجة إلى صديق حقيقيّ؛ وها أنت تثبتين أنّكِ كذلك حقًا».

تجلس المرأتان في الطابق الأرضيّ طبعًا، وتتناولان الفطور.

«هل أتيتِني بأنباء يا تُرى؟».

«هلّا استأذنتِ الخدم جميعًا بالخروج من هنا؟».

«حالًا، ولكن لماذا؟ ما الذي حدث؟».

«ستعرفين».

تأمر إيزابيلا الخدم بالانصراف، ثمّ تسأل: «ما الذي حدث؟».

«أتيتكِ بنبأ سارٍّ عن زوجك؛ ولكن إيّاك أن يعرف أحدٌ به. بالمناسبة، هل أنت متأكدة من عدم وجود آذان تتنصّت علينا من خلف الأبواب والنوافذ؟».

«اطمئنّي! لا يوجد أحد».

«جيّد. كما تعلمين، لقد أقحمتُ زوجي شخصيًا في قضيّة فرانشسكو».

«أجل، أعلم ذلك، أشكرك. وعلمت أيضًا أنّ ألفونسو يتمتّع بحظوة كبيرة عند البابا، وقد عيّنه مستشارًا ذا شأن كبير».

«أحسنت. من هنا يأتي النبأ السارّ تحديدًا».

«هاتِ، أرجوك».

«البابا أطلع ألفونسو، بسريّة تامّة، على نيّته تغيير التحالفات مرّة أخرى».

«التحالفات؟».

«اخفضي صوتك! هذا أمرٌ سرّيّ لا ينبغي أن أعرفه، لا أنا ولا حتّى ألفونسو. يبدو أنّ البابا يوليوس لم يعد يرى في البندقيّة خطرًا حقيقيًّا».

«كيف ذلك؟ إنّهم يتقاسمون أقاليم البندقيّة الآن!».

«صحيح، لكنّه في الوقت ذاته يحاول التوصّل إلى اتّفاق مع أمير البندقيّة».

«هكذا؟ بين عشيّة وضحاها؟ في الأمس عدوٌّ لدود، واليومَ حليفٌ عَضود؟».

تضحك لوكريسيا: «لقد تعلّمت من تجربتي الشخصية أنّه ما من شيء أسهل من تغيير التحالفات في السياسة. ولكنّنا، إذا نجحتْ هذه المرّة، سنحظى بمنافع جمّة».

«وما الذي سيحدث هذه المرّة؟».

«لا أعلم، ولا يهمّنا الآن. ما يهمّ أنّ زوجك سيخرج سالمًا وغانمًا لا محالة إذا اتّحدت البندقيّة مع البابا!».

تنسى إيزابيلا مصاعب وزنها، وتقفز إلى أحضان ضيفتها: «أنت ملاكي يا لوكريسيا!».

تسير الأمور على النحو الأفضل. يحدث الانقلاب السياسيّ

فيحلّ السلام بين البندقيّة والبابا؛ بل يشكّلان تحالفًا أيضًا. ويُطلق سراح الأسير على الفور ليعود، بعد عام من السجن، إلى بيته مريضًا لكنّه سعيد. وتُقام الاحتفالات التي يتخللها العناق والأناشيد.

من جهة أخرى، تنقلب جبهات التحالف رأسًا على عقب. ما يؤدّي إلى كارثة حقيقيّة، لا سيّما بالنسبة إلى فيرارا. لقد أشرنا إلى أنّ البابا أقرّ الصلح مع البندقيّة؛ أمّا الجديد فهو أنّ البابا، في الوقت نفسه، شرع يعدّ الحرب ضدّ فرنسا. عليه إذًا أن يخذل لويس الثاني عشر، ويفسخ عصبة كامبريه، ويشكّل عصبة جديدة، مقدّسة هذه المرّة، يضمّ إليها الألمان والاسبان. الله معنا!

يرفض ألفونسو دا إيستي، قائد جيوش البابا، أن يوجّه سلاحه ضدّ الفرنسيّين الذين لطالما كانوا أوفياءً لبيته: فيرارا طبعًا. لذا يعزله البابا مبدئيًّا، ويقرّر اجتياح دوقيّة فيرارا ليعيدها إلى طاعة الكنيسة.

أمّا أغرب الغرائب فهو أنّ قائد هذه التجهيزات الجديدة، الذي سيهاجم فيرارا، هو العائد ماركيز مانتوفا، فرانشسكو غونزاغا، إذ تسلّم حمل لواء الكنيسة بدلًا من ألفونسو. زد على ذلك أنّ البابا، ليضمن إخلاصه، أرغمه على تسليم ابنه فيديريكو رهينةً، ابنه ذي العشرة أعوام، الذي نقل إليه عدوى الزهري للأسف.

قرّر ألفونسو أن يبقى في صفوف الفرنسيّين ضدّ العصبة المقدّسة. وقد رأينا أنّ لوكريسيا، أثناء غيابه، أدارت حكومة فيرارا، وأثبتت رجاحة عقلها وصلابة حزمها. تراسل الدوقة نسيبها غونزاغا، غير مرّة، بعد أن غدا عدوًّا فجأة، وتطلب منه أن يتفادى اجتياح فيرارا بأيّ طريقة.

تخوّفت على مصير أبنائها في المقام الأوّل (في السنة السابقة،

أنجبت ولدًا آخر وسمّته إيبوليتو) فقرّرت اصطحابهم إلى ميلانو، ليكونوا في مأمن. لكنّ شعبها كان يثق بها جدًا، فاحتشدت الجموع عند أبواب القصر، وطلبوا الدخول إلى الباحة الداخليّة. تنزل لوكريسيا إلى أهالي فيرارا، ويناشدها أحد المتحدّثين باسمهم ألّا تتركهم لمصيرهم.

«أنتِ أملنا الوحيد. لا نشعر بالأمان إلّا معك. وإذا رحلتِ سنهاجر من المدينة نحن أيضًا».

تلتقط لوكريسيا عميق أنفاسها، وتسعل كي تخفي تأثّرها وتقول: «بعد مناشدتكم لي، أعدكم بأنني لن أغادر المدينة مهما كانت الأسباب والعواقب. إلا إذا طردني الغزاة».

تبقى لوكريسيا في فيرارا، وتأمر بتدعيم الأسوار وتشييد حصن جديد، شارك في بنائه الرجال والنساء على حدٍّ سواء[1].

كان زوجها على صلة بإدارة هذه الإجراءات بلا انقطاع. تُروى عنه أحدوثة طريفة حقًا. فبينما كان يُشرف على تحصين إحدى زوايا القلعة، وصل إليه رسول من البابا. سلّمه ظرفًا، ففتحه وقرأ ما جاء فيه بصوت جهير ليسمعه الجميع: «أنا يوليوس الثاني، حَبر الكنيسة الرومانيّة الأعظم. أطالبكم بتسليم مفاتيح المدينة للرسول الذي حمل إليكم هذه الرسالة. وإن امتنعتم، سيصل إلى مشارفكم، خلال أيام قليلة، جيشٌ عرمرم مكوّن من فيالق الامبراطوريّة المقدّسة ومملكة إسبانيا ومملكة ألمانيا».

«حسنًا، قل للبابا إنّه أقنعني. ما إن أرى طلائع جيوشه حتّى أسلّمه

(1) S. Bradford, *op. cit*. [المؤلّف].

المفاتيح حالًا». ثمّ شبك ذراعه على كتف الرسول، بشكلٍ وديّ، ومشى به قليلًا، كي يشير له إلى مدفعيّة ثقيلة منصوبة ومستعدّة للقصف. «أترى هذه الآلة الرهيبة؟ اسمها قاهرة الشياطين. لا تقذف صخورًا بل كراتٍ معدنيّة». أراه قذيفة، وأضاف: «انظر إلى هذا الشيء. إنّه مؤلّفٌ من قطعتين. داخله أجوف، وقفله لولبيّ. يكفي أن تُديره لينفتح تلقائيًا». ثمّ أخرج من جيبه مفتاحًا. «سأضع المفتاح للبابا هنا في الداخل، وأغلق. ثمّ أدخِل القذيفة في فوّهة المدفعية وبووووم! أقذف المفتاح ليسقط بين ذراعيه تمامًا، بدقّة فائقة، شرط أن يظلّ واقفًا في مكانه طبعًا».

في الماضي، كانوا يسمّونه «الداء الفرنسيّ»، ثمّ «الداء الإسبانيّ»، وفي القرن السادس عشر سمّوه «قلادة الجنرال»

لكنّ ذلك البابا لا يظلّ واقفًا في مكانه أبدًا. يغادر روما في تلك اللحظة، متّجهًا إلى بولونيا حيث يخيّم الجيش الذي يقوده فرانشسكو. ويأمره: «هيّا! انطلق!».

«المعذرة يا قداسة البابا، لا أستطيع، ليس لأنّي عديم الشجاعة أو ضعيف الإرادة، بل لأنّي مريض، لقد هدّتني أزمات هذا الداء. أزدرد خلطة الزئبق كلّ ساعة، أتجرّع السمّ آملًا في إخماد العذاب. أرجو أن تتفهّمني قداستكم، فأنتم قد أصبتم بداء الزهري، وتعرفون أوجاعه جيدًا».

يقتنع البابا: «معك حقّ. استرح الآن، ومتى استعدتَ عافيتك، هاجمتَ فيرارا. ولكن حذار من الحديث بالأمر لمن حولك! سواءً عن دائك أم عن دائي!».

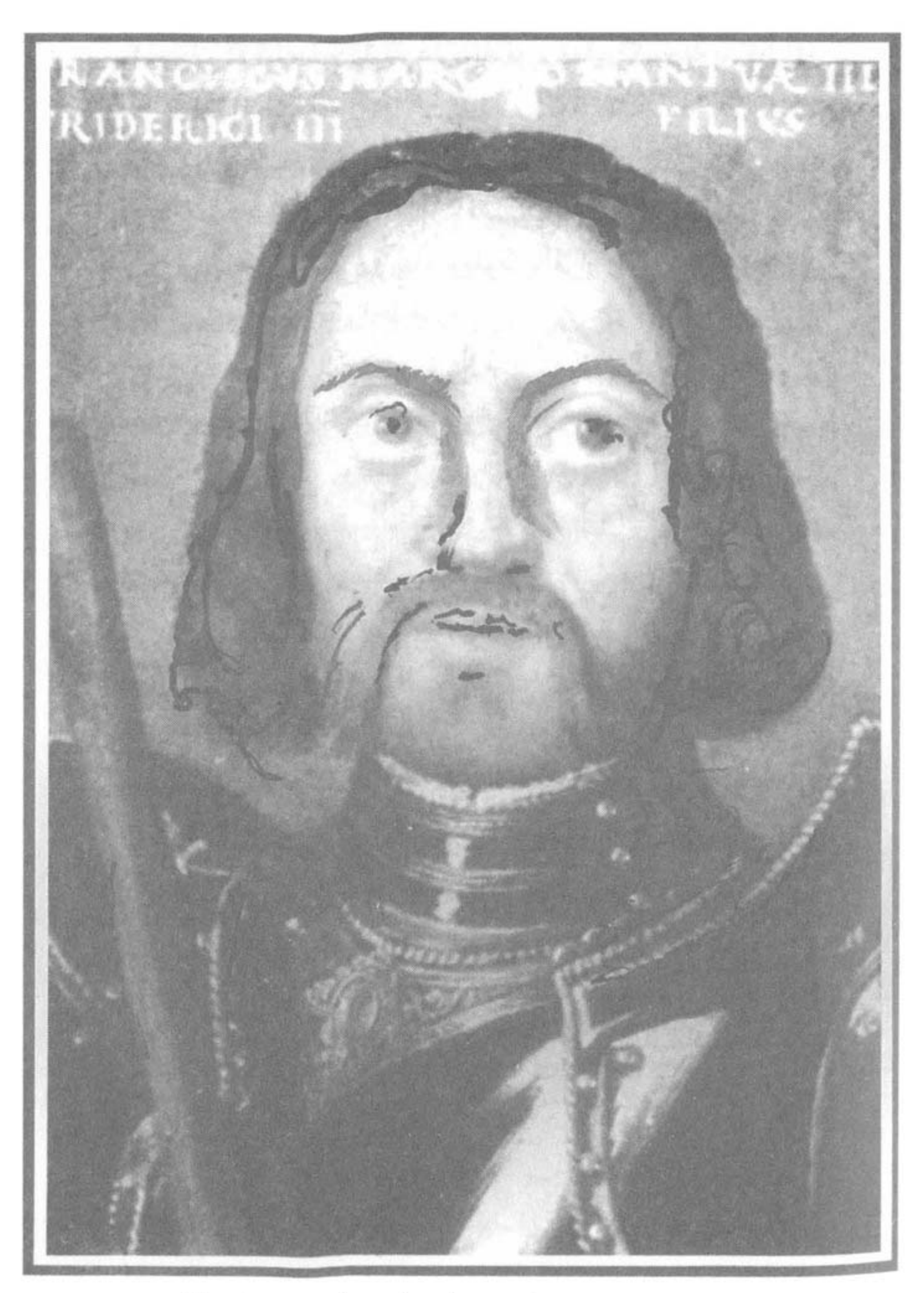
في تلك الأثناء، تحمل لوكريسيا على عاتقها تشجيع الشعب في فيرارا، والترحيب بموفدي الحلفاء الفرنسيّين بكلّ احترام وامتنان. تقيم لهم حفلات في الساحات وتدعو فرسانهم إلى القصور.

يعلّق أشهر الفرسان الفرنسيين على حسن استقبالها وجاذبيّة شخصيّتها، وهو الأسطوريّ بيير تيري دو بايار «الفارس النزيه المقدام». يقول عنها: «كانت جميلة ومهذّبة ولطيفة المعشر مع الجميع. وكنت محظوظًا بمعرفتها شخصيًا، ولا أجد حرجًا في أن أسمّيها جوهرة هذا العالم».

وربّما كان من ترتيب الصدف أن يصطدم الجيشان في سهول رافينا، حيث كانت توجد بحيرة موحلة قبل مائة عام تحيط بالجزر الخمس التي تتشكّل منها المدينة. اشتبك الجيشان، ونجحت القوّات المتحدة من الفيراراتيين والفرنسيّين، بمساهمةٍ ملحوظة من مدافع ألفونسو، أن تهزم فيالق العصبة المقدّسة، في وحول رافينا.

لكنّ المعركة خلّفت آلاف القتلى من كلا الطرفين. خسر الفرنسيّون خيرة رجالهم، من بينهم القائد غاستون دو فوا، وقد خلّدت رافينا ذكراه بمنحوتة رخاميّة رائعة تصوّر جسد المحارب القتيل ووجهه ودرعه. وهكذا قرّرت الجيوش الفرنسيّة إخلاء المكان والعودة إلى ميلانو؛ فبقيت فيرارا وحدها، دوقًا ودوقة وشعبًا.

حين شعر ألفونسو بعدم قدرته على مواجهة البابا، اتجه إلى روما محاولًا التوصّل إلى تسوية ما. فيجيبه البابا: «أمنحك الغفران شرط أن تتنازل عن كلّ أملاكك».



فرانشسكو غونزاغا، غير قادر على قيادة جيش البابا

«دعوني أفكّر هذه الليلة على الأقلّ، قداستكم. لا بدّ أن أخبر شعبي بهذا».

يتّجه إلى ضيافته في مبنى القدّيس كليمنت، ثمّ يغيّر وجهته، ممتطيًا حصانه، إلى باب سان جوفاني. يصادف جنازة بعض القتلى خارج المدينة، فيتسلّل إليها، ويلوذ بالفرار مقرّرًا أن يتجه إلى مقاطعته من دون وقفة واحدة.

يصل خبر هروبه إلى البابا، فيشعر بالخديعة ويأمر بإعداد الجيش للصعود نحو الشمال. الوجهة: فيرارا.

يصل الدوق إلى مدينته بعد ثلاثة أشهر، لأنه أجبِر على اتخاذ طرق وعرة، تفاديًا للوقوع في أيدي مرتزقة البابا وزبانيته. يلجأ عند فابريسيو كولونا الذي يصطحبه عبْر دروبٍ سرّيّة.

في تلك الأثناء، كانت فيرارا ترتّب خطوطها الدفاعيّة، بعد أن أفادت الأنباء بأنّ المرتزقة السويسريّين الرهيبين في طريقهم إليها أيضًا. وكانت لوكريسيا، بانتظار عودة زوجها، تدير العمليات، وتستنهض الهمم وتحيط الجميع بالثقة.

تقلق إيزابيلا على مصير فيرارا، وفي إحدى رسائلها إلى أخيها الكاردينال إيبوليتو، تقول: «[البابا المقاتل] يتطلّع إلى ليّ ذراع آل إيستي وضمّ أملاكهم إلى حظيرته. أدعو الله أن يقضي عليه ويخلّصنا من أهواله عاجلًا[1]». وكما يقال في فيرارا، إنّ لله ألف أذنًا ويسمع بالأذن السليمة دومًا. وهكذا أصيب البابا بسكتة قلبية وأسلم الروح. يصل الخبر بسرعة البرق إلى فيرارا حيث ينفجر الناس فرحًا ورقصًا واحتفالًا.

---

(1) *Ibidem*. [المؤلّف].

للتذكير: البابا الذي يهبط من الأعلى، في التمثيليّة الإيمائية التي رأيناها معًا، هو ليون العاشر، ابن لورنسو دي ميدتشي، وخليفة يوليوس الثاني. وفي المشهد الختاميّ للتمثيليّة نفسها، البابا الذي يموت هو جوليانو ديلا روفيري، الذي كان يخطّط للاستيلاء على مدينة فيرارا.

تقام جنازة كرنفاليّة في فيرارا، تمثّل هبوط البابا اللعين في الجحيم. وفي الوقت نفسه، يحتفل شعب الدوقيّة باختيار البابا الجديد، الذي يبدي لطفه لآل إيستي. خلف هذا البابا، ثمّة شخصيّة نعرفها جيدًا: إنّه بييترو بيمبو. هو الذي أقنع البابا بتغيير سياسته بخصوص فيرارا، بعد أن عيّنه مستشارًا خاصًا لقداسته. يا لها من مفاجأة رائعة! فقد عرفناه مُحْجِمًا عن دخول معترك السياسة، وها نحن نُصدم برؤيته يتوغّل في دهاليز الكنيسة ويرتدي بردة الكاردينال.

ما قيمة أن تكون ثريًّا من دون أن يحيط بك الفقراء كي تمارس شفقتك عليهم؟

كانت لوكريسيا، في تلك الآونة، قد قرّرت إنشاء أوّل جمعيّة خيريّة في فيرارا، «جبل الشفقة»، لإعانة المعدمين من سكّان الريف والمدينة. ما الذي دفع «الدوقة اللطيفة»، كما بات الجميع يسمّونها، لتأسيس جمعية تُعنى بتقديم الدعم العاجل في ذلك الظرف تحديدًا؟

أسفر استمرار الحروب عن مصائب متلاحقة في أرجاء سهل البو، فكانت الجيوش تدمّر الحقول، وتُرغم الفلاحين على مهاجرة

أراضيهم، ما يسبّب نقصًا في الحبوب والخضروات يشمل أسواق المدينة أيضًا. وكما جرت العادة في كلّ مكان، يظهر المرابون في زمن الأزمات. ولم يكن في مخطّطات لوكريسيا تأسيس مركز مصرفيّ على نمط مصارف القروض المعهودة التي برزت في معظم المدن؛ ولئن منحت تلك المصارف قروضًا بفوائد أخفّ وطأة من فوائد المرابين، فإنّها كانت تشارك عمومًا في تسبّب الكوارث الجماعيّة المرعبة.

وبالفعل، في نهاية القرن الخامس عشر تحديدًا، تنهار أهمّ المصارف الإيطالية في فلورنسا: مصرف ميديتشي. تسبّب هذه الضربة خسائر فادحة خصوصًا لدى صغار التجّار والحرفيّين وأصحاب المحلات، إضافة إلى جميع الفقراء. ومن لم يعد قادرًا على تسديد ضرائب منزله، يُجبر على بيعه ويهجر المدينة.

بالعودة إلى فيرارا، لا ننسى أنّ لوكريسيا ظلّت مسؤولة عن هيئة الشكاوى، وهكذا وجدت نفسها تحت ركامٍ من الطلبات التي تستنجد تدخُّلها المستعجل لإنقاذ المواطنين. فمن أين استلهمتْ فكرةَ تأسيس جمعيّة بالغة التعقيد، وثقيلة أيضًا على كاهل حكومة المدينة؟

مما لا شكّ فيه أنّ لوكريسيا حصلت على خطب القسّيس برناردينو دا سيينا، الذي كان مُجدِّدًا حقيقيًا في عصره؛ إذ دُوِّنَتْ مواعظه، وجُمعت وطُبعت، باللغة العاميّة، ومؤّلفها لا يزال على قيد الحياة. ومن الوارد أنّ لوكريسيا اطّلعت على تلك المخطوطات حين لجأت إلى الدير بعد إكراهها على الطلاق من زوجها الأول، سفورسا.

لم تكن مواضيع رسالة برناردينو تتطرّق إلى مواعظ عامة وفقهيّة، بل كانت تتعمّق حقًا في الاقتصاد وأزمات السوق وسبل الخروج منها. لقد ألّف هذا الكاتب العظيم عملًا بعنوان «عن العقود والربا». وفي هذا المخطوط، يتعمّق القسّيس بشغف في إشكاليّات الملكيّة الخاصة والمضاربات واستغلال العمل. ما قد ينمّي الشكوكَ بأنّ كارل ماركس نسخ من برناردينو أفكاره الأساسيّة. وفضلًا عن المضاربات والربا، تتطرّق خطبه إلى ظاهرة منتشرة على نطاق واسع في ذلك الزمان، وقد تسبّبت بأضرار عميقة في المجتمع. نتحدّث عن لعبة القمار، بوصفها عملية نهب حقيقيّة. إذ لم تقتصر إدارتها على مجاميع المجرمين المختصّين بها، بل إنّ حكومات الدول، بما فيها دولة الفاتيكان، كانت تحصل على جبايات دسمة من استغلال اليانصيب والمراهنات الجماعيّة.

وقد يبدو غريبًا أنّ برناردينو خضع لمحاكمةٍ تتّهمه بالهرطقة لأنّه صرّح بأنّ العملة، بما فيها العملة البابويّة، إحدى وسائل الشيطان. هنيئًا له بأنّ المحاكمة تثبت براءته في النهاية.

انطلقت مبادرة لوكريسيا بكتابة نصّ، أو «صرخة»؛ لذا وظّفت عددًا كبيرًا من الدعاة ليقرؤوا تلك الكتابات على الملأ في الأسواق، وفي الكنائس أثناء تأدية الشعائر، بعد موافقة الأسقف طبعًا. يقول النصّ: «منذ أعوام وهذه المدينة ترزح تحت طغيان عدد هائل من الأوغاد الذين يعملون بالربا. لا بل إنّ الطاعون وباءٌ أرحم من الثراء عبْر إقراض المال. لقد قضى أولئك المحتالون على عائلات بأكملها، يعرضون عليك المال بنسبة ثلاثين بالمائة وإن تأخّرت بالسداد ازدادت الفوائد مرّة تلو الأخرى. أمّا نحن، في هذا المصرف

الخيريّ الجديد، سنأخذ محلّهم، لا لنخلف هؤلاء الأنذال على سرقة أموالكم، بل لكفّ بلائهم عنكم. علمًا أنّ جمهورية البندقيّة دأبت منذ أعوام على معاقبة المرابين الحقراء، بوضع الأغلال على رقابهم، وحبسهم لأيّام داخل قفصٍ معلّق على برج قصر العدل، ثمّ تجريدهم من كامل حقوقهم المدنيّة وطردهم خارج الأسوار إلى الأبد. حسنًا، فليعلمْ أولئك السفلة أنّنا سنطبّق منذ هذه اللحظة القانون ذاته في فيرارا. وعليه فإنّنا أسّسنا فرقة خاصة من الحرس، باشرت عملها ووافتنا بأسماء الفاسدين، وبات بعضهم في السجن الآن. في هذا المصرف الجديد، نرحّب بطلبات العون من الجميع، لا نُبّدي أحدًا على أحدٍ من حيث الاستحقاق، فالفقراء كلّهم في حاجة إلى الغوث، ولن نطلب منكم أيّ التزام بوفاء الديون؛ لكنّكم ستقدّمون خدماتٍ عامّة، يعود نفعها على الجميع، بضعة أيّام في الأسبوع، حتّى نستوفي كامل ديونكم».

ومن أين استمدّت لوكريسيا فكرة «الصرخة» هذه؟ من الوارد جدًا أنّها استمدّتها من إحدى خطب برناردينو التي كان يقيمها على الملأ في ساحات سيينا، وقد نُشرت في ذلك الزمان أيضًا.

ومن أين استمدّ هذا القسّيس الثوريّ أفكاره؟ حصل برناردينو على أكثر أفكاره من القدّيسة كاترينا دا سيينا التي وعظت في أحياء المدينة نفسها قبله، والتي انضمّت إلى «جمعية راهبات القدّيس دومينيك» وهي لا تزال شابّة. وتعرّضت حينذاك للقاءٍ يشبه لقاء القدّيس فرانسيس الأسيزيّ إلى حدّ كبير. إذ وجدت نفسها تسعف إحدى المصابات بمرض الجذام، فأدركت أنّ مصيرها التفرّغ لرعاية البؤساء.

ألحقتْ كثرةُ الأوبئة صعوبة شاقّة في نجدة المصابين. لكنّ كاترينا استطاعت تطويع عدد ملحوظٍ من الشبّان والفتيات، وأسّست معهم «الكتيبة الجميلة». وغدا هؤلاء المتطوّعون سربًا كبيرًا من مختلف الأعمار، يستبسلون في الاعتناء بالمحتاجين. ومن هنا جاءت تسميتهم الدالّة على المرح. فقد ولد كلّ شيء بفضل الأجواء التي خلقتها هذه الشابّة العطوفة حولها.

يكفي أن نقرأ بعض السطور، من الرسائل التي كانت كتبتها لأتباعها، كي نُذهل بأسلوبها الفريد: «ليس من الصعب البقاء أبد الدهر في محبّة الربّ المقدّسة. يسوع الجميل. يسوع الحبّ. من يوفّق بين ضرورة العيش والإيمان الراسخ بفناء هذه الحياة الواهنة كرأس دبّوس تقتلعه الرياح، فإنّه لن يلهث خلف تشريفٍ أو منزلةٍ أو تبجيل، ولن يسعى إلى الثراء عبْر الجشع. بل إنْ صار ثريًا، وزّع خيرات الربّ على الفقراء».

استطاعت كاترينا، ببلاغة تعبيرها، البسيط والشعريّ في الآن نفسه، أن تكسب احترام كبار المثقّفين، وحرّكت مشاعر الكثير من رجال السلطة أيضًا، مثل برنابو فيسكونتي، إضافة إلى الكثير من الأساقفة والبابوات، من دون أن تبدي لهم طاعةً أو خنوعًا.

«ماذا تفعل هناك في أفينيون؟»، تكتب كاترينا للبابا. «عرشك في روما منذ قرون، وأنت تتركه خاليًا. ما الغاية من ذلك؟ ما الفائدة التي تجنيها الكنيسة؟ هل بطرس الصيّاد رمى أوّل شباكه في مقاطعة البروفنس؟ أهناكَ طلب أن يعلّقوه على صليب مقلوب كي لا يقلّد فداء المسيح؟ يومًا ما، إن تسنّى لك الوقت، ستشرح لي لماذا ذهبت إلى أفينيون، متبوعًا بعددٍ كبير من أصحاب المصارف يفوق عدد الأساقفة الذين رافقوك».

حين وصلت لوكريسيا إلى فيرارا، كانت قد حملت معها رسائل كاترينا، التي استطاعت تحصيلها من أديرة روما، إضافة إلى خطب برناردينو، الذي أصبح قدّيسًا. فأضحت هذه الكتابات مفاتيح أساسيّة في حياتها وسلوكها، منذ نشأتها. واستطاعت أن تؤثّر في جزء كبير من العاملين في البلاط بشخصيّتها النموذجيّة، ولا سيّما ألفونسو الذي غمرته بحبّ أصيل.

وأسّست، باسم القدّيس برناردينو، وأفكار القدّيسة كاترينا، ديرًا للأخوات الدومينيكانيّات. لكنّها حرصت على عدم تشييد ديرٍ تقليديّ، تطغى عليه معالم الزهد، ويُخصَّص للتوبة والصلوات، ويعتكف فيه كلّ من أراد الخشوع والابتعاد عمّا يشوّش العبادة.

إذ لطالما كرّرت كلمات القدّيس برناردينو: «البهجة التي سمح بها الربّ ليست حرامًا بل إنّها تمجيدٌ للطبيعة نفسها». «أكبر شكرٍ نؤدّيه ليسوع هو العطاء وليس الكسب».

احتفالًا بمرور تسعة أعوام على تأسيس الدير، دعت الأخواتُ والعجزةُ لوكريسيا لإلقاء خطبةٍ، ستبقى خالدة في تاريخ تلك الدار التي تستضيف الراهبات.

تقول: «نحن لم نبنِ هذا المكان لننعزل خلف جدرانه اتّقاءً لغدر العالم جسديًا ونفسيًا، بل - كما تقول القدّيسة كاترينا - كي ننفتح على العالم، وكي تحيا فينا المحبّة وتتحقّق. فالمحبّة ليست واجبة نحو الربّ فقط، بل نحو أيّ مخلوق يحتاج إليها.

المحبّة أعظم نعمة وهبها الخالق، لاسيّما إذا استطعنا تهيئة الروح والجسد لهذا الطقس العظيم، كما يقول القدّيس آمبروز، الذي ما هو إلّا طقس ولادتنا وولادة ذرّيتنا.



لوكريسيا

أخواتي العزيزات، أودّ أن أبلغكم بأنّي، منذ بضعة أسابيع، أنجبتُ لهذا العالم طفلةً جميلة، تتمتّع بكامل صحّتها وعنفوانها. ففكّرتُ أنّي سأقاسمها حيويّتها الخارقة. ولكن حدث العكس، وتوجّب عليّ أن أقدّم مساهمتي للطبيعة. لن يحصل ذلك في الحال، علمًا أنّ آلامي قد سكنت، كما في هذه اللحظات. لكنّي أعرف أنّها ستعود. وقد أنعم الله عليّ بإيماني بزوال هذه الحياة، وأشعر بدنوّ أجلي خلال وقت قريب[1]. لذا أوصيكنّ بأطيب الدعاء لزوجي وأولادي. وأتمنّى من هذه الحياة أن تلهمكنّ التمتّع بروعة العيش في هذه الحياة».

---

(1) Lettera di Lucrezia Borgia a Leone X, citata da S. Bradford, *op. cit.*, pp. 322–323. [المؤلّف].

مصادر المؤلّف

- AA. VV., *Lucrezia Borgia. Storia e mito*, Leo S. Olschki editore, Firenze 2006.
- Pietro Bembo, Lucrezia Borgia, *La grande fiamma. Lettere* ١503١5١7-, Archinto, Milano 1989.
- Sarah Bradford, *Lucrezia Borgia. La storia vera*, Mondadori, Milano 2003.
- Genevieve Chastenet, *Lucrezia Borgia. La perfida innocente*, Mondadori, Milano 1995.
- Alexandre Dumas, *I Borgia*, Sellerio, Palermo 2004.
- Roberto Gervaso, *I Borgia*, Rizzoli, Milano 1980.
- Ferdinand Gregorovius, *Lucrezia Borgia*, Salerno Editrice, Roma 1983.
- Marion Johnson, *Casa Borgia*, Editori riuniti, Roma 1982.

ولد داريو فو في إيطاليا عام 1926، وتوفي فيها عام 2016. هو ممثل وكوميدي وكاتب مسرحي ومخرج ومؤلف أغاني ومنسق حملات سياسية.

أُنتجت مسرحيته الأولى ذات المشهد الواحد في عام 1958 ومنذ ذلك التاريخ قام بكتابة وإخراج وتمثيل في ما يزيد على أربعين عملًا مسرحيا. حاز عام 1997 على جائزة نوبل للآداب وجاء في كلمة اللجنة: "هو من بين الجميع يمجِّد لقب (المهرج) بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة، فبمزيج من الضحك والجاذبية يفتح أعيننا على الظلم والاستغلال في المجتمع بمنظور تاريخي واسع يمكننا من إدراكهما عبره.."

رواية ابنة البابا هي عمله الروائي الأول..

تحكي رواية ابنة البابا قصة لوكريسيا بورجا كامرأة حية لها مشاعرها وأحاسيسها، بدلًا من اعتبارها جسدًا آخر ينتظر أن يُستباح، وتعتبر هذه الرواية تقديرا مهما لبطلتها المُهانة، بكل جمالها ووقارها المتّقد...

The New York Times

في هذه الرواية يكشف داريو فو عن إنسانية لوكريسيا ويحررها بالتالي من التعامل النمطي معها كامرأة داعرة خليعة تمارس سفاح القربى، ويستبدل ذلك بمحتوى تاريخي أصيل يدخلنا إلى عالم حياتها اليومية.

The Huffington Post Italy

تقدم رواية ابنة البابا رد اعتبار لشخصية لوكريسيا وحياتها، حيث تعيد كتابة قصتها بشكل درامي، وتسقط الاعتبارات القديمة التي تنظر إليها كوحش وعاهرة وشخصية سامّة...

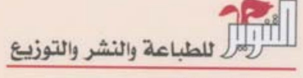
Washington Post

يعيد داريو فو لوكيرزيا بورجيا المشهورة إلى الحياة عبر خياله الواسع عبر استحضار سلوكياتها وتعاملاتها المضحكة والفضائحية.. فهو يلغي اختصارها إلى مجرد ضحية أو مغوية شريرة ويعيد سرد حكايتها بطريقة مقنعة وكوميدية يعلق فيها بأسلوبه الساخر على سلوكيات وأفعال عائلة بورجيا.

World Literature Today

اللوحة صورة للوكريزيا بورجيا
تصميم الغلاف نجاح طاهر


ISBN: 978-614-472-007-3



بيروت - القاهرة - تونس